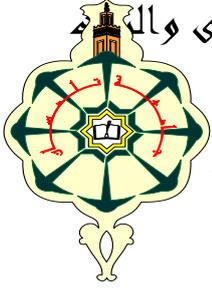


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

تخصص : الشعر الشعبي

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه :

شعر الطبيعة الشعبي لدى مدرسة تلمسان إبان القرنين 17 و 18 الميلاديين

إشراف الأستاذ الدكتور :

إعداد الطالبة :

شعيب مقنونيف

خيرة صغير

لجنة المناقشة :

اللقب والإسم	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د محمد الحق زريوح	أستاذ التعليم العالي	تلمسان	رئيسا
أ.د شعيب مقنونيف	أستاذ التعليم العالي	تلمسان	مشرفا ومقروا
د.ة نصيرة بكوش	أستاذة محاضرة (أ)	تلمسان	عضوا مناقشا
د.عبد الرحمن بغداد	أستاذ محاضر (أ)	م.ج مغنية	عضوا مناقشا
د.بن عبد الله فتح الله	أستاذ محاضر (أ)	المسيلة	عضوا مناقشا
د.عبد القادر بلي	أستاذ محاضر (أ)	م.ج عين تموشنت	عضوا مناقشا

السنة الجامعية :

2017 - 2018 م

المقدمة :

صار الشعر الشعبي اليوم لا يقل أهمية عن باقي الفنون الأدبية بصفته المرآة التي تعكس واقع الشعوب على حقيقته ، والمرافق الأساسي للأجيال لأنه ببساطة صادرٌ من نفس صادقة، و عاطفة جياشة وشخصية هادفة إلى توعية الناس بقضاياهم الوطنية والاجتماعية ، فهو إرث ثقافي مهم من نظم شعراء عاشوا آمال شعوبهم وآلامهم ، فعملوا على المحافظة عليه ، ومن واجبنا نحن مواصلة هذا العمل بضرورة تدوين هذا التراث ، وإبراز أهم حيثياته ، والإشادة بروّاده ، وإظهار دوره الفعال من مختلف نواحيه ، لذا فالحفاظ على هذا الفن من الضياع ضروريا بل واجبا لدى الدارسين و الباحثين .

ورغم الكشوفات العلمية المهمة التي حققتها الدراسات الميدانية للتراث الشعبي والشعر الشعبي على وجه الخصوص إلا أنّ بعض الجوانب لا زالت خفية أو لم تُدرَس بعمق لأسباب قد تكوّن منها نقص أو ندرة المادة العلمية الأولية . وقد وقع اختيارنا على جانب من جوانب هذا الفن و هو موضوع : شعر الطبيعة الشعبي لدى مدرسة تلمسان . وبحديثنا عن شعر الطبيعة وجدنا هذا الغرض قديما ، قد ظهر بظهور الشعر من العصور الأولى وتطوّر بتطوّرّها ، فالطبيعة كانت المصدر الأوّل لإلهام الشاعر ، قام بتمجيدها وتصويرها تصويراً حقيقيا بمختلف عناصرها الحية أو الصامتة وحتى المصطنعة منها ، فكلّما كانت بيئة الشاعر جملة زاد جمال الشعر وعبر الشاعر عن هذا الجمال بإبداع رائع .

وقد لا نبالغ إذا قلنا أنّ هذا الشعر قديم قدم الطبيعة في حدّ ذاتها ؛ امتزج بحب الطبيعة بداية من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي وصولاً إلى العصر الحديث والمعاصر دون أن ننسى العصر الأندلسي الذي وصل فيه شعر الطبيعة ذروته لجمال طبيعته وفتنتها .

شخص هؤلاء عناصر الطبيعة في صورة أشخاص يتحدثون معهم كأنّها تحدثهم و تسمعهم ، وظهر هذا النوع من الشعر لدى الشعراء الشعبيين لدى منطقة تلمسان الذين تأثروا بطبيعة بيئتهم لاسيما وأنّ المنطقة قد عرفت بجمالها وجمال آثارها ووديانها وجبالها وأنهارها وقصورها ورياضها ، فجاءت قرائح شعرائها و هاموا بتصوير هذا الجمال ، فظهرت أشعار اختصت بتصوير البيئة التلمسانية أبدت المناظر التي تتميز بها دون غيرها من البيئات الأخرى سواء كانت صامته أو متحركة أو مصنعة ، وبهذا جاءت محاولتنا في هذا البحث للحديث عن جملة الموضوعات والعناصر ذات الارتباط ببيئة تلمسان مع إبراز خصائصها ومميزاتها .

ما دفعني لاختيار هذا الموضوع هو مجموعة من الأسباب :

أولها : وهو دافع ذاتي يتمثل في ميلي إلى الشعر الشعبي وإعجابي الشديد بهذا النوع من القصائد الشعبية ، وما تحمله من عنوبة وجمال وتألّق في لغتها وموسيقاها .

ثانيها : محاولة إظهار هذا النوع من الشعر والتعريف به واستخراج أهم عناصره الصامته والحية من خلال دراسة عينة من الأشعار بالمنطقة وإبراز

خصائصه الفنية ، خصوصاً أنّ الدراسات في هذا الشأن - شعر الطبيعة الشعبي - قليلة جداً إن لم نقل منعدمة .

ثالثها : الرغبة في إظهار أهم ما ميّز مدينة تلمسان من مناظر طبيعية جميلة ، وما تزخر به من آثار لا بدّ من إبرازها وتسليط الضوء عليها وعلى حقائقها التاريخية لأنه بمثل هذا الشعر يستظلّ الجيد الجديد من قارضي الشعر الشعبي أو من مهتمين بدراسته وباحثين ، إنّ مثل هذه الأشعار يجب أن يُروّج لها ثقافياً ومعرفياً حتى يرتفع الذوق الجمالي .

أمّا المنهج الذي اتبعناه في هذه الدراسة فكان التاريخي المعتمد على وجه الخصوص في الجزء الأول من البحث أثناء تعرضنا لتاريخ ظهور شعر الطبيعة العربي وتطوره عبر العصور ، ومن خلال دراستنا أيضاً لظهور المنشآت العمرانية لدى مدينة تلمسان وأصولها العرقية وما إلى ذلك ، ثم المنهج الاستقرائي التحليلي من خلال التعرض لأهم العناصر الطبيعية التي عني بها الشعر الشعبي التلمساني وإبراز أهم خصائصها الفنية .

وقد استند البحث على مجموعة هامة من المراجع كان على رأسها دواوين نخبة من الشعراء التي درسناها أمثال ديوان الشيخ التلمساني بومدين بن سهلة الذي جمعه الأستاذ محمد الحبيب خشلاف وحقّقه وأعدّه للنشر محمد بن عمرو الزرهوني ، وديوان الأخضر بن خلوف لمحمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، وديوان ابن مسايب الأول الذي جمعه وحقّقه الغوثي بخوشة، والثاني الذي أعدّه وقدمه الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي، وكذا ديوان سعيد بن عبد الله المنداسي

بتحقيق وتقديم رابح بونار ، ومختارات من الشعر الملحون بتلمسان من إعداد وشرح أ.د. عبد الحق زريوح اعتمدنا من خلالها على مجموعة قصائد لابن تريكي والمنداسي وغيرها ، ومراجع أخرى تاريخية وأدبية ونقدية .

وبهذا جاءت خطة الأطروحة على الشكل التالي :

عنوان الأطروحة : شعر الطبيعة الشعبي لدى مدرسة تلمسان إبان القرنين

17 و 18 الميلاديين .

المدخل : عنوانه ب : شعر الطبيعة وتطوره عبر العصور ، عرفنا فيه بشعر

الطبيعة وتقسيمات الباحثين له إلى طبيعة حية ، صامتة ، ومصطنعة .

ثم تطرقنا إلى تطور هذا الشعر عبر العصور ، وكيف أن موضوعاته قد

اختلفت من عصر لآخر حسب طبيعة بيئة كل عصر ، ووقفنا عند العصر

الأندلسي على وجه الخصوص لأن شعر الطبيعة قد ازدهر و نما نمواً باهراً

بحسب جمال الطبيعة الخلاب الذي ميز الأندلس من جهة ، ونظراً لكون الشعر

الشعبي لدى منطقة تلمسان قد تأثر بموشحات وأزجال الشعر الأندلسي ، فأخذ

الشاعر ينحو منحاه في هذا المضمار .

الفصل الأول : وسم بعنوان : تلمسان إطارها الجغرافي ، بنيتها العمرانية

وتركيبتها الاجتماعية .

وقسمنا هذا الفصل إلى عناصر هي :

أولاً : الإطار الجغرافي للمنطقة :

أشرنا فيه إلى الموقع الجغرافي لتلمسان وتضاريسها ومناخها وأسماء المدينة التي عرفت بها .

ثانياً : تركيبها الاجتماعية :

ذكرنا فيه الأصول العرقية للمجتمع التلمساني والفئات الاجتماعية التي ميزته وقدمنا لمحة وجيزة عن الحياة العامة للمجتمع التلمساني .

أما الفصل الثاني : عنوانه ب : مضامين شعر الطبيعة الشعبي بتلمسان .

وقسمناه هو الآخر إلى أجزاء :

أولاً : ازدهار الشعر وتطوره بالمنطقة .

ثانياً : الشعر الشعبي وأعلامه بتلمسان .

قمنا في هذا الجزء بإعطاء لمحة وجيزة عن حياة شعراء المنطقة الشعبيين الذين تمت دراسة أشعارهم .

ثالثاً : موضوعات شعر الطبيعة الشعبي .

وقسمناها إلى :

- الطبيعة الحية : ذكرنا فيه أهم أنواع الحيوانات والطيور التي ذكرها

الشعراء .

- الطبيعة الصامتة : اختص هذا الجزء من البحث بإبراز الظواهر الطبيعية الصامتة من نجوم وكواكب وسحاب وغيم ومطر ، وأنواع النباتات من ورد وريحان وأشجار وسيقان و أوراق ...

- الطبيعة المصطنعة : كشفنا فيه عن ما ذكره شعراء المنطقة من قصور وأسوار و دروب ...

الفصل الثالث : الخصائص الشكلية لشعر الطبيعة الشعبي في تلمسان .

وتعرضنا في هذا الجانب إلى دراسة هذه الأشعار من حيث: اللغة والتركيب والتأريخ والتوقيع والأوزان .

وأخيراً الخاتمة التي أبرزنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث وبعض الاقتراحات ، وأرفقنا البحث بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدناها إثراءً وخدمة للبحث على رأسها مجموعة دواوين هؤلاء الشعراء ، كديوان أبي مدين بن سهلة ، بن تريكي ، بن مسايب ، ومراجع أخرى .

وفي النهاية لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي الفاضل المشرف على هذا العمل الدكتور شعيب مقنونيف ، الذي وسعني بعنايته الكبيرة العلمية و ثقته و حلمه الرّحب ، على أمل التوفيق والرّشاد في هذه المحاولة البسيطة لخدمة البحث العلمي .

الباحثة: خيرة صغير .

تلمسان في: 2017/07/19

المدخل : شعر الطبيعة و تطوره عبر العصور

1- مفهوم شعر الطبيعة :

شعر الطبيعة ليس موضوعاً جديداً في الشعر العربي إنما هو قديم قدم الشعر ذاته ، فالشاعر كان يرى أمامه عناصر الطبيعة ماثلة ، عاش فيها وجعلها الملاذ الأول . و كان لها نصيب كبير في شعر و دواوين الشعراء ...

يمكن أن نعرّف هذا الفنّ الشعري الذي يصلّى في محراب الطبيعة ، ويسبح بحمد مبدعها ويقنت لجلال خالقها ، بأنه الشعر الذي يصور الطبيعة بنوعيتها الصامت والصائت ، ويمثّلها وجدان الشاعر ويصورها خياله بعد أن أضفى عليها من لمساته ولفقاته ، وأفاض عليها من أضوائه واقتباساته .

عُرِفَ هذا الفنّ عند الشاعر العربي القديم فاعتنى شعراء العربية بتصوير الطبيعة على تفاوت بينهم في درجات التوفيق النفسي والفني في هذا الميدان الأدبي .¹

شعر الطبيعة في اصطلاح النقاد والدارسين المعاصرين يستقرّ على أنه يتناول بالتعبير قسمين رئيسيين :

أولهما : الطبيعة الصائتة يقصدون بها ما اشتملت عليه من الكائنات الحية المتحركة ذات الصوت سوى الإنسان ، وذلك كأنواع الحيوانات والطيور المختلفة ، لأنه ما من كائن حي منها إلا وله صوت مميز مهما تقاربت صورته وأنماطه .

¹ - هبة عبد المنعم ، شعر الطبيعة و موضوعاته في الشعر

الأندلسي، vb.mediu.edu.myshowthread.php?t=372

ثانيهما : الطبيعة الصامتة ويقصدون بها ما اشتملت عليه من الأنواع الثلاثة الآتية :

أ- الجمادات الطبيعية المختلفة : ما سكن منها كالأرض وجبالها وكثبانها وسفوحها ووديانها ، وما تحرك كالأنهار والبحار والجداول والمحيطات .

ب- النباتات المختلفة و ما يتصل بها كالرياض والأزهار والبساتين والأشجار والثمار إلى غير ذلك من أنواع النباتات .

ج- الظواهر الطبيعية المختلفة : كالشمس والقمر والنجوم والكواكب والبرق والرعد والرياح والليل والنهار والربيع والخريف¹.

وقسم بعض الدارسين الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهي ما أشرنا إليها ، وأخرى صناعية وهي التي يرجع إلى الإنسان فضل تأليفها وتنسيقها ، كالقصور والبرك المائية والنوافير والتماثيل وغير ذلك من كل مظاهر الجمال المصنوع .

لكن ما لاحظناه أثناء تصفحنا لبعض المراجع أن هناك من وضع تقسيما آخر للطبيعة لا يختلف كثيرا عن التصنيف الأول : الطبيعة الحية وهي الإنسان والحيوان ، والطبيعة الصامتة وهي الجبال والأنهار و النباتات و الطبيعة المصنوعة وهي كل ما تدخلت يد الإنسان في صنعه من برك ومساجد ومآذن وعمران ...

¹ - هبة عبد المنعم ، المرجع السابق .

فالتبيعة من العوامل التي تثير قريحة المبدع وتحثه على الإبداع ، يقول في هذا الشأن ابن قتيبة : " أنه لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي ، والمكان الخضر الخالي" ¹.

وعموماً يمكن القول أن أغلب الآداب كانت ممزوجة بحب الطبيعة ، بداية من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي وصولاً إلى العصر الحديث والمعاصر ، فالشعراء كانوا يعبرون عن ذاتهم النفسية ويبثون أحزانهم وحتى فرحهم إلى الطبيعة .

2- تطور شعر الطبيعة عبر العصور :

أ- العصر الجاهلي :

تعددت مواضيع القصيدة الجاهلية إلا أنها ترددت في الغالب على بعض المواضيع أكثر من غيرها ، فالشاعر الجاهلي وضعنا أمام معالم الحياة الجاهلية كأننا نعيشها ، فلم يدع مشهداً إلا و صورّه وعرض صور الطبيعة لاسيما الظواهر التي تأثر بها مباشرة في حياته كالظل ، الصحراء ، الليل ، المطر ، والبرد ، وذكر في شعره أنواع الحيوانات من فرس وناقة والبقرة الوحشية والذئب والعقاب ...

فالظل له علاقة مباشرة بوجودان الشاعر الجاهلي لما تثيره في نفسه من ذكريات ، هذا النوع من الشعر مثل تجربة الحنين و الشوق و الأسى ، حتى أن شعراء المعلقات جعلوه مطلقاً لمعلقاتهم ، نبغ فيه عدد من الشعراء على رأسهم

1- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، دار المعارف ، القاهرة ،

امرؤ القيس حينما وقف باكياً مُعدداً أسماء الأطلال واصفاً الريح ، ثم يُمَثِّلُ بكاءه
متشبيهاً بناقف الحنظل لانهيبار دموعه¹ :

قَفَا ² نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ	بِسِقْطِ اللَّوَى ³ بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ ⁴
فَتَوَضَّحَ فَالْمَقْرَأَةَ ⁵ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ⁶	لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ ⁷
تَرَى بَحْرَ الْأَرَامِ ⁸ فِي عَرَصَاتِهَا ⁹	وَقِيَعَانِهَا ¹⁰ كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلَنْفَلِ
كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا	لَدَى سُمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٍ حَنْظَلِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطْيُهُمْ	يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلِ
وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةَ مَهْرَافَةٍ	فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مَعَوْلِ

1- امرؤ القيس ، ديوانه ، شرح محمد بن إبراهيم بن محمد الحضرمي ، تحقيق أنور أبو
سويلم ومحمد الهروط ، دار المعارف ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1412 هـ - 1991م ،
ص 08 .

2- قفا : يخاطب رفيقه .

3- اللوى : منقطع الرمل .

4- الدخول ، حومل : موضعان .

5- توضح ، المقرأة : موضعان .

6- لم يعف رسمها : لم يمح أثرها .

7- الجنوب والشمال : ريحان متضادتان تهب الأولى من الجنوب والثانية من الشمال .

8- الأرام : جمع رئم ، وهو الظبي الأبيض الخالص البياض .

9- عرصاتها : ساحاتها .

10- القيعان : جمع قاع ، وهي الأرض المستوية التي لا بناء فيها .

والصحراء مثلت البيئة الطبيعية التي يتجول فيها الشاعر ويرتادها لطلب الرزق ، احترَفَ في وصفها الجاهلي وعبر عن قساوتها وصعوبة العيش فيها ، فهي عالم غير مأمون و مجهول ، قال عنها الأعشى¹ :

وَبِيدَاءٍ يَلْعَبُ فِيهَا السَّرَّاءُ	بُ لَا يَهْتَدِي الْقَوْمُ فِيهَا مَسِيرًا
قَطَعْتَ ، إِذْ سَمِعَ السَّامِعُو	نَ ، لِلجُنْدِبِ الجون فِيهَا صَرِيرًا
بِنَاجِيَةٍ كَأَتَانِ التَّمِيلِ	تُوفِي السَّرَى بَعْدَ أَيْنَ عَسِيرًا
إِلَى مَلِكٍ ، كَهلالِ السَّمَاءِ	ءِ أَزكى وِفَاءٍ وَمَجْدًا وَ خَيْرًا

صوّر هنا قساوة الصحراء و مدى صعوبة اجتيازها ، فمعظم الشعراء كانوا يتفاخرون لارتياها الذي يمثل وجهاً من وجوه الفروسية و البطولة ، ونشير هنا إلى أن موضوع الصحراء كان للتفاخر وهذه نزعة في الوصف الجاهلي بالبطولة والفروسية .

وقال عنها أيضا² :

وَبَلَدَةٍ مِثْلُ ظَهْرِ الثُّرْسِ مُوحِشَةٍ	لِلجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلٌ
--	---

1- الأعشى ميمون بن قيس ، ديوانه ، شرح محمد محمد حسين ، دار النهضة ، بيروت ،

1972 ، ص 97 .

2- نفسه ، ص 59 .

وعنها يقول امرؤ القيس¹ :

وَدَوِيَّةٌ لَا يَهْتَدِي لِفَلَاتِهَا بَعْرِفَانِ أَعْلَامٍ وَلَا ضَوْءِ كَوْكَبِ
تَلَاقِيْتُهَا² وَالْيَوْمَ يَدْعُو بِهَا الصَّدَى وَقَدْ أَلْبَسَتْ أَقْرَاطَهَا ثَنِيَّ غَيْهَبِ³

وصف في البيت الأول الظلمة التي تطمس المعالم ، و تحدث في الثاني عن الوحشة ذاكراً أصوات البوم التي لا جيدها إلا الصدى ، و البوم ترمز إلى الأمكنة الخالية .

هذا وقد تناول الشاعر الجاهلي عناصر طبيعية عديدة ، فوقف مندهشاً أمام جبروتها وعنفها وصخبها وغضبها ، فغالباً ما اقترن ذكر المطر بوصف السيل في غزارته . جاء ذلك في شعر الأعشى حيث وصف المطر بذكره للسحاب المعرض المتتابع ، ثم يتحدث عن السيل الذي يسببه المطر :

¹ - امرؤ القيس ، المصدر السابق ، ص 62 .

² - تلاقيتها : قطعها .

³ - الغيهب : الظلام .

بَلْ هَلْ تَرَى عَارِضًا¹ قَدْ بَتَّ أَرْمَقَهُ
 كَأَنَّما الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهِ² شَعَلٌ³
 لَهُ رُدَافٌ⁴ وَجَوْزٌ⁵ مَفْأَمٌ⁶ عَمِلُ
 مَنْطِقٌ بِسِيَجَالٍ⁷ الْمَاءِ مُتَّصِلٌ

هذا وقد تناول الشاعر الجاهلي مظاهر طبيعية أخرى كالبرق باعتباره رفيق للمطر يتقدمه أو يصحبه ، وهناك في مُعلِّقة امرؤ القيس أبيات تضمنت البرق والمطر ، فوصف مطرة تتفجّر دفعاتٍ منهمرة ، يقول⁸ :

دِيْمَةٌ⁹ هَطْلَاءٌ ، فِيهَا وَطْفٌ¹⁰
 طَبِقُ الْأَرْضِ تَحْرَى¹¹ ، وَتَدْرُ
 تَخْرُجُ الْوَدَّ¹² ، إِذَا مَا أَشْجَذتْ¹³
 وَتُوَارِيهِ ، إِذَا مَا تَشْتَكِرُ¹⁴

1- العارض : السحاب الذي يعترض الأفق .

2- حافاتِه : أطرافه .

3- شعل : جمع شعلة وهي الشرر .

4- رداف : سحاب .

5- جوز : وسط .

6- مفأَم : العظيم .

7- سيجال : جمع سجل ملء الدلو

8- امرؤ القيس ، ديوانه ، ص 144 .

9- ديمة : مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق .

10- الوطف : استرخاء السحابة ودنوها من الأرض .

11- تحرى : أي تتحرى ، تعتمد وتثبت فيه .

12- الودّ : الودد .

13- أشجذت : أقلعت وسكنت .

14- تشتكر : تهطل .

هناك وصف آخر لعبيد الأبرص للسحاب الذي بدأ ينهمر بعد النوم ، ثم انصرف إلى ذكر البرق الذي يمضي كلمحةٍ من الصبح فيتدنى إلى الأرض حتى يكادُ أن يُقبَضَ عليه بالراح¹ :

إِنِّي أَرَقْتُ وَلَمْ تَأْرُقْ مَعِيَ صَاحٌ² لَمْسْتَكِفٌ³ بُعِيدٌ⁴ النَّوْمِ لَوَّاحٌ⁵
 يَا مَنْ لِبَرَقِ أَبِيْتِ اللَّيْلِ أَرْقَبُهُ فِي عَارِضٍ كَمُضِيءِ الصُّبْحِ⁶ لَمَّاحٍ
 دَانَ مَسْفٌ⁷ فَوْقَ الْأَرْضِ هَيْدِبُهُ⁸ يَكَادُ يُمْسِكُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ⁹

أما في ذكر الليل نذكر ذلك الوصف الفائق الروعة لامرئ القيس¹⁰ :

وَلَيْلٌ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِ
 فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلبِهِ وَأُرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

- 1- عبید الأبرص، ديوانه ، تحقيق أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، ط1 ، 1414هـ - 1994م ، ص73 .
- 2- صاح : صاحب .
- 3- مستكفّ سحاب مستدر كالکفة .
- 4- بعيد : تصغير بعد .
- 5- لواح : شديد الوميض .
- 6- كمضيء الصبح : كناية عن الشمس .
- 7- مسفّ : مار على وجه الأرض .
- 8- هيدبه : خيوطه .
- 9- الراح : الكفّ .
- 10- امرؤ القيس ، ديوانه ، ص 18 .

ألا أيها الليل الطويلُ ألا انجلِ بصُبحٍ وما الإصباحُ منكُ بأمتلِ

هذا وتضمن هذا النوع من الشعر في هاته الفترة العديد من الحيوانات التي كانت رفيق سفر الشاعر وشريكا في مقاومة المؤثرات والعوامل الطبيعية ، وللفرس والناقة نصيب واسع الذكر بكثير من الدقة لاتصالهما بواقع الجاهلي ، بالرغم من أنه ألم بوصف أنواع أخرى كالبقرة الوحشية والذئب والكلب والعقاب .

ولذكر امرئ القيس للفرس فاق الروعة في الوصف ، يبين فيه خروج هذا الفرس عن إطار الواقع ليصبح فرساً أسطورياً مُكتمل الصفات والهيئة والحركة¹ :

مِكرٌ² مِفرٌ³ مِقبلٌ مِديرٌ معاً كَجَلْمودٍ⁴ صِخرٍ حَطّه⁵ السيلُ من عل
كُميتٌ يزلُّ اللبدُ عن حالٍ متهٍ كما زلتِ الصفراءُ⁶ بالمتنزلِ⁷ .

أما الناقة فقد اختلف الشعراء خلال وصفهم لها إلى صورٍ وتشابيهٍ عديدة ، أهمها قدرتها على اجتياز المسافات الطويلة و احتمال السفر الشاق ومنهم من

¹ - امرؤ القيس ، ديوانه ، ص 19 .

² - مكرٌ : صيغة مبالغة من كرٌ أي شديد الكر .

³ - مفرٌ : شديد الفرار .

⁴ - الجلمود : الصخر الصلب .

⁵ - حطّه : ألقاه .

⁶ - الصفراء : الحجر الصلب .

⁷ - المتنزل : الذي يزل عن الشيء المالس .

اعتنى بكلّ التفاصيل والجزئيات بالاعتماد على دقّة الملاحظة والخيال ، بذكر الناقة التي حملته إلى ديار حبيبتة ، كهاته الأبيات لطفة بن العبد¹ :

وَأني لَأَمْضي هَمَّ عند احتضاره² بعوجاء³ مِرْقَالٍ⁴ تَرُوحُ و تَغْدي
 أَمونٌ⁵ كَألِوَحِ الإِرَانِ⁶ نَصَأْتُها⁷ على لآحبٍ⁸ كَأنه ظَهْرُ بَرَجَدِ
 جَمالِيَّةٍ⁹ وَجَناءٍ¹⁰ تَرْدِي¹¹ كَأنها سِفْنَجَةٌ¹² تَبْرِي¹³ لَأزْعَرُ¹⁴ أُرِيدُ¹⁵

- 1- طرفة بن العبد ، ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، ص 22 .
- 2- الاحتضار: الحضور .
- 3- العوجاء :الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها .
- 4- المرقال: بين السير والعدو .
- 5- أمون : التي يؤمن عثارها .
- 6- الإران : التابوت العظيم .
- 7- نصأتها: زجرتها .
- 8- اللآحب: الطريق الواضح .
- 9- جمالية : الناقة التي تشبه الجمل في وثاقة الحلق .
- 10- الوجناء: المكنزة اللحم .
- 11- تردي: الرديان,عدو الحمار .
- 12- السفنجة: النعامة .
- 13- تبرى: تعرض .
- 14- الأزعر: القليل الشعر .
- 15- الأريد: الذي لونه لون الرماد .

لم يكتف الشاعر الجاهلي عند هذا الحد بل راح يتفنن في وصف حيوانات أخرى ارتبطت ارتباطاً وثيقاً به . فبين قوة البقرة الوحشية و سرعتها وضراوتها في الدفاع عن نفسها ، بل وتصدى إلى واقعها النفسي الداخلي بتصوير بؤسها وحنينها إلى ولدها الضائع ، كما جاء في شعر لبيد¹ :

أَفَتِلْكَ أُمٌّ وَحْشِيَّةٌ² مَسْبُوعَةٌ³ خُذِلْتُ وَهَادِيَةٌ⁴ الصَّوَارِ⁵ قِوَامُهَا⁶
 خَنَسَاءٌ⁷ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ⁸ فَلَمْ تَرَمْ⁹ عَرَضَ الشَّقَائِقِ¹⁰ طَوْفُهَا¹¹ وَبُغَامُهَا
 لِمُعَفَّرٍ فَهَدٍ تَتَازَعُ شَيْلُوهُ غَبَسُ كَوَاسِبٍ لَا يَمْنُ طَعَامُهَا

وفي ذكر العقاب يقول عبيد بن الأبرص¹² :

1- إيليا الحاوي ، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط2 ، 1980، ص 33 .

2- الوحشية : يقصد بها البقرة .

3- مسبوعة : أصابها السبع لافتراس ولدها .

4- هادية : متقدمة .

5- الصوار : قطيع من البقر الوحشي .

6- القوام : ما يقوم عليه الأمر .

7- الخنساء : صفة من الخنس وهو تأخر أوانجة الأنف .

8- الفرير : ابن البقرة الوحشية ، جمعه الفرار .

9- فلم ترم : لم تبرح .

10- عرض الشقائق : ناحية الشقائق وهي الأرض الغليظة مفردها شقيقة .

11- الطوف : الطواف ، الجولان .

12- عبيد بن الأبرص ، المرجع السابق ، ص 58 .

كأنها لقوة¹ طلوب² تيبس³ وكرها القلوب⁴

باتت على إرم⁵ عذوباً⁶ كأنها شيخة رقوب⁷

فأصبحت في غداة قرّ يسقط عن ريشها الضريب

فرسم عبيد بن الأبرص صورة العقاب الحسية التي جعلت تنظر إلى الحياة بعين واجفة لأنها فقدت وليدها ، تقضي الليل ساهدة ليطلع عليها صباح بارد جعل ريشها جليداً يتساقط ، هذه بعض النماذج للحيوانات التي ذكرت في أشعار الجاهليين ، ناهيك عن الأسد و الحية و غيرهما .

المرأة :

إذا نظرنا في شعر الطبيعة عند شعراء الجاهلية وجدنا المرأة متغلغلة في معظم ثنايا هذا الشعر ، فلم يلتزم الشعراء الجاهليون في حديثهم عن المرأة بنظام القصيدة البسيطة المستقلة ، بل جاء متفاوتاً في مطالع القصائد المركبة ومقدماتها ، وكان شعرهم في هذا الغرض عاما وغير مخصص لامرأة بعينها ،

1- اللقوة : العقاب سميت بذلك لأنها سريعة التلقي لما يطلب .

2- طلوب : كثيرة الطلب .

3- تيبس : تجف من الخوف والفرع .

4- القلوب : يعني قلوب الطير في أوكارها عند سماع حفيف جناحيها .

5- الأرم : العلم من الأرض .

6- العذوب : التي لا تأكل ولا تشرب .

7- رقوب : التي لم يبق لها ولد .

واختلف في البنية و السياق ، إذ مال البعض إلى التعقّف و مال البعض الآخر إلى الإباحية والتهتك¹ .

وما يمكن الإشارة إليه في هذا الجانب ارتباط شعر التغزل ارتباطاً وثيقاً بالعناصر الطبيعية ، فشبهوا المرأة بالغزال والظبي والشمس والأسيل ، وغيرها مما أضفت على شعرهم خصائص جمالية موحية معبرة عن الذوق الجمالي الخاص بهذه البيئة ، ونذكر في هذا الجانب وصف امرؤ القيس لحبيته فاطمة² :

مُهْفَهْفَةٌ³ ، بِيضَاءُ غَيْرِ مَفَاضَةٍ⁴ تَرَائِبُهَا⁵ مَصْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجَلِ⁶
كَبِكرٌ⁷ المَقَانَاةُ⁸ البِيَاضِ بِصُفْرَةٍ غَدَاها نَمِيرٌ⁹ المَاءِ غَيْرِ مُخَلَّلِ¹⁰

1- فيصل شكري ، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، دار العلم ، بيروت ، ط5 ، ص 172 .

2- امرؤ القيس ، ديوانه ، المصدر السابق ، ص 67 .

3- المهفهفة : الخفية اللحم .

4- مفاضة : مسترخية البطن .

5- الترائب : جمع تريبة ، موضع القلادة من الصدر .

6- السججل : المرأة .

7- البكر : من كل شيء لم يشبه مثله .

8- المقاناة : المخالطة .

9- النمير : الماء المفيد .

10- مخلّل : الماء الصافي غير المكدر .

تَصَدُّ¹ وتُبْدِي² عَنِ اسِيْلٍ³ وَتَتَّقِي⁴ بِنَاظِرَةٍ⁴ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَطْفَلٍ⁵

1- تصدّ : تعرض .

2- تبدي : تظهر .

3- أسيل : نعت للخد المستطيل اللين .

4- الناظرة : أرابدها ، عينيها .

5- وحش وجرة مطفل : عين الظبية المطفل أي لها أطفال .

ب- العصر الأموي :

شهدَ العصر الأموي حضارةً راقيةً اختلفت عن حضارة البيئة الجاهلية ،
 فنعم بثورة اجتماعية ودينية وسياسية جديدة ، فاتسعت آفاقه و مراميه و تحسنت
 أساليبه ورقّت معانيه وألفاظه تبعاً لحالة العصر الجديد ومظاهره السياسية والدينية
 والثقافية والقبلية ، ورغم ذلك لم يتأثر شعر الطبيعة الأموي بالتغيرات الطارئة ، بل
 ظلّ مرتبطاً بالمواضيع والصّور القديمة بعيداً عن الرياض و الجنائن ، يعيش في
 البيئة التقليدية فتحدّث عن الطّل والصحراء والحيوانات البرية شأنه شأن الشعر
 الجاهلي ، فنذكر على سبيل المثال وقوف جرير على الطلل¹ :

ماذا يُهيجُكَ مِنْ دَارٍ وَمَنْزِلَةٍ أَوْ مَا بُكَاءُكَ إِذْ جِيرَانُكَ ابْتَكُرُوا
 نادى المُنَادِي بِيَيْنِ الْحَيِّ فابْتَكُرُوا مَنَا بَكُورًا فَمَا ارْتَابُوا وَمَا انْتظَرُوا
 حَازَرْتُ بَيْنَهُمْ بِالْأَمْسِ إِذْ بَكَرُوا مَنَا وَمَا يَنْفَعُ الْإِشْفَاقُ وَالْحَذَرُ

وكما رأينا في العصر الجاهلي ينتقل الشاعر عادةً بعد وقوفه على الطلل
 إلى تسجيل صورته وهو يخوض الصراع مع الحياة ، فمضى الشاعر الأموي على
 سنة أسلافه يستلهم الصحراء ، فيتحدّث عن رحلته فيها على ناقته فيسهب في
 وصفها ، لما لها من جمال في نفسه ، ويسهب في وصف الفرس أيضا وهو

1- جرير ، ديوانه ، شرح أسعد أحمد علي ، دار صادر ، بيروت ، ط2 ،

1425 هـ - 2005م ، ص 197 .

يحدّثنا عن كل ما تقع عيناه في الصحراء فيها و قساوتها¹ ، وهذا ما عرّف بشعر الرحلة الذي يضمُّ ثلاثة أمور الناقة ، الصحراء ، والحيوان الوحشي² . ومن بين الشعراء الذين انطوى حديثهم عن الرحلة ومشاهد الحيوان ابن الأَعشى ، و النابغة الذبياني والأخطل ، ذي الرمة³...

هذا الأخير ممّن وظّفوا الرحلة في قصائدهم المُركّبة ، عشق الصحراء وأيامها و لياليها و رمالها ونباتها وحيوانها ، التي جعلها شريكا له مصورا أحواله النفسية واستأنس بها ، عكس جميع الشعراء الذين اعتبروها وحشا و عدوا ، فوجد في الصحراء الطمأنينة والسكون والعظمة⁴ .

ولو أتينا لتقصّي شعر الطبيعة في هذا العصر لوجدنا معظمه في شعر ذي الرمة لأنه يحفل بالكثير من هذه المظاهر ، حتى أنه عدّ شاعرا للطبيعة بكل

¹ – catalina-1411.blogspot.com/2013/10/blog-post_1950.htm

² - رومية وهب ، قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1981 ، ص 125 .

³ - نور الدين السد ، الشعرية العربية ، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص ص 270 ، 274 .

⁴ - خليف يوسف ، ذو الرمة : شاعر الحب والصحراء ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، ص 07 .

جدارة متحركة كانت أو حية ، فاحتلت مساحة كبيرة في قصائده ، فكان وصفه لها بمثابة لوحات فنية رائعة زاد من جمالها بثُّ الحركة و الحياة فيها¹ :

أَخَا تَتَأَنَّفُ أُغْفَى عِنْدَ سَاهِمَةٍ
تَشْكُو الْخِشَاشَ وَمَجْرَى النَّسْعَتَيْنِ كَمَا
كَأَنَّهَا جَمَلٌ وَهَمٌّ وَمَا بَقِيَتْ
لَا تُشْتَكَى سَقَطَةٌ مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ
كَأَنَّ رَاكِبَهَا يَهْوِي بِمَنْخَرِقِ
تُخَدِي بِمَنْخَرِقِ السِّرْيَالِ مَنْصَلَتِ
وَالْعَيْسُ مِنْ عَاسِجٍ أَوْ وَاسِجٍ خَبَبًا
تُصْنَعِي إِذَا شَدَّهَا بِالْكُورِ جَانِحَةً
بِأَخْلَقِ الدَّفِّ مِنْ تَصْدِيرِهَا جُلْبُ
أَنْ الْمَرِيضَ إِلَى عُوَادِهِ الْوَصْبُ
إِلَّا النَّحِيْزَةَ وَالْأَلْوَا حَ وَالْعَصَبُ
بِهَا الْمَفَاوِزُ حَتَّى ظَهَرَهَا حَدْبُ
مِنْ الْجَنُوبِ إِذَا مَا رَكِبَهَا نَصَبُوا

1- محمود خالد البنا ، الطبيعة المتحركة في شعر ذي الرمة ،

www.wata.cc/forums/showthread.php?88807

مِثْلِ الحُسَامِ إِذَا أَصْحَابُهُ شَحِبُوا
يُنْحَرُونَ مِنْ جَانِبَيْهَا وَهِيَ تَتَسَلَّبُ
حَتَّى إِذَا مَا اسْتَوَى فِي غَرَزِهَا تَثَبُّ

إنَّ الصورة هنا تتبني على أركان صورية مختزلة من البيئة ذاتها ، فتتوارى في أركانها عناصر متعددة و متفاوتة المكانية ، فالشاعر يصف ناقته و يسهب في وصفها ، ولا يتوقف عند ذكرها المجرد ، بل يعتمد في تكثيف صورته وتكثيرها على الاستعانة بعناصر طبيعية أخرى ، فالبنية الشعرية تقوم على تبيان أن الناقة سريعة وقوية ، وهذا حال الشعراء منذ القدم ، إذ إنهم يصورون دائما الناقة بصور مؤثرة، تكون فيها الناقة كاملة في سرعتها وقوتها و اكتمالها ، وهذا ما يبيغيه مسافر الصحراء دائما من ناقته .

لقد أولى ذو الرمة الناقة التي تناقلت في شعره عناية خاصة ، ووصفها وصفا بارعا حتى إنها لتكاد تكون بمنزلة محبوبته ، فقد ذكر " مي " (محبوبته) في نحو من خمس وخمسين قصيدة ، على حين ذكر ناقته في نحو واحد وخمسين قصيدة ضمنها معظم أوصاف الناقة الخلقية و الخلقية ، وحبَّ الكبير لها وعطفه عليها .

إنَّ الناقة التي يتحدث عنها الشاعر في الأبيات السابقة ناقة تعاني ما يعانیه الشاعر ، وتمضي به في نفس ما يمضي هو به ، فهي صورة طبق الأصل عما يعانیه الشاعر ، فهو يسمُّها في رحلة كان يمضي بها رحلة طويلة

ملية بالضنك والتعب والوصب ، أي الوجع . رغم كل ذلك تبقى معه صامدة لا تشكو ولا تتذمر مما يمرّ بها وبراكبها ، أي الشاعر من سوء الحال والطريق¹ .

وقد ذكرت بعض الحيوانات الأخرى المتفرقة في سياق الطبيعة المتحركة ، كالظبية والحمار الوحشي ، الحرياء ، الذئب ، الكلب ، فأظهر على سبيل المثال تصرفات الحيوانات الصحراوية وكيف تعيش ، كرسم ذو الرمة لصورة الحرياء وهي تتغير ما بين الأبيض والأخضر ، فخلق لنا صورة الطبيعة المتحركة المستمرة² :

إِذَا جَعَلَ الْحَرِيَاءُ بَيِضٌ لَوْنُهُ
وَيَشْبَحُ بِالْكَفِينِ شَبْحًا كَأَنَّهُ
وَيَخْضَرُّ مِنْ لَفْحِ الْهَجِيرِ غَبَاغِبُهُ
أَخُو فَجْرَةٍ عَالِي بِهِ الْجِدْعَ صَالِبُهُ

جمع ذو الرمة في حديث الرحلة بين وصف الصحراء وهوامها وحشراتنا ووحوشها ، ومائها الأسن المجمع من الغدير أو المخزن في آبار ضربت عليها العناكب بنسجها ...

وإن تمعنا في الموضوعات الطبيعية التي ألمّ الشاعر الأموي بوصفها ، نجدها دائماً ذات الطابع القديم والنفسية البدائية بعيد كل البعد عن الحضارة الجديدة .

¹ - محمود خالد البنا ، المرجع السابق .

² - نفسه .

الناقة التي وصفها الأخطل فقال¹ :

كأنها قاربٌ أقرى حلائلهُ ذاتِ السَّلاسلِ حتَّى أيبسَ العودُ
ثمَّ تررعَ أبلِيَا ، وقد حميت منه الدَّكادِكُ و الأكمُ القَراديدُ
فَظَلَّ مُرتَبًا و الأخذُ قد حميت و ظنَّ أن سبيلَ الأخذِ مَثمودُ

ورغم أن معظم الشعراء في هذا العصر قد عاشوا في بيئات متحضرة ، إلا أن الصحراء ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند فطاحلهم كالفرزدق والأخطل وجريير الذين آثروا البيئة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة .

وهذا لا يعني أنهم لم يفسحوا للبيئات الجديدة في أشعارهم ، ولم يتأملوا طبيعة الأقاليم الجديدة وما بها من جبال وتلوج وأنهار ، بل كانوا يسجلونها كل حين ، لكن الطبيعة الصحراوية كانت تستولي على ملكاتهم .

ج- العصر العباسي :

شهدنا سابقا أن البيئة الجديدة تقتضي مواضيع جديدة في التأليف ، وهذا ما خلصنا إليه أثناء تطلعاتنا لشعر هذا العصر ، ذلك لتأثير الحضارة الجديدة في مواضيع شعر الطبيعة ، ومع هذا رأينا في بعض نواحيه يجري مواضيع الطبيعة القديمة ، كالإبل والناقة والذئب والطيور والبقر الوحشي ، فالعديد من الشعراء العباسيون لم يسلموا من هذه الآفة ، أمثال مسلم بن الوليد وأبو تمام والبحثري

¹ - إيليا الحاوي ، المرجع السابق ، ص 108 .

وغيرهم ، وأبو نواس نفسه زعيم التجديد في الشعر العباسي قد تعرض لهذه المواضيع ، وها هو يصف ناقته بقوله¹ :

وَلَقَدْ تَجُوبُ بِنَا الْفَلَاةِ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَ قَالَتْ الْعَفْرُ
شَدْنِيَّةٌ رَعَتِ الْحَمْرَ فَأَتَتْ مِلءَ الْحَزَامِ كَأَنَّهُ قَصْرُ

أما الموضوعات الجديدة التي تصدى لها الشاعر العباسي ، فكان للواقع الجديد تأثير عليها وكان أهمها في وصف الطبيعة : الرياض ، الربيع ، والقصور...²

فنذكر الوصف الرائع للربيع من قبل أبي تمام ، فأظهر أن الربيع هو بمثابة المقدمة الحميدة للصيف لأنه هو الذي روى الأرض وزرعها ولولاه لغشي الهشيم حدائق الصيف ، ثم ذهب لمناداة الربيع ، ويذكر بأن حسنه قد أدام بهجة الأيام وجمال الرياض³ :

1- أبو نواس ، ديوانه ، تحقيق وشرح سليم خليل قهوجي ، دار الجيل ، بيروت ، 1425هـ - 2003م ، ص 380 .

2- إيليا الحاوي ، مرجع سابق ، ص 140 .

3- أبو تمام ، ديوانه ، شرح إيليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، 1981 ، ص 285 .

رَقَّتْ حَوَاشِي¹ الدَّهْرِ فَهِيَ تَمْرِمُ² وَغَدَى الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ³
 نَزَلَتْ مُقَدِّمَةَ الْمَصِيفِ حَمِيدَةً وَيَتَدُّ الشِّتَاءَ جَدِيدَةً لَا تَكْفُرُ³
 لَوْلَا الَّذِي غَرَسَ الشِّتَاءَ بِكَفِّهِ قَاسَى الْمَصِيفُ هَشَائِمًا⁴ لَا تُثْمِرُ⁴
 أَرْبَعِنَا فِي تِسْعِ عَشْرَةَ حُجَّةً حَقًّا لِهَنْلٍ لِلرَّبِيعِ الْأَزْهَرُ⁵
 مَا كَانَتْ الْأَيَّامُ تَسْلُبُ بِهِجَةً لَوْ أَنَّ حُسْنَ الرُّوضِ كَانَ يُعْمَرُ⁵

فإعجاب الشعراء العباسيين بالطبيعة دفعهم إلى رسم أجمل الصور الملونة بالألوان الزاهية إذ رأى ابن الرومي الدنيا في الربيع ، أصبحت تروق للناظر إليها ، ففي رؤية ألوان الورد الطبيعية وتنوع أشكاله جلاء للبصر كما في قوله⁶ :

أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا تَرُوقُ مِنْ نَظَرٍ بِمَنْظَرٍ فِيهِ جَلَاءٌ لِلْبَصْرِ

ومن أهم المواضيع الجديدة التي تعنى بها الشعراء في هذا العصر ذكركم للقصور ، كوصف البحري لقصر المتوكل الشاهق الذي لم ير مثله من قبل من

1- حواشي : جمع حاشية ، هي طرف كل شيء وتعنى هنا أن الدهر صار رغدا .

2- تَمْرِمُ : تَهْتَرُّ ، تَتَمَائِلُ .

3- تَكْفُرُ : تُتَكَّرُ وَ تَجُودُ .

4- هَشَائِمُ : جَمْعُ هَشِيمَةٍ ، الْأَرْضُ الَّتِي يَبْيَسُ شَجَرُهَا .

5- يَعْمَرُ : يَعِيشُ عَمْرًا طَوِيلًا .

6- ابن الرومي ، ديوانه ، تحقيق د.حسين نصار ، مطبعة دار الكتب والوثائق ، القاهرة ،

ج3 ، ط3 ، 2003 ، ص 994 .

حيث ضخامته وعلوه واخضراره وضوئه ، فتعجب من رؤية الاخضرار دون مطر والضوء دون قمر¹ :

في رأس مشرفة ، حَاصَاها لُولُوْ
وتُرَابُهَا مِسْكَ ، يُشَابُ بِعَنْبَرِ
مُخْضِرَّةٍ وَالغَيْثُ لَيْسَ بِسَاكِبِ
ومُضِيئَةٌ وَاللَّيْلُ لَيْسَ بِمُقَمِّرِ
فَرَفَعْتَ بُنْيَانًا كَانَ مَنَارُهُ
أَعْلَامَ رِضْوَى أَوْ شَوْهَقِ صَيْبِرِ

وفي إطار مدحه للمدن والحواضر ، ذكر البحترى بعض المدن كعرضه لوصف دمشق أثناء مدحه للبحترى² :

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ بَدَّتْ مَحَاسِنُهَا
وقد وفي لأَمْطَرِيهَا بِمَا وَعَدَا
إِذَا أَرَدْتَ مَلَأْتَ الْعَيْنَ مِنْ بَلَدٍ
مُسْتَحْسَنٍ وَزَمَانَ يُشْبِهُ الْبَلَدَا
يَمْشِي السَّحَابُ عَلَى أَجْبَالِهَا فِرْقًا
وَيُصْبِحُ النَّبْتُ فِي صَحْرَائِهَا بَدَا
فَلَسْتَ تُبْصِرُ إِلَّا وَالْحَفَا خَضُلَا
أَوْ يَانِعَا خَضِرَا أَوْ طَائِرَا غَرْدَا
كَأَنَّمَا الْقَيْظُ وَلِيَ بَعْدَ جِيئْتِهِ
أَوْ الرَّبِيعُ دَنَا مِنْ بَعْدَمَا بَعْدَا

رأينا من خلال ما سبق كيف أن الشعراء العباسيين قد حاكوا جمال الطبيعة بجمال قصائدهم ، ما لتمييز الطبيعة من حيث الألوان والتنوع ، وأنوار الأزهار

1- البحترى ، ديوانه ، تحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، مصر ، ص 112 .

2- نفسه ، ص 121 .

المتفتحة ، فرسموا لنا صوراً متحركة نكاد نراها رغم أنها مرسومة بالكلمات ما يؤكد فعلاً قدرتهم على مجازاة جمال الطبيعة من خلال أشعارهم .

د- العصر العربي الحديث :

أما إذا تحدّثنا عن شعر الطبيعة في العصر الجديد فلا نجد موضوعاً جديداً ، وهذا ما أشرنا إليه آنفاً ، لكن الأمر الذي يجب الإشارة إليه هو أنّ هذا الغرض عند المحدثين قد اختلف عن العصور السابقة ، ذلك أنّ الطبيعة في الشعر القديم لم تتخذ موضوعاً خاصاً وإنما كان الشعر يعرض لها في سياق غرض آخر كالغزل ، المدح أو الفخر . أما الشعر الحديث فلم يقف عند حدّ المشاهد التي تبهج النفس بل اتجه اتجاهاً عاماً إلى ما للطبيعة من وجود معنوي يلذ الخيال الجولان فيه ويروقُ للفكر أن يسمو إليه¹ .

وأهم ما ميّز الطبيعة في الأدب الحديث أنّها حيوية عالقة يحسّ بضربات فؤادها ويسمع رغم إنشادها ويلذ له التحدث إلى أنهارها وغاباتها وجبالها ووديانها ، فأحيا الشاعر هذه العناصر وجعلها ذات شعورٍ وإدراكٍ ونظر ، كما أنه كان أيضاً شغوفاً بالطبيعة الحية من حيوان و نبات فجعلها موضعاً لتخيّلاته وتأمّلاته ووسيلةً للتحدّث عما يتجلى له في حياته² .

1- أحمد حسن الزيات ، اتجاه الأدب الحديث ، مجلة الرسالة ، العدد 994 ، تاريخ 21 /

. 1952 / 07

2- نفسه .

هذا ولا يمكننا الحديث عن شعر الطبيعة في العصر الحديث دون أن نشير إلى شعراء مدرسة " أبولو " ، هذه المدرسة التي فرضت نفسها على الساحة الأدبية لكثرة عدد شعرائها وتنوع دواوينهم ، وإنما طرقتنا هذه المدرسة لاعتنائها بأبواب الشعر المختلفة أهمها شعر الطبيعة .

فهي أول من سمى شعر الطبيعة وخصّص له مكانا بعينه بين فنون الشعر العربي¹ .

عمل "أبو شادي" مؤسس المدرسة على نشر شعر الطبيعة وتعميقه وحفز شعراء الجيل الجديد على الاهتمام به ؛ فهام هؤلاء الشعراء بالطبيعة بمختلف أقسامها من زهر وروض وشجر وبحر ونهر وبحيرات ، وما يلزم هذه المظاهر الطبيعية من صخر ورمل وأشعة وزوارق وغير ذلك ، وشخصوا بأبصارهم إلى السماء فسبحوا في الكون الفسيح وما فيه من نجوم وكواكب وأجرام متناثرة ، وقد بلغت عناية هؤلاء الشعراء بمظاهر الطبيعة إلى درجة أن جعلوا عناصرها عناوين لدواوينهم وقصائدهم² ، نذكر على سبيل المثال وليس الحصر ديوان أغاني الكوخ لمحمود حسن إسماعيل ، ديوان أحلام النخيل لعبد العزيز عتيق ، ديوان وراء الغمام لإبراهيم ناجي ، أغاني الحياة لأبي القاسم الشابي ، فوق العباب لأحمد زكي أبو شادي ...

1- أحمد عوين ، الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط1 ، 2001 ، ص 18 .

2- نفسه ، ص ، ص 40 ، 46 .

كان اندماج شعراء "أبولو" بالطبيعة اندماجاً عاطفياً يصل إلى مرتبة العشق والهيام ، فها هو أبو شادي يمتزج بالطبيعة حتى تمنى أن يكون كفته من أغصان الياسمين وتنتثر أزهاره لتكون نجوماً فوق قبره ، وأراد أن يرثيه البلبل فوق قبره¹ :

كفُّونِي بأغصانِ الياسمين	إنَّ في طيبه عزاءَ الدفينِ
وأنثروا زهره نجوماً بقبري	علَّ من نوره شفَاءَ العيون
وادفنوا جانبي رسائلِ حبِّ	كم شجتي بأوقع التلحين
ودعوا البلبل المغني بشعري	يتولَّى رثاءَ قلبي الحزينِ

كما نجد " إبراهيم ناجي " يمتزج بإحدى صور الطبيعة المتحركة إذ يرى البحر صورة عاكسة لنفسه حين تثور ، وثورة تلك النفس شبه ثورة أمواج البحر فيتكشَّف عن عتوِّ تلك في العباب وعنْف في الصخور ، والغضب والضجر عند الشاعر يشبهان البحر وراكبه ، فبدى أنه والبحر شيء واحد² :

صورة للبحرِ أو صورة نفسٍ	عندما النفس من اليأسِ تثورُ
قد علا الموجُ وفد عزَّ التأسى	لم يعد إلا عباب وصخورُ
زلزل البحرُ على راكبه	مثلما زلزل قلب ضجرُ
سفر صار على طالبيه	ركب ضنك ، والمنايا سفرُ

¹- أبو شادي أحمد زكي ، ديوان الشعلة " متى مت " ، ط1 ، 1933 ، ص 135 .

²- إبراهيم ناجي ، ديوان ليالي القاهرة ، قصيدة " عاصفة " ، دار العودة ، بيروت ، 1973 ، ص 317 .

وإذا نظرنا إلى الشعراء المُحدثين عامةً وشعراء مدرسة أبولو خاصةً وجدنا المرأة متغلغلة في معظم ثنايا هذا الشعر ، فهي أيضاً قد عُنيت بإفرادها بقصائد خاصة بها ، وراحوا يهيمون شغفاً بها و مزجوها بعناصر الطبيعة ، شأنهم شأن شعراء المهجر ، وهذا ما فعله الشاعر عثمان حلمي حينما مزج بين المرأة التي يعشقها والطبيعة ، واصفاً لنا مشاهد سعيدة ، فالوردُ يحتضن الحبيبين و هما يجنيان عذبه¹ :

فَتَحَ الْوَرْدُ لَنَا	فَهَذَا الْحُبُّ هُنَا
وَشَذَى الْوَرْدُ مَنَى	وَشَذَى الْحُبُّ مَنَى
وَجَنَيْنَا وَرْدَةً	وَ سَوَانَا مَا جَنَى
وَنَعْمَنَا زَمَنَا	فِي سُورٍ وَ هَنَا
ضَاعَ مَنْ ضَيَّعَ فِي	غَيْرِ حُبِّ زَمَنَا
إِنَّمَا الْأَعْمَارُ لِلذِّ	اتِ كَانَتْ ثَمَنَا
فَاجِنِ زَهَرَ الْحُبِّ لَا	تَجِنِ شَوْكًا وَعَنَا

ويمكن القول عموماً إنَّ شعراء العصر الحديث قد جعلوا من الطبيعة الوعاء الذي يصبون فيه مشاعرهم وأفكارهم مزجوها بأحاسيسهم وعواطفهم ، وفرّوا إليها هارين عندما رفضهم العالم المادي فوجدوها الأم الحانية تغذيهم من جمالها ، فعاشوا فيها بكلّ مشاعرهم وأحاسيسهم وأفكارهم .

¹ - عثمان حلمي ، ديوان نسيم السحر ، ص 81 .

هـ - العصر الأندلسي :

انبثق فن شعري عن الحضارة الأندلسية انفراداً بمجموعة من الخصائص ، تأثر بما ساد في المجتمع الأندلسي من تعايش وسماحة ، اتسم أهلها بالتفرد والتميز والميل إلى فنون العلوم ، قال عنهم المقري : « حال أهل الأندلس في فنون العلوم ، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالية على الناس ، لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يُشار إليه ويُحال عليه ، وبينه قدره وذكره عند الناس¹ ، ويقال أن هذه الصفة إذا توفرت في شعب من الشعوب بلغ أسما المراتب وأعلى درجات التقدم والازدهار² .

ولقد حظي الشعر عند الأندلسيين بمكانة عظيمة ، وأكثر ما ميز هذا التطور هو ظهور الموشحات التي شاعت وسط أهالي الأندلس ، تجاوب هذا الفن مع بيئته التي شاع فيها الغزل والشراب والغناء ، عرفت على أنها هي الفن الأندلسي الأصيل الذي استحدثه الأندلسيون وأغربوا به على أهل المشرق ، وظهروا فيه كالشمس الطالعة والضياء المشرق ، وهذا ما أدلى به " ابن دحية"³ .

1- أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج1 ، 1968 ، ص 220 .

2- مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 1979 ، ص 71 .

3- فوزي عيسى ، الأدب الأندلسي ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، 2015 ، ص 245 .

فنظم شعراء الأندلس الموشح على نظام المقطوعات الشعرية بإحكام وابتكروا أوزاناً جديدة وأدخلوا ألفاظاً عامية وأعجمية عليها ، ثم سرعان ما استحدثوا لوناً آخر في أواخر عصر الخلافة هو الزجل الذي نظموه على منوال الموشحات ، بلغة مجردة من الإعراب¹ ، فالموشح في رأي ابن سناء الملك ينقسم إلى قسمين الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب والثاني ما لا وزن له فيها² .

وابن بسام تحدّث عن صنعة التوشيح قائلاً : « هي أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب »³ .

وإذن فالموشح ذو نشأة أندلسية ، وهو نوع من أنواع الشعر العربي أجمع مؤرخو الأدب على أنه فن من مخترعات الأندلسيين ، وأشادوا ببراعتهم في هذا اللون⁴ . وأهم ما ميّزه أنه لجأ إلى التنويع في الوزن والترتيب الجديد للتفاعيل وتهذيبها والمخالفة بين القوافي في البحر الواحد أو البيت الواحد ، نتج عنه أوزان جديدة ذات إيقاع عربي جديد .

1- محمد عباسة ، الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور ، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع ، مستغانم ، ط1 ، 1433هـ - 2012م ، ص 32 .
 2- ابن سناء الملك ، عمل الموشحات ، تحقيق جودت الركابي ، دار الطراز ، دمشق ، ط2 ، 1977 ، ص 44 .
 3- ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1979 ، ص 469 .
 4- ابن سناء الملك ، المرجع السابق ، ص 29 .

وظهر في هذه البلاد فناً آخر هو الزجل ، ضرب من ضروب النظم يختلف عن الموشح من حيث الإعراب ولا يختلف عنه من حيث القافية ، كتب بلغة ليست عامية بحتة بل هي مهذبة وإن كانت غير معربة¹ .

ويعرف الزجل في اللغة بالصون ، ويسمى الحمام زاجلاً لصوته الرخيم ، قال ابن منظور في لسان العرب : « إن الزجل بالتحريك اللعب والجلبة وخص به التطريب »² .

إن فالزجل هو الصوت على اختلاف مصادر الصوت ، يختص بنوع من الغناء .

ومن بين الزجالين الأندلسيين نذكر أخطل بن نمارة و ابن قزمان وابن راشد³ ، ومن ما قاله ابن قزمان في الزجل⁴ :

لَسَّ نَفِيقٍ مِنْ ذَا الصَّدُودِ أَبَدَا
أَوْ نَعَنَّقُ فِي ذُرَاعِي الْحَبِيبِ
بِي نَكْدِ بُلَيْتِ أَنَا وَيِ عُدَابُ
الْوَصَالِ يَأْقِدُ نُسَيَّ بِالْعِتَابِ

¹ - محمد عباسة ، المرجع السابق ، ص 106 .

² - جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب ، مادة " زجل " ، دار صادر ، بيروت ، 1414 هـ .

³ - محمد عباسة ، المرجع السابق ، ص 118 .

⁴ - ابن قزمان ، الديوان زجل ، ص 748 .

قَدْ نَحَلَ جِسْمِي وَرَقَّ وَذَابُ
 وَرَجَعْتَ أَرْقَ مِنْ خَيْطِ رَدَا
 سُبْحَانَ اللَّهِ أَشْ هَذَا الْجَمَالُ
 يَسْحَرُ الْعَالَمَ بِعَيْنَيْنِ غَزَالُ
 وَحَوَاجِبُ عُرْفَتِ بَاعْتِدَالُ
 فَتَرَى وَرْدًا عَجِيبَ قَدْ بَدَا

تعددت لأغراض وموضوعات الموشحات والأزجال من غزل وخمريات ومدح ورتاء خصوصاً للمدن الأندلسية وأخرى دينية صوفية ...

ولمّا وهب الله بلاد الأندلس طبيعة ساحرة خلابة ، أحاطت بها البحار وكثرت الأنهار وانتشرت الرياض والمنتزهات وفتنت هذه الطبيعة الجميلة شعراء الأندلس وألهمتهم صوراً حية كأنها ملموسة ، فكان بذلك شعر الطبيعة الأندلسي ذكراً فيه الناطق والجامد وما في السماء والأرض ، بل وصل الأمر إلى درجة تصويرها بجنة الخلد ، عبّر عن ذلك ابن خفاجة بقوله¹ :

يَا أَهْلَ أَنْدَلَسِ لِلَّهِ دَرَكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
 مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَلَوْ تَخَيَّرْتِ هَذِي كُنْتَ أَخْتَارُ
 لَا تَحْسِبُو فِي غَدٍ أَنْ تَدْخُلُوا اسْتَقْرًا فَلَيْسَ تَدْخُلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ نَارُ

1- ابن خفاجة ، ديوانه ، تحقيق السيد مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ،

وفي ذكر الطبيعة موشحة أبي الحسن بن مهلهل الجياني التي يصف فيها
كيف تتوشح جيان بنهرها وأشجارها وروضها ونسيمها وطيرها وصباحها حتى بكت
السماء من فوح زهرها المعطار¹ :

النَّهْرُ سَلَّ حَسَامًا عَلَى قُدُودِ الْغُصُونِ

وَالنَّسِيمُ مَجَالٌ

وَالرَّوْضُ فِيهِ اخْتِيَالٌ

مُدَّتْ عَلَيْهِ ظِلَالٌ

وَالزَّهْرُ شَقَّ كِمَامًا وَجَدًّا بَتْلَكَ اللَّحُونِ

أَمَا تَرَى الطَّيْرَ صَاحَا

وَالصُّبْحَ فِي الْأُفُقِ لَاحَا

وَالزَّهْرُ فِي الرَّوْضِ فَاحَا

وَالْبَرْقُ سَاقَ الْغَمَامَا تَبْكِي بِدَمْعِ هَتُونِ

بنيت هذه الموشحة على وصف الطبيعة وحدها تبدو معانيها بسيطة لكن
الوشاح عمد إلى إثارة عاطفة الحنين بعبارات سهلة ، يصور فيها لنا عناصر
خالدة يُعجب بها السامع دون أن يراها .

1- ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ،
ط2 ، 1964 ، ص 424 .

إنَّ أهم ما ميّز شعر الطبيعة الأندلسي أنّ الشاعر عادة ما يمزجها بأغراض أخرى على رأسها الخمر ، فالحنين و الغزل ، فتتدمج هذه الأغراض كلها في القصيدة الواحدة ونذكر من مثل هذا النظم مزج الخمر بالطبيعة في قول ابن شرف¹ :

أدر أكؤس الخمر
عنبرية النشر
إن الروض ذو بشر
وقد درع النهرا
وسلت على الأفق
يد الغرب والشرق
سيوفاً من البرق
وقد أضحك الثغرا
هبوب النسيم
بكاء الغيوم

شبه هذا الوشاح هنا النهر وقد هبّ عليها النسيم بالدّرّع صورة مألوفة ، وكذلك تشبيهه البرق بالسيوف .

¹ - فوزي عيسى ، المرجع السابق ، ص 266 .

وهكذا كان يتخذ الوشاحُ الخمر سبيلاً إلى وصف الطبيعة فتذكر بمفاتن
الرياض وفصل الربيع الزاهي بألوانه .

ومن شعر الطبيعة نذكر موشحة لأبي الحسن ابن مسلمة قد أبدى فيها
إعجابه بوادي ريه المتميز بجماله ، حيث تتفرّع جداوله وأنهاره بمياهها اللامعة في
منظر بهيج ، وقد وظّف مصطلحات الحروب وأدواتها ، إذ شبّه النهر بالدرع ،
فيجسد الرياض في صورة كائن حي يتوجس خيفة من تدرع النهر ، ويخشى
الحمام ، فيأخذ أهفته للدفاع ويمدّ أشجاره المتهدلة على النهر فيتخذ منها حراباً
تحميه وتذود عنه ، ولا شك أن تكرار صورة الحرب وأدواتها وتعبيراتها سواء في
الموشحات أو الشعر إنما يعكس حياة الحرب والجهاد التي كانت تعيشها الأندلس
والتي وصلت إلى ذروتها في عصر الموحدين ، فيقول¹ :

بِوَادِي رِيهِ	إِخْلَعُ عُدَارَ التَّصَابِي
أَمَا تَرَاهُ مُفْرَع	
مِثْلَ الصَّبَاحِ المَرْصَعِ	
بِالرُّوْضِ عَادِ مَجْرَعِ	
سَقَاهُ رِيهِ	مِنْ صَفْرِ مَاءِ السَّحَابِ
عَلَيْهِ حَثَّ المَدَامَهُ	
وَانظُرْهُ فِي شَكْلِ لَامَهُ	

¹ - فوزي عيسى ، المرجع السابق ، ص ، ص 268 ، 269 .

خاف الرياض حمامه

فكم خطية مدت له كالحراب

وأحيانا كان يرتبط ذكر الطبيعة بالغزل كقول " عبد الغافر بن رجلون
المرواني " وهو من زجالي القرن السادس الهجري¹ :

أوقد في قلبي النار	ولس يريد يطفئه
وسد باب الدار	أي خذل فيه وأي تيه
يا أحسن الغزلان	يا كوكب دري
لك تسجد الأغصان	ويتمدح القمري
ويخجل النعمان	وأنت لا تدري
والعقل فيك قد حار	والوصف والتشبيه

شخص الشاعر هنا عناصر الطبيعة ، فتسجد الأغصان ويمدح القمري
ويخجل النعمان من جمال المحبوب .

وهناك زجل رائع للحسن الدبّاغ مزج فيه بين وصف الطبيعة والخمر والغزل
يقول² :

¹ - ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، مرجع سابق ، ص 226 .

² - نفسه ، 268 .

لا شراب إلا مَرُوقٌ	لا مَلِيحٍ إلا مَهاودٌ
بالخِلاعاَ والمَعِيسِقُ	اتَّكِي وارِيحَ زَمَانِكُ
والرَبِيعُ قد فاح نُورًا	لا شَرَابُ إلا في بستان
أَقحوان مع بَهَارُ	يَبْكِي الغمامُ ويضحكُ
فُذَاك السَّوَّاقِ دارُ	والمِياه مثل الثعابين
قد نَحَلُ جِسمو وقدرقُ	والنسيم عذري الأنفاس
عنها المسك ينشق	وعشِيَّة مَليحَة فَتَنُ

ومن هنا وجدنا تعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم تلك الطبيعة الساحرة الوافرة الجمال ، ذات الجبال الخضراء والسهول الجميلة ، والطيور المغردة على أفنان الأشجار مصطبغة بظلال وارفة ، وألوان ساحرة تتنفس هواءً عطرًا ، كل هذا انعكس في شعر الأندلسيين ، فتهيأت لهم أسباب الشعر وشغفت بها القلوب وهامت النفوس ؛ ومثلَّ حقًا شعر الطبيعة أحد جوانب الحضارة العربية الأندلسية ، حيث عدَّ صورة دقيقة لبيئة الأندلس و مرآة صادقة لطبيعتها و سحرها الباهر .

أولاً : الإطار الجغرافي للمدينة :

أ- الموقع :

تلمسان من أهم مراكز التاريخ والآثار في الجزائر هي مدينة قديمة في غرب الجزائر في الجبال الداخلية ، قريبة من حدود المغرب .

تقع الولاية شمال غرب الجزائر ، يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط ، وجنوباً ولاية النعامة ، وشرقاً ولايتي عين تموشنت وسيدي بلعباس ، وغرباً المغرب الأقصى .

تبتعد عن الجزائر العاصمة بمسافة حوالي 600 كم غرباً ، وهي محاذية للحدود المغربية إلى الجنوب الغربي من وهران .

تبلغ مساحتها 9071.69 كم² ، تقع على ارتفاع 830 م عن سطح البحر ، تحيط بها الجبال والهضاب الصخرية من الجهة الجنوبية ، وتحدها من الشمال الشرقي ، فتوجد مرتفعات السبعة شيوخ وتاسلة¹ .

هي منطقة تاريخية وسياحية ، كانت تعرف ببوماريا في العهد الروماني ، واتخذها الزيانيون عاصمة لهم . والموقع الاستراتيجي لتلمسان ميزها عن معظم المدن الجزائرية ، فجعل منها مكان تقاطع الطريقين التجاريين في بلاد المغرب وهما : الطريق الرابط بين الشرق والغرب المارّ بوادي الشلف إلى تلمسان ثم إلى فاس ، فسجلماسة ، والطريق الرابط بين الشمال والجنوب والذي يمرّ بمدينة فجيج

¹ - عبد العزيز فيلاي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج1 ، ط1 ، 2011 ، ص 87 .

الواقعة بمدينة بني ونيف بولاية بشار وتوات إلى بلاد السودان¹ ، وبهذا فتحت أبوابها لتجارة أوروبا وتجارة المغرب والمشرق .

قامت المدينة على أنقاض المدينة الرومانية القديمة " بوماريا " أو " أغادير " ، و التي كانت الصفحة الأولى في تاريخ المدينة ، وذلك على الجانب الشرقي من المدينة الحالية والذي كان الموقع الذي اخترقه الرومان وتوغلوا إلى الشمال الإفريقي ، ولم يبق من المدينة القديمة سوى أطلال تلاشت عبر التاريخ ، واستُخدمت أحجارها وأحجار أسوارها وقصورها في بناء منارات أغادير ومساجدها² .

تعدُّ تلمسان المدينة القديمة على مسيرة بضع مئات الأمتار إلى الشمال الشرقي من المدينة الحديثة التي كان يسكنها الجندُ وأصحاب السلطان ، أما القديمة كان اسمها أغادير الاسم الفينيقي القديم تسكنها الرعية³ .

تميّزت تلمسان عن باقي المدن الجزائرية بموقعها الاستراتيجي المشار إليه سابقا ، وبالأبار و العيون العذبة ، شكّلت بشلالاتها وعيونها وسلاسلها الصخرية ما يشبه القلاع المحصنة ، تحمي المدينة من هجمات العدو ، فامتلكت تراثاً تاريخياً واقتصادياً هاما .

¹ - عبد العزيز فيلالي ، مرجع سابق ، ص 88 .

² - ابن الأحمر ، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص 10 .

³ - محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، نشر مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1980 ، ص 135 .

فأكد المؤرخون القدامى كابن خلدون و البكري أنّ تلمسان كانت سوقاً لتجارة الذهب الذي كان يُحملُ من وسط إفريقيا في طريقه إلى أوروبا أو الشمال الإفريقي أو المشرق العربي¹ .

هذا الموقع قد أثار اهتمام الشعوب ليكون منطلقاً لجيوشهم الساعية إلى السيطرة على شمال إفريقيا ، فالرومان جعلوا منها قاعدة لجيوشهم ، وكانت نقطة ارتكاز هامة لأكثر جيوشهم² .

ب- المناخ :

مناخ تلمسان هو مناخ متوسطي يتميز بالبرودة شتاءً والأمطار الغزيرة مع عدم انتظامها ، ويبلغ متوسط درجة الحرارة بهذا الموسم بشكل عام 10 درجات مع درجة حرارة دنيا مطلقة قد تصل إلى ناقص 06 درجات ، فشتاء المنطقة قاسٍ نسبياً إضافة لهبوب الرياح وسقوط الثلوج ونزول الصقيع .

أما صيفاً فهو حارّ وجاف يبلغ متوسط درجة الحرارة ما يقارب 26 درجة ، قد تصل إلى أقصى حدّ 40 درجة تكون السماء دائمة الزرقة في النهار ما عدا بعض الزخات الرعدية الصيفية من حين إلى حين تزيد من تلطيف الجو وترسل نسيماً يشفي الأبدان والقلوب .

1- عبد الحق حميش ، محفوظ بوكراع بن ساعد ، موسوعة تراجم علماء الجزائر ، علماء

تلمسان و توات ، دار زمورة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011 ، ص 28 .

2- نفسه ، ص 29 .

هذه الفروقات المناخية جعلت منها منطقة غنية بنباتات متنوعة من جبلية إلى غابية ومرجية ومائية¹ .

وعموماً فإقليم المنطقة هو أكثر الأقاليم اعتدالا في المناخ وأكثرها وفرة للمياه والنبات والحيوان² .

ج- التضاريس :

مزايا منطقة تلمسان استقطبت الناس منذ العصور القديمة ، يدل على ذلك نشأة العديد من الحضارات تعود إلى العصر الحجري الأسفل .

تُطلّ المدينة من الناحية الشمالية على سهول خصبة تسمى سهول الحناية تمتدّ نحو الغرب ، لتتصل بسهول مغنية ، وتبعد عن البحر بحوالي 80 كيلومتراً³ .

تكسو جبالها وهضابها غابات من أشجار الصنوبر شكّلت حصوناً لحمايتها من الغزاة ، وتقع المدينة تحت سفوح الجبال في مكان مائل نحو الغرب ، تميزت بسهولها الخصبة وبساتينها الخضراء التي تتوفر على فواكه وخضرٍ ومحاصيل

¹ - الموسوعة الجغرافية (<http://www.4geoeraphy.com/vb/t2842.html>) .

² -Marçais (G) : Tlemcen ville d'art et d'histoire 2^{ème} congres de la fondation des société savants de l'afrique du nord tlemcen , publié par soin de la société historique algeiren , Alger , 1936 , p31 .

³ - مارمول كريخال ، إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، دار النشر المعرفة ، الرباط ، ج2 ، ، 1989 ، ص 289 .

زراعية متنوعة ، كما اكتست حلةً خضراء ظهرت في أشجار الصنوبر والجور ، قال عنها يحيى بن خلدون : " اقتعدت بسفح جبلٍ ودوين رأسه أطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصّة ، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطلّ منه على فحس أفيج معدّ للفلاحة " ¹.

بُنيت على سفح جبلٍ يقبها من الرياح القادمة من الصحراء صيفاً وعواصف البرد القارص القادمة من الهضاب العليا الجنوبية والغربية شتاءً ² .

تشرف على المدينة من الناحية الجنوبية سلسلة لالا ستّي التي يبلغ ارتفاعها 1306 متراً ، يتوفّر موقع المدينة على مسطّحاتٍ مائية كواد " متشكّانة " الذي يمرّ بجنوبها وشرقها ، فكان للأودية والأنهار والجداول التي تصبّ من الجبال الدور البالغ في جعلها جنةً تغصّ بالبساتين والرياض والحقول المتنوعة المنتجات الزراعية .

قال في ذلك المقرّي ³ :

1- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق ألفريد بيل ، الجزائر ، ج 1 ، 1910 ، ص 91 .

2- عبد الحق حميش ، مرجع سابق ، ص 26 .

3- شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى أبو العباس المقرّي التلمساني ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ج 1 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1358هـ / 1939م ، ص 06 .

بلد الجدار ما أمر نواها
كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلي في جدّها كن عاذري
يكفيك منها ماؤها وهواؤها

ولطالما عدت جبال تلمسان خزّاناً طبيعياً كبيراً للمياه تتوزع منه على شكل
ينابيع غزيرة مياهها ، منها الوريط ، يسر ، متشكّانة ، والصفصيف الذي يصبُّ
في بركة عظيمة ثمّ ينصبّ في أنهار أخرى كثيرة ، وبعد ذلك ينحدر إلى البحر¹ .
قال عنها الجغرافي ابن حوقل : " ... ومنها إلى تلمسان مرحلة لطيفة وهي مدينة
أزلية ، ولها أنهار جارية وأرحية عليها وفواكه ، ولها سور من آجر حصين منيع
وزرعها سقي وغلّاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ... " ² .

د- أسماء المدينة :

تلمسان مدينة عريقة من بين مدن التاريخ والحضارة في المغرب العربي ،
ولعلّ تعاقب الأمم والشعوب على المنطقة ، وتناميها عبر مسار تاريخي طويل
جعلها تتخذ عدّة أسماء منذ نشأتها باعتبارها من أقدم مدن المغرب الأوسط³ .

¹ - محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، مرجع سابق ،
ص 135 .

² - ابن إدريس الحمودي الحسني ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج 1 ، عالم الكتب
للنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1409هـ ، ص 248 .

³ - عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 88 .

فهناك أسماء ثلاثة اشتهرت بها ، فهناك الاسم الروماني " بومارية " ، مع أنه لا يعني أنها لم تحمل اسماً آخر بربرياً قبله بحكم موقعها الطبيعي الجغرافي الاستراتيجي ، ويمكن أن يكون هذا الاسم (بومارية) ترجمة لاسم بربري قديم¹ .

أما " أكادير " أو " أقادير " أو " أجادير " فأشار الباحثون إلى أن نشأتها كانت قبل العهد الإسلامي بعشرات أو بمئات السنين ، ويظهر أنها المدينة المحلية الصغيرة التي قام باحتلالها الرومان و بنوا على أنقاضها " بومارية " لأن سكّان هذه المنطقة عرفوا فيها استقراراً قبل مجيء الرومان ، شيدها بنو يفرن وأقاموا قلعةً لمقاومة زحف وهجومات قبائل الصحراء الرحّل على المنطقة² .

فيبدو من خلال قراءة الباحثين لما توفّر من نصوص تاريخية أنّ مدينة " أكادير " قد وُجِدت قبل بوماريا ، فهناك من أشار إلى أنها تعود إلى عهد النبي موسى عليه السلام .

¹ - محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة رعاية ، 1985 ، ص 08 .

² - حسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا ، ج 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 1403هـ ، ص 17 .

فزعم البعض أنّ الجدار المذكور في القرآن من سورة الكهف في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بنواحي " أقادير " ¹ .

كما تشير بعض المصادر العربية أن اسم أكادير فينيقي الأصل ² .

وفيما يتعلق بالتسمية " تلمسان " فتعود إلى لغة " زناتة " مركّب من " تلم " معناها " تجمّع " و " سان " معناها " اثنان " أي تجمع بين التلّ والصحراء ³ ، وذكر المقرئ أنها تسمّى " تلمشان " مركّب من " تلم " معناها " لها " و " شان " معناها " شأن " أي لها شأن ⁴ .

أمّا ياقوت الحموي فقال عنها : " تلمسان بكسرتين وسكون الميم و سين مهمله ، وبعضهم يقول : تتمسان ، بالنون عوض اللام : بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر ، إحداهما قديمة و الأخرى حديثة ، والحديثة اختطّها المثلثون ملوك المغرب ، واسمها تافرزت ، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان ، وأصناف من الناس ، وأسم القديمة أقادير ، يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر ، ويكون بتلمسان الخيل الراشدية ، لها فضل على سائر الخيل و تتخذ النساء بها من الصّوف أنواعاً من الكنايش لا

¹ - محمد بن عمرو الطمار ، المرجع السابق ، ص 09 .

² - ابن مريم الشريف ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تصحيح محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، 1326هـ / 1908م ، ص 09 .

³ - يحيى بن خلدون ، مصدر سابق ، ص 85 .

⁴ - أحمد بن محمد التلمساني المقرئ ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، ج3 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، 1968 ، ص 24 .

توجد في غيرها ، ومنها غلى وهران مرحلة ، ويزعم بعضهم أنه البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام ، الجدار المذكور في القرآن ، سمعته ممن رأى هذه المدينة ، وينسب إليها قوم منهم : أبو الحسين خطّاب بن أحمد بن خطّاب بن خليفة التلمساني ...¹ .

ويرى بعض الباحثين بأن كلمة تلمسان صيغة جمع للكلمة البربرية " تلماس " وتعني جيب ماء ، أو النبع² ، وآخرون أشاروا إلى أن كلمة " تلمست " وجمعها " تلمسين " ، وكلمة " تلمست " وجمعها " تلمسان " ، تعني الأرض التي تنعم بالمياه والأشجار³ . وبهذا يقال أن كلمة تطلق على المدن التي لها نفس خصائص أكادير وهي كثرة البساتين والسهول والمياه .

هذا وقد اتخذت مدينة تلمسان ألقابا عديدة منها : " لؤلؤة المغرب العربي " ، " عروس البحر المتوسط " و أطلق المسلمون عليها اسم " الجدار " عندما أبهرتهم حصونها أثناء الفتح ، و آخرون أسموها " مدينة الفن والتاريخ " ، والمرابطون لقبوها " القلعة المحمدية " كما لقبها ابن خلدون " مدينة النور " وسمّاها بعض المؤرخين " غرناطة إفريقيا"⁴ .

1- ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي ، معجم البلدان ، مج1 ، دار صادر

للنشر ، 1397هـ - 1993م ، ص 424 .

2- حسن بن محمد الوزان ، مصدر سابق ، ص 17 .

3- محمد بن عمرو الطمار ، مرجع سابق ، ص 09 .

4- عبد الحق حميش ، المرجع السابق ، ص 26 .

ثانياً : البنية العمرانية للمدينة :

لم يبالغ القائلون أنّ تلمسان هي مدينة الجمال الساحر ، فإذا ما تجوّلت في شوارعها تأكدت من صحة القول ، فهي مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة تدلّ على أنها كانت مملكة لأُمّ سالفة ، و هي التي قال عنها عبد الرحمن بن خلدون : " فأصبحت أعظم أمصار المغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية ... " ¹ .

شهدت المنطقة مراحل تطوّر عديدة في المجال العمراني ، فكان لبني زيان الفضل العظيم في تخليد مآثرها وتوسيع عمرانها وجعلها قاعدة للحكم يُجسدّ ذلك الآثار المتبقية من مساجد وأسوار وقصور وزوايا فاتسعت المدينة واتّسع عمرانها وسكّانها و عبّر عن هذا ابن خلدون بقوله : " فاخبطوا بها القصور المرتفعة والمنازل الحافلة ، وغرسوا الرياض ، والبساتين وأجروا خلالها المياه ، فأصبحت أعظم أمصار المغرب ، ورحل إليها الناس من القاصية ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، فنشأ بها العلماء ، واشتهر بها الأعلام ... " ² .

عاشت تلمسان عصرها الذهبي في ظلّ الحضارة العربية الإسلامية ، فكانت مدينة زاخرة بال عمران و الفكر ، ومحطة تجارية متميزة . وفيما يلي عرض لأهمّ منشآتها العمرانية :

1- عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج7 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1983م ، ص 105 .

2- نفسه ، ص ، ص 161 ، 162 .

أ- المساجد :

لطالما عدّ المسجد الجامع النواة الأولى لعمران ، هو مكان لأداء فريضة الصلاة ، ومقرّ يجتمع فيه سكان المدينة ، ليتداولوا أمورهم الاجتماعية والاقتصادية ، وتعليم أبنائهم مختلف العلوم العقلية والنقلية ، هذا وكانت تقرأ فيه البلاغات الرسمية للدولة ، وتمضى فيه العقود التجارية ، و تؤخذ إليه الجنازة قبل الدفن للصلاة عليها ...

انتشرت المساجد في تلمسان عبر أحيائها منذ دخول الفاتحين إليها في النص الثاني من القرن الأولى هجري ، السابع ميلادي ، لعبت دورا بالغ الأهمية في الجانب الديني والاجتماعي والثقافي والسياسي ، فهناك على سبيل المثال وليس الحصر :

- المسجد الجامع بأكادير : أسس قبل دخول الأدارسة المدينة سنة 174هـ / 190م ، قاموا بترميمه عدة مرات وتزيينه وتوسيعه وأضافوا له المنبر والمحراب وقام السلطان يغمراسن بترميمه وبناء مؤذنته¹ ، لا تزال بعض آثاره قائمة في المدينة و لا زال الباحثون ينقبون عن آثاره المدفونة في طبقات التراب المتراكمة في مكانه² .

1- عطا الله ذهينة ، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984 ، ص 362 .

2- رشيد بورويبة ، جولة عبر مساجد تلمسان ، مجلة الأصالة ، العدد 26 ، 1975 ، ص 181 .

- المسجد الأعظم بتاكرارت : شيدّه يوسف بن تاشفين أثناء بناءه لمدينة تاكرارت سنة 473هـ / 1080م ، أعاد بناءه ابنه علي بن يوسف سنة 530هـ / 1135م ، أصبح تحفة معمارية رائعة بعدما أدخل عليه المهندسون والمعماريون مسحة فنية أندلسية¹ .

أضاف يغمراسن لهذا المسجد جزءاً آخر لبيت الصلاة ، و القبة والصحن والمئذنة ذات الطابع والزخرفة الأندلسية ، وللمحراب مشكاة سداسية الأضلاع وقبتان تنتصب إحداهما أمام المحراب والثانية على البلاطة الرابعة ، صنعت الأولى في عهد المرابطين ، والثانية في عهد بني زيان² .

- جامع أبي الحسن : يقع بالقرب من المسجد الأعظم ، أسسه السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ / 1296م ، يعدّ هذا المسجد صغير الحجم بالنسبة إلى المساجد الأخرى ، يتميز بالسواري المنحوتة من الرخام تعلوها تيجان جميلة الشكل ، يعتبر المحراب من أجمل المحارب في العالم الإسلامي . مأخوذ من الهندسة المعمارية والفن والزخرفة الغرناطية³ .

¹ – Marçais (G) : Tlemcen ville d'art et d'histoire 2^{ème} congres de la fondation des société savants de l'afrique du nord tlemcen publié par soin de la société historique Algerien , Alger , 1936 , p34 .

² - رشيد بورويبة ، مرجع سابق ، ص 174 .

³ - نفسه ، ص 175 .

- مسجد أولاد الإمام : بناه السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710هـ / 1310م ، لم يبق منه إلا القبة المزينة بالقرنصات التي تكّل مشكاة المحراب ومئذنتها الجميلة ، يقع بالقرب من مسجدي أبي الحسن و إبراهيم المصمودي ، وتقع قطع أثرية منه في المتحف البلدي بتلمسان¹ .

- مسجد إبراهيم المصمودي : أسسه أبو حمو موسى الثاني ، إلى جانب القبة والزاوية والمدرسة ، يشمل المسجد على مئذنة مربعة الشكل ، وقبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان ، لم يبق من هذه البنايات سوى المسجد والقبة² .

- مسجد أبي مدين بالعباد : شيده السلطان أبو الحسن المريني سنة 739هـ / 1339م ، تميّز بزخرفة جدرانه المغطاة بالجص المنحوت بأشكال هندسية تتخلّلها كتابات مختلفة ، يتميز بمدخل جميل وباب برنزيّ ، سقفه مزين بقبة من أجمل قبّات العالم الإسلامي ، المسجد لا يزال قائماً يتميّز بهندسة معمارية رائعة ذات طابع أندلسي³ .

- مسجد سيدي الحلوي : أمر ببنائه أبو عنان بن أبي الحسن السلطان المريني سنة 754هـ / 1353م يعدّ إطاقته ببني زيان ، يشبه مسجد أبي مدين في زخرفته ، له بيت للصلاة ومحراب ، و صحن مربع الشكل ومئذنة ، ويشار إلى

¹ - عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 147 .

² - نفسه ، ص 147 .

³ - رشيد بورويبة ، المرجع السابق ، ص 180 .

أنّ السواري والتيجان التي زين بها المسجد من الداخل جُلبت من المنصورة لأن سارية من السواري تضمنت ساعة شمسية موضوعة في مكان لا تصل إليه الشمس ، ولأن تجانه تشبه التي وجدت بمدينة المنصورة¹ .

¹ - رشيد بورويبة ، المرجع السابق ، ص 180 .

ب- الزوايا :

هي بنايات ذات طابع ديني ثقافي ، تقام فيها الصلوات و تُلقى فيها دروس على طلاب العلم والدين ، وتدرسها زاوية السنوسي ، زاوية أبي يعقوب أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده ، زاوي سيدي الحلوي أنشأها أبو عنان بشمال المدينة ، زاوية أبي زيد ، زاوية سيدي أبي مدين بالعباد ، زاوية أبي عبد الله ، زاوية ابن البناء و غيرها¹ .

ج- الحمامات :

أُلحقت الحمامات في أغلب الأحيان بالبناءات الدينية لما لها علاقة وطيدة بالطهارة التي لا يستغني عنها المسلمون ولا يمكنهم أداء فرائضهم الدينية دونها ، بالرغم من أن الاغتسال في الحمامات ظاهرة قديمة عُرُفت عند المصريين واليونانيين و الرومانيين و الكنعانيين² ، ومن بين أهم و أشهر الحمامات في تلمسان نذكر :

- حمام العالية المشهور : و هو من أحسن الحمامات وأنظفها ، يقع بالقرب من باب الجديد³ .

¹ - عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 149 .

² - عطا الله ذهينة ، المرجع السابق ، ص 364 .

³ - عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 140 .

- حمام الصباغين : سمي هذا الحمام باسم العالم الصالح أحمد بن الحسن الغماري لأنه كان كثير التردد على هذا الحمام ، يقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة¹ .

- حمام سيدي بومدين بالعياد : الذي لا يزال قائم إلى اليوم ، و حمام الطبول الذي ذكر اسمه في وثيقة الأوقات التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني² .

¹ - عطا الله ذهينة ، المرجع السابق ، ص 364 .

² - أبو زكرياء المازوني ، الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، ج 1 ، دراسة وتحقيق قندوز ماحي ، طبع وزارة الأوقاف الجمهورية الجزائرية ، 1433هـ ، ورقة 256 .

د- المقابر و الأضرحة :

عدد المقابر في تلمسان كثيرة ، كانت تقع في معظمها خارج أسوار المدينة ، لكن عندما اتسع العمران و انتشر أصبحت داخلها ، توجد مقابر خاصة بالعائلات الحاكمة و العريقة و الأولياء الصالحين و العلماء و الفقهاء ، و هذه المقابر تقع داخل المدينة التي تعرف بالروضات أو الخلوة في حجرات بالمساجد أو في جنان القصور مثل روضة آل زيان بتلمسان الكائنة بدويرة بالجامع الأعظم¹ ، وروضة الشيخ السنوسي ، وروضة أبي مدين بالعباد ، و حديقة مسجد سيدي إبراهيم المصمودي عند المدرسة اليعقوبية² .

عمد سكان المنطقة على دفن الشيوخ الصالحين و الأولياء بالقرب من أبواب المدينة ، لأنهم كانوا يقومون بزيارتها للشرك بها لاعتقادهم بأن بركة هؤلاء الأولياء الصالحين تحميهم و تحرصهم من المخاطر و الأعداء و الغزاة . فنذكر على سبيل المثال لا الحصر ضريح الشيخ الصالح أبو عبد الله الشودي الإشبيلي المعروف بسيدي الحلوي الموجود خارج باب علي³ ، و ضريح الشيخ أحمد بن محمد بن زكري بروضه الشيخ السنوسي⁴ ، و يتواجد ضريح أبو يوسف يعقوب علي الصنهاجي بالمرج خارج باب جياذ جنوب المدينة بالقرب من الموضع المعروف بالحفير كان الناس يقصدونه للدعاء و التبرك .

¹ - ابن مرزوق الخطيب ، المجموع ، مخطوط الرباط ، الخزانة العامة ، ورقة 09 .

² - ابن مريم ، البستان ، المرجع السابق ، ص 66 .

³ - نفسه ، ص 70 .

⁴ - نفسه ، ص 38 .

وُجِدَت مقابر جماعية أخرى بالقرب من المدينة كالمقبرة الخاصة بسكان " أكادير " التي تقع بين القلعة الرئيسية و قلعة الإمامة ، و مقبرة العباد العلوي شرق تلمسان ، و مقبرة اليهود في الشمال الغربي للمدينة ، و مقبرة عين السراق بضواحي تلمسان¹ .

هـ - أحيائها :

اشتملت مدينة تلمسان على أحياء عدة نذكر منها حي المطمر الواقع غرب المدينة سمي بهذا الاسم لاحتواءه على مخازن و مطامير كانت تستعمل لتخزين المؤونة و السلع من مواد غذائية مختلفة قصد الانتفاع بها أثناء تعرض المدينة للحصار أو وقت القحط ، فكان أهالي المنطقة يحرصون على أخذ الاحتياطات الضرورية² .

حي أو حومة باب علي تقع في الشمال الشرقي من المدينة توجد غربها حومة عبد الجبار في شرقها نجد حومة باب زيري ، و تتوسط الرحبية حومتي باب زيري شمالاً و باب جواد جنوباً . حومة اليهود تقع وسط المدينة ، تضم عدداً كبيراً من السكان اليهود الذين ينتمون إلى الطبقة الغنية³ ، و كان للمدينة دروبٌ منها الكبيرة و منها الصغيرة و الضيقة نذكر منها درب الكبير المشهور درب

¹ - ابن مريم الشريف ، المرجع السابق ، ص ، ص 93 ، 94 .

² - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، المرجع السابق ، ص 210 .

³ - حسن الوزان ، المرجع السابق ، ص 20 .

سيدي شاكِر ، كان يسكنه العالم التاجر أبو زيد صاحب مصانع الصوف ، ويمتلك فيه حوانيت و منازل عديدة له و لأبنائه و عماله¹ .

درب مرسى الطلبة يحتوي على منازل عديدة و حوانيت و كتاب لتعليم الأطفال و مسجد يقطنه آل مرزوق و دروب أخرى كدرب مسوفة الذي يقع بتلمسان العليا و دريبة ابن الذيب صغير مغلق ، يوجد بالبسطريين في ظهر السجن الذي يقع بسوق السراجين² .

و- أسوارها :

أُحيطت تلمسان في العهد الزياني بعدة أسوار بُنيت بناءً مُحكماً تبعد عن بعضها البعض بمسافات قصيرة ، بني بعضها بالآجر و أخرى بالحجر الصلب ، و في جهات أخرى بنيت بالرمل والطين والكلس المدكوك³ ، بنيت نحو ستة أسوار كاملة في الجهة الجنوبية الغربية فقط بأمر من يغمراسن سنة 668 هـ / 1268م ، هي أسوار مرتفعة و مزدوجة تعلوها أبراج وتدعمها حصون مربعة الشكل وقد هُيأت بشكل كامل حتى تقوم بوظيفتها الإدارية والسياسية والعسكرية⁴ .

¹ - ابن مرزوق ، المرجع السابق ، ورقة 05 .

² - نفسه ، ورقة 39 .

³ - Sid Ahmed Bouali , les deux grands sièges de tlemcen , Alger : ENAL , 1989 , p41 , 44 .

⁴ - شهاب الدين بن فضل الله العمري ، مخطوط مسالك الأبصار في عجائب الأمصار ، دار الكتب الوطنية ، رقم 6778 ، القسم 7 ، ورقة 206 .

كانت هذه الأبراج و الأسوار عاملاً مهماً في الدفاع عن المنطقة وأهاليها وتصدوا للحصار مدة طويلة .

و ذكر الباحث مارسي Marçais أنّ عدد أسوار المدينة سبعة .¹

قام الزيبانيون إضافة إلى ذلك ببناء أبراج قويّة وعالية نذكر منها :

- برج القشاقش : بُني على ضفة وادي متشكاته ، وأنشئت له طريق مغطاة

بالأقواس تربط البرج بالمدينة .²

- برج الطاحونة : أنشئ في جنوب المدينة في موقع جبلي ، يؤدي إلى

هضبة لالاستي ، من أجل مراقبة الجهة الجنوبية و حمايتها ، وحماية في الوقت

نفسه الطّاحونة التي تزود أهالي تلمسان بالدقيق .³

- برج إمامة : هو عبارة عن قصر كبير بُني على شكل قلعة مرتفعة ، تقع

في الجهة الشمالية الغربية من المدينة .

¹ -GEORGE Marçais , collection les villes d'art célèbres , tlemcen , paris , laurens , 1950 , p 36 .

² - Sid ahmed bouali . p 43 .

³ - نفسه ، ص 43 .

- قلعة ابن الجاهل : هي حصن قام بتشييده الزيانيون في الجهة الجنوبية للدفاع عن المدينة ، ساهمت هذه القلعة في الدفاع المحكم ، وتصدّت للهجمات التي كانت تأتي من الشرق والجنوب ¹ .

وهناك أيضاً برجان كبيران مُربعان بالقرب من باب العقبة ² .

¹ - أبو عبد الله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، نشر و تحقيق البارون دي سلان ، الجزائر ، 1911 ، ص 77 .

² - GEORGES Marcais , collection les villes d'art célèbres , p 17 .

ز - أبواب المدينة :

اشتملت مدينة تلمسان على خمسة أبواب هامة و رئيسية ، إلا أن بعض الدراسات أشارت إلى أزيد من ذلك ، فجعلها أبو الفداء ثلاثة عشر باباً ، لكن لم يحدّد مكانها ربّما لأنها أبواب ثانوية يستعملها الجند ورجال الدولة في الوقت المناسب¹.

والأبواب التي ليس لها مكان محدد أو وصف دقيق لها تبدو أنها ليست سوى ممرّات أو فتحات في الأسوار² ، أسست الأبواب الخمس بعد دمج المدينتين وإحاطتهما بالأسوار المتعدّدة ، و كانت الأبواب مصفّحة بالحديد و مدعّمة بحصون قويّة صعبة الاختراق ، والأبواب الخمس هي :

- باب العقبة : المتواجد في شرق المدينة ، وهو أقدم الأبواب الذي ظلّ قائماً منذ تأسيس مدينة أكادير ، بني بأحجار من بقايا الرومان ، لكن انهارت واندثرت بقايا هذا الباب في أواخر القرن 19م³.

- باب القرماديين : يقع هذا الباب في الشمال الغربي من تلمسان ، يذكر أن سبب تسميته باب القرماديين يعود إلى تواجده بالقرب من أفران لصناعة الفخار

1- أبو الفداء الأيوبي ، تقويم البلدان ، تحقيق رينود ، ماك ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، 1850 ، ص 137 .

2- عطا الله ذهينة ، المرجع السابق ، ص 371 .

3- شهاب الدين بن فضل الله العمري ، المرجع السابق ، ق 07 ، ورقة 206 .

و الأجر و القرמיד . ولطالما أُعْتَبِرَ هذا الباب بمثابة الحصن الدفاعي الأساسي الذي يحمي مدخل المدينة.¹

- باب سيدي الحلوي : يقع شمال المدينة يُذكر أنه سُمِّي بأسماء عديدة منها باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي وباب علي.²

- باب كشوط : معناه باب الأكشاك (جمع كشك) ، أمر يغمراسن ببنائه وتحصينه بأبراج وأسوار عالية بالجهة الجنوبية الغربية من المدينة ، أصبح يعرف باسم " باب فاصل " ، وسمي بباب الأرجوحة في العهد العثماني بسبب كثرة الإعدامات شنقاً التي كانت تتفدّ بالقرب منه.³

- باب الجياد : يقع جنوب المدينة ومن الصعب تحديد مكانه حاضراً لاندثار المباني في هذه الجهة.⁴

¹ - عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 113 .

² - محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدرّ والعقيان ، القسم الرابع في محاسن الكلام ، ترجمة وتحقيق نوري سودان ، النشرات الإسلامية للنشر ، ط 1 ، 1982 ، ص 117 .

³ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، المرجع السابق ، ص 207 .

⁴ - نفسه ، ص 207 .

احتفظت تلمسان بالأبواب الداخلية كما كانت عليها سابقاً ، والتي تصل بين
المدينتين ، مثل باب أبي قرّة وباب زيري ، وباب الرواح من شمال وغرب مدينة
أكادير.¹

ح- الخنادق :

أنشأ الزيانيون خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة جنوباً بموازة وادي مشتكانة ،
تُشيد لتسهيل مهمة الحراس خلال حاجز به فتحات.²

هناك أيضاً " خندق عين كسور " بالشمال الغربي للمدينة خارج باب
القرماديين.³

ساهمت هذه الخنادق إضافة إلى المنحدرات الشمالية الوعرة في حماية
المدينة من اختراق أسوارها وحصونها .

¹ - ابن مرزوق ، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق ماريّا
بيغيرا ، الجزائر ، 1981 ، ص 475 .

² - عطا الله ذهينة ، المرجع السابق ، ص 371 .

³ - ابن مريم ، البستان ، المرجع السابق ، ص 69 .

ط- مدارسها :

شهد التعليم في العهد الزياني تطوراً بالغاً شمل جميع العلوم من لغة وأدب ، من نحو وصرفٍ وبلاغة وعروض ، وعلوم دينية من توحيد و فقه و حديث وأصول ، إضافة إلى الطب والحساب .¹

لذا تعددت المؤسسات التعليمية والمدارس المتخصصة والمساجد والكتاتيب ، وكان لتشجيع السلاطين الزيانيين للعلم والمعرفة أثر كبير ، فأولوا اهتمامه بالتعليم وبناء المدارس .

وعموماً إن مدارس تلمسان كانت حكومية رسمية تابعة للدولة ، هي التي كانت تشرف على تمويلها وتعيين الأساتذة والمدرّسين ، و كانوا من المالكية² ، لأن سلاطين بني زيان مالكيين ، لذا أكدوا على تدريس الفقه وأصول المذهب المالكي ، فكان لهذه المدارس دورٌ في تنشيط الدراسات الفقهية والأدبية والعلمية وساهمت في توحيد الفكر الإسلامي ، والمذهب في حاضرة الدولة الزيانية وفي غيرها .

ظهرت المدارس في بلاد المغرب في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وظهرت في تلمسان في مطلع القرن الثامن

¹- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ج 1 ، 1985 ، ص 360 .

²- ألفريد بيل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي عن الفتح العربي حتى اليوم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1981 ، ص 354 .

الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، ونذكر من المدارس التي شُيِّدَت بتلمسان في هذه الفترة :

- المدرسة التاشفينية : بناها السلطان أبو تاشفين بن أبي حمّو موسى الأول جانب المسجد الأعظم ، مثلت تحفةً فنيّةً عمرانيةً بالغة الروعة بزخرفتها البديعة التي أشرف عليها السلطان ، ظلّت هذه المدرسة تخدم طلابها ، قائمة على تعليم مختلف العلوم إلى أن دمّرتها السلطات الفرنسية سنة 1859م¹.

- مدرسة ابن الإمام : أمر ببنائها السلطان أبو حمّو موسى الأول ، سميت بابني الإمام نسبة إلى مشيختها الأخوين أبي زيد عبد الرحمن ، وأبي عيسى اللذين كُلفا بالتدريس بها² . بُني بجانبها مسجد صغير لا يزال قائماً إلى اليوم المسمّى بجامع "سيدي أولاد الإمام" ، الواقع في الجهة الغربية من المدينة³.

- مدرسة أبا مدين بالعباد : بناها السلطان أبو الحسن المريني عند استيلاءه على تلمسان والمغرب الأوسط بقرية العباد سنة 747هـ / 1447م ، تميّزت بأقواسها المنكسرة وزخرفتها الجميلة ، بها فناء رحب فيه صهريج ماء ، بالقرب منه صحنٌ دائري من الرّخام مخصّص للشرب والوضوء ، بُنيت أمامه قاعة كبيرة للمحاضرات ، تشمل هي الأخرى أقواساً منقوشة بالجصّ ، وفي أسفل

1- محمد القبلي ، قضية المدارس المرينية ، ملاحظات وتأمّلات ضمن كتاب النهضة والتراكم ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، 1986 ، ص 51 .

2- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، المرجع السابق ، ص 130 .

3- محمد بن عبد الله التنسي ، نظم الدر و العقيان ، المرجع السابق ، ص 160 .

القاعة توجد نقوشٌ جميلة¹ ، تتألف المنطقة من طابقين يحتوي العلوي على غرف نوم لإيواء الطلبة الغرباء والفقراء ، أما الباب الخارجي للمدرسة توجد فوقه أشكال هندسية وزخرفات ، لا تزال قائمة بالعباد شكّلت تراثاً حضارياً إسلامياً هاماً² .

- المدرسة اليعقوبية : شيدها السلطان أبو حمو موسى الثاني تخليداً لوالده أبي يعقوب حاكم إقليم الجزائر ، توفي هذا الأخير في 763هـ / 1362م ، فأمر السلطان والده برياض يقع قرب باب إيلان ، و بنى مدرسة بالقرب منه بعدما نقل وفاة عميه أبا سعيد و أبا ثابت من مدفنهما القديم بالعباد ودفنهما بجوار ضريح والده ، عُرِفَت المدرسة بجمالها وحسن بنائها ، ألحقها أبو حمو موسى الثاني بزاوية ومقبرة لملوك تلمسان وأمرائها من بني زيان³ . لكن المدرسة اندثرت ولم يعد لها وجود .

- مدرسة سيدي الحلوي : بناها السلطان أبو عنان المريني عند استيلاءه على تلمسان والمغرب الأوسط سنة 754هـ / 1454م ، بالقرب من ضريح الوالي الصالح أبي عبد الله الشوذي الإشيلي الملقب بالحلوي⁴ .

1- عبد العزيز لعرج ، مدرسة العباد : نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب ، مجلة الدراسات

الإنسانية ، جامعة الجزائر ، العدد 02 ، 1423هـ - 2002م ، ص 131 .

2- عبد الحميد حاجيات ، أبو موسى حمو الزياتي ، حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع ، 1974 ، ص 65 .

3- نفسه ، ص ، ص 182 ، 183 .

4- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص ، ص 127 ، 128 .

ي- المنتزهات :

جرت العادة عند أهالي مدينة تلمسان أن يخرجوا في المواسم و الأعياد و المناسبات للراحة و الاستجمام فيقصدون مواقع تتمتع بمناظر طبيعية جميلة ، جبال و حقول و بساتين و هواء منعش بعيداً عن ضوضاء المدينة .

تمثلت هذه المرافق أساساً في حدائق عامة كمنزه وادي الصفصيف و ساقية الرومي (التي تسمى اليوم بساقية النصراني) ، والشلالات و غدير الجوزاء ¹ . و كان من أجمل منتزهات تلمسان منتزه البركة العظيمة و جبل لالاستي ، و جنات الوريط و شلالاتها .

والملاعب التي كانت تقام فيها الاستعراضات العسكرية ، قبل خروج الجيوش للقتال ، كما كان السلطان يستقبل فيها الضيوف و السفراء و الوفود القادمة إليه من الدول و المناطق الأخرى ، كما كانت تقام في هذه الملاعب صلاة العيدين و صلاة الاستسقاء أيام الجذب و الجفاف ² .

1- أحمد بن محمد التلمساني المقرئ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المرجع السابق ، ص ، ص 332 ، 334 .

2- ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب و الأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم و محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، د.ت ، ص ، ص 74 ، 90 .

ك- القصور :

شيد السلطان يغمراسن أعظم قصر في المدينة وهو " المشور " الذي هو عبارة عن قلعة كبيرة ، فاتخذه المقر الرسمي لإقامته و إقامة خلفائه من بعده ، كان يستقبل فيه الأمراء و السفراء الأجانب ، تُنظَّم في قاعاته حفلات الاستقبال .

يحيط بالمشور سور عالي يضمُّ قصور عديدة صغيرة إلى جانب قصر السلطان ، بُنيت بأسلوب معماري فني بديع و مزيّنة بزخرفة رفيعة ¹.

لطالما عدّ هذا القصر العظيم معلم من المعالم العمرانية الزيانية المتأثرة بالهندسة المعمارية الأندلسية ، فكان مزيّن بالرخام و الفسيفساء الملونة التي تكسو قاعته و جدرانه مبلّط بالجبس الأنيق و السقوف الخشبية المدهونة ، و التريّات النحاسية الفخمة تخلّلتها أحواض الزهور و الأشجار و نافورات المياه ².

للقصر بابان أحدهما يقع في الجنوب يُطلّ على البادية تُجاه الجبل و الثاني يقع في الشمال الغربي باتجاه وسط المدينة و يقيم بجواره رئيس الحرس ، و له ساحات و شوارع و دروب و منازل أخرى بداخله للhashية و الضباط و الكتاب و الخدم ، و توجد به مخازن و مطامير لتخزين الحبوب و المُون ³.

¹ - حسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 20 .

² - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج2 ، ص 40 .

³ - ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 199 .

هذا و قد حرص أحفاد يغمراسن و من خلفوه على البناء و التشييد ، فقام ابنه عثمان ثم حفيده أبو موسى الأول بتأسيس المنشآت العمرانية باعتبارها رمزا للقوة و الازدهار و هي من مهام السلاطين .

وتعدى السلطان أبو تاشفين بن أبي حمو الأول (1318- 1337) أسلافه من حيث الاعتناء بالبناء و العمران فكان مولعا بذلك ، بلغ أنذاك عدد الدور والمنازل نحو ستة عشر ألف دار حتى سمي عصره " عصر ازدهار العمران " ¹.

¹ - حسن بن محمد الوزان ، مصدر سابق ، ج1 ، ص 17 .

ثالثا : التركيبة الاجتماعية :

1- أصول المجتمع التلمساني العرقية :

تلمسان المدينة الجميلة عاصمة الدولة الزيانية ، توفرها على عناصر مهمة من بساتين و مياه و حقول واسعة و سلاسل جبلية ذات خيرات كثيرة جعلتها تستقطب اهتمام الناس عامة و المنتجين و أصحاب المال ، فاجتازت نقلة حضارية متميزة ، دون أن ننسى موقعها الاستراتيجي الهام على الطريق التجاري الرابط بين تونس و فاس و اقترابها من موانئ هنين و وهران ، ما زاد من تطورها الاقتصادي و مضاعفة الحركة التجارية كما أشار إليها الإدريس على أنها مفتاح إفريقيا الغربية ، و الممر الذي يعبر منه المسافرون و سكانها من أغنى سكان المغرب¹ ، و جعلها البكري المدينة الأساسية في المغرب الأوسط و مركز القبائل البربرية و مكان تلاقي القوافل القادمة من الغرب و الصحراء².

و تجدرُّ بنا الإشارة أن اتساع المدينة و تطورها عمرانياً و اقتصادياً و تضاعف عدد سكانها كان في العهد الزياني لأنَّ المدينة قبل ذلك كانت تتعرض للأزمات و الهجمات و الغزوات الكثيرة و مع ذلك صمد أهلها و واجهوا الشدائد إن لم نقل أنهم قد امتلكوا الخبرة في مجابهة الغزاة و مقاومتهم بتنشيط التجارة و الاقتصاد و إعادة ترميم ما خربته الحروب في مجال البناء و التعمير .

¹ ابن إدريس الحمودي الحسني ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مرجع سابق ،

ص 101 ، و لم يكن بعد أغات و فاس أكثر من أهلها أموالا و لا أرفه منهم حالا .

² أبو عبد الله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، مرجع سابق ، ص 77 .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ اتِّسَاعَ الْمَدِينَةِ عُمَرَانِيًّا وَحَضَارِيًّا وَاِقْتِصَادِيًّا وَتِجَارِيًّا أَهْلَتْهَا لِأَنَّ يَزِيدَ يَزِيدَ نَمُوَ السَّكَّانَ بِهَا وَتَسْتَقْطِبُ سَكَّانًا مِنْ مَخْتَلَفِ الْجِهَاتِ لِتَوْفُرِ ظُرُوفِ الْعَيْشِ بِهَا . هَذَا مَا جَعَلَ الْأَصُولَ الْعِرْقِيَّةَ لِلْعُنَاصِرِ السَّكَّانِيَّةِ بِالْمَنْطِقَةِ مَتَشَعِّبَةً وَامْتَزَجَ السَّكَّانَ الْأَصْلِيِّينَ مَعَ الْبُرْبُرِ وَأَجْنَاسٍ أُخْرَى عَرَبِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْرَبِيِّينَ وَيَهُودَ .

وَأَهَمُّ الْأَجْنَاسِ الَّتِي شَكَلَتْ الْمَجْتَمَعَ التَّلْمَسَانِيَّ خِلَالَ الْعَهْدِ الزِّيَانِيِّ نَذَكَرُ :

- الْبُرْبُرُ :

لَقَدْ غَلَبَ الْبُرْبُرُ عَلَى سَكَّانِ تَّلْمَسَانَ وَبِالْأَخْصِ مِنْ زَنَاتَةٍ ، إِذْ ظَهَرَتْ بِهَا طَبَقَةٌ تَصَدَّرَتْ الْمَجْتَمَعَ التَّلْمَسَانِيَّ وَامْتَهَنَتْ الصَّنَاعَةَ وَالتِّجَارَةَ .

فَهَيِمَّتْ قَبَائِلُ مَغِيلَةَ وَ مَغْرَاوَةَ وَ بَنِي يَفْرَنْ عَلَى مَدِينَةِ تَّلْمَسَانَ وَ حَكَمُوا الْمَنْطِقَةَ وَ اسْتَقَرُّوا بِأَكَادِير¹ قَبْلَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ لَهَا ، ثُمَّ دَخَلَتْهَا قَبَائِلُ مِنْ بَنِي زَيْرِيٍّ وَ أَقَامُوا بِهَا² ، وَ سَكَنَهَا الْمُرَابِطُونَ الصَّنَهَاجِيُّونَ ، كَمَا انْتَقَلَتْ إِلَيْهَا بَعْضُ الْعَائِلَاتِ الْمُوَحَّدِيَّةِ مِنْ هَنْتَاتَةٍ وَ مَصْمُودَةَ وَ كُومِيَّةَ ، فَأَصْبَحَتْ تَّلْمَسَانَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ نَزْلًا لِلْحَامِيَّةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ وَ مَقْرًا لِلْحَاكِمِ وَ قَرَابَتِهِ³ .

¹ - ابن خلدون ، العبر ، مرجع سابق ، ج 7 ، ص 94 .

² - نفسه ، ص 94 .

³ - نفسه ، ص 151 .

- العرب :

دخل العنصر العربي بلاد المغرب منذ دخول الفاتحين المسلمين في عهدي " أبي المهاجر " دينار (675 م - 681 م) وموسى بن نصير (705 م - 715 م) ، الذي جعل من منطقتي طنجة و تلمسان إقليما إداريا واحداً و عُيِّن عليه طارق بن زياد ، وكان يقطن تارة طنجة و أخرى تلمسان فسكنت بعض الأسر العربية والمستشارين العرب لطارق بن زياد تلمسان¹.

ونجد أيضا بعض القبائل مثل القحطانية اليمنية والعدنانية المضرية قد حطت رحالها ببلاد المغرب مع الجيوش الفاتحة و استقرت بتلمسان².

وَدخلت عدّة قبائل من الحجاز ومصر وخراسان والعراق والشام واستمرت الطلائع بالتوافد على هذه الأرض خلال القرن الثامن ميلادي الثاني للهجرة ، مع العلم أن العديد من الأسر العربية و القبائل قد أغفلتها النصوص التاريخية³ ، كما أنّ هناك البعض من الأشراف الحسنية من أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن أحد إخوة مؤسس دولة الأدارسة بفارس سنة 172هـ / 788م ، الذي كان شديد

1- ابن الأعرج محمد بن محمد بن عبد القادر ،ت عبد الرزاق بنواحي، مخطوط زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ ، ، كلية الآداب ، فاس ، 1997 ، ورقة 35 .

2- عبد العزيز فيلالي ، المظاهر الكبرى لعصر الولاية في بلاد المغرب و الأندلس ، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع ، 2008 ، ص 22 و ما بعدها .

3- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، دار الفرجاني ، ط1 ، 1994 ، ص 112 .

الإعجاب بالمدينة فجعلها قاعدة هامة في المغرب الأوسط¹ ، ضف إلى ذلك قبائل بني هلال و بني سليم التي جابت بلاد المغرب و قام يغمراسن بن زياد بجلبها إلى ضواحي تلمسان ، و سكنت بعض أحياء المدينة و سُميت هذه الأحياء " سقائف القبائل"² ، فكان على سبيل المثال لبني عامر حي بربض تلمسان و نزلت بعض منها بظهير المدينة لحمايتها و تحصينها .

¹ - لسان الدين بن الخطيب ، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفسنال ، دار المكشوف ، ط2 ، 1956 ، قسم 3 ، ص 192 .

² - ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة ج.س كولان ، إ.ل.في بروفسنال ، دار الثقافة للنشر ، ط3 ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص 30 .

- الأندلسيون :

وجدت الأندلس في بلاد المغرب الأمن و الأمان من الأزمات السياسية التي شهدتها ، فتوافدت العديد من الأسر الأندلسية و توزعوا على عدة مناطق من بلاد المغرب ، فاستقرّ البعض منهم بتلمسان في العهدين المرابطي و الموحدّي ما بين القرنين 11م و 13م / 5هـ و 7هـ ، طلباً للاستقرار والسكينة¹ ، و قد ظهرت بصمات الأندلسيين من فنّانين ومهندسين ظهوراً جلياً في الصناعة والعمران².

استعان أمراء بني زيّان بأعيان الأندلس و من لهم الخبرة في تسيير شؤون الدولة و مؤسساتها و في قيادة الجيوش³ ، كما أولى السلطان يغمراسن العناية لأهالي الأندلس فأعطاهم الحق في السكن و امتلاك الأراضي الزراعية ، حتى يشعروهم بالأمن و يعوّضهم عما افتقدوه في بلادهم و قام الأمير أبي العباس أحمد الزياني في (834هـ - 862هـ / 1431م - 1462م) باستقبال أكبر جالية أندلسية ووجههم حسب طبقاتهم و حرفهم ، فأنزل العلماء و الوجهاء عاصمة المدينة ، و وضع التجار و الحرفيين و أصحاب رؤوس الأموال في درب سميّ بدرب الأندلسيين⁴.

1- ناصح محمد ، جوانب من الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب في العصر الوسيط ، القرن 8 هـ / 12م ، أطروحة لنيل ش.د. ، كلية الآداب ، الرباط ، 1988 ، ق1 ، ص 148 .

2- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، تحقيق مصطفى الشيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة للنشر ، 1377م ، ص ، ص ، ص 308 ، 660 .

3- ابن مرزوق ، المرجع السابق ، ص ، ص 108 ، 110 .

4- ابن مريم ، البستان ، مرجع سابق ، ص ، ص 127 ، 176 .

جاء ذلك في زبدة التاريخ لابن الأعرج إذ قال : " و أظهروا من صنائعهم ومتاجرهم ، ما عاد بالنعف على البلاد و أهلها و ملئوا تلك الشعاب من البساتين المتنوعة الثمار و أنواع الرياحين و الأزهار ... و اتصلت مساكنهم بذلك الوادي إلى نهر السطفسيف ... " ¹ .

هكذا توزعت الجالية الأندلسية في المنطقة و تعددت مهنتهم و صناعاتهم ، فأقدم الفلاحون على تطوير الزراعة و تجديدها باستعمال أساليب زراعية متطورة خارج أسوار المدينة وفي ضواحيها ، وبالأخص على ضفتي وادي الوريث ، وَاختصَّ الفنانون المعماريون بفنِّ البناء و أضفوا ذلك الطابع الأندلسي البديع في تصميم البنايات والمساجد ، وآخرون أبدعوا في صناعة الجلود و نجارة الخشب وفنون الطرز و نسج الحرير ، و حياكة القطن والكتان و غزل الصوف .

كما قاموا بتطوير صناعة الخزف والفخار والأواني المنزلية وأشار إلى ذلك ابن الأعرج : " وكان لعهد نزول الأندلسيين بها (تلمسان) مزدانة بالمصانع المفيدة ، فما شئت من أطرزة ومنسوجات الحرير ، والقطن والكتان والصوف ، ومعامل الفخار و الخزف و أنواع السلاح ، و سائر الأواني المنزلية ... " ² .

و قد احتضنت عاصمة الدولة الزيانية بكلِّ صدرٍ رجبٍ من هاجر إليها من علماء و فقهاء و أدباء و أطباء ، فتقربوا من البلاط ، فكان على سبيل المثال الأديب أبو بكر بن خطّاب كاتب الدولة و شاعرها البليغ جعله أبي يحيى يغمراسن صاحب القلم الأعلى في البلاط ، كما كان لأسرة " بني ملاح " المكانة المرموقة

¹ - ابن الأعرج ، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ ، مرجع سابق ، ورقة 96 .

² - نفسه ، ص ، ص 96 ، 97 .

لاشتهارها بالعلم والأدب والفقہ ، التي احترفت سلك النقود وخطة الأشغال واختصت بالمناصب الإدارية السّامية¹.

وبهذا قد تركت الجالية الأندلسية بصماتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية في المجتمع التّلمساني ، وساهمت في تطويره ونموه في مختلف المجالات ، فغلب على المدينة ذلك الطابع الأندلسي في مجال العمران ، ناهيك عن الفنون و الصناعات المتنوعة .

¹ - ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، مرجع سابق ، ص 297 .

- الأغزاز :

استقبلت تلمسان بعض القبائل التركية ، كانت تسكن قبل انتشار الإسلام أواسط آسيا ، اعتنقت الإسلام في النصف الثاني من القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي ، كانت تمارس الرعي وتربية المواشي ، واشتهرت بالفروسية والرمي بالقوس¹.

عرفوا لدى المؤرخين المسلمين باسم " التركمان " ، حلت جالية الأغزاز بلاد المغرب على عدة مراحل في فترات متتالية ، و على طلائع متعاقبة ، التحق بعضهم بجيش يغمراسن ابتداءً من سنة 633 هـ / 1235 م² ، لكن وجدنا اختلافاً في انتماءاتهم العرقية ، فهناك من جعلهم أكراداً³ ، فكان للأكراد إلى جانب الأغزاز أشياع و حامية في تلمسان و اشتهر من بين الفرقة علي بن الحسن و ابنه موسى بن علي انتقلا وظائف سامية و توليا قيادة الجيوش ، كان ذلك في عهد أبو حمو موسى الأول و ابنه أبي تاشفين الأول⁴.

وأشارت النصوص إلى أن الأغزاز شكّلوا أقلية قليلة لهذا لم نعثر على مخلفاتهم الاجتماعية والثقافية .

¹ - ابن خلدون ، العبر ، المرجع السابق ، ص 231 .

² - عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، 1949 ، ص 289 .

³ - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، مرجع سابق ، ص 770 .

⁴ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، مصدر سابق ، ص ، ص 213 ، 219 .

- الأعلاج أو الصقالبة :

هم عناصر من جنسيات أوروبية مختلفة (ألمانيا ، إيطاليا ، فرنسا ، قطلونية ، وجليقية في شمال إسبانيا) جاءوا إلى بلاد المغرب عن طريق الشراء أو الغزوات أو الغارات للشواطئ الأوربية أو عن طريق الهدايا .¹

صار الأعلاج² عنصراً من عناصر المجتمع التلمساني في العهد الزياني بعدما خدموا البلاط فاشتهر بعضهم أمثال " هلال القطلاني " كان أقربهم إلى أبي تاشفين و بعد إخلاصه الكبير له قرّبه منه وقلّده الوزارة و صار له مال كبير وسفينة لنقل التجارة ونافس بعض معارضيه في البلاط الزياني³ ، كما اشتهر أيضا أعلاج آخرون أمثال القائد مسامح ، و فرج بن عبد الله ، وظافر مهدي وعلي بن تاكرارت وغيرهم .⁴

¹ - ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 236 .

² - اسم أطلقه المسلمون على الأرقاء و العبيد الذين يجلبون من الشعوب المسيحية ، أنظر

ابن العذاري ، البيان ، ج3 ، ص 162 .

³ - ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 125 .

⁴ - نفسه ، ص 216 .

- السود :

جلبوا من بلاد السودان بغرض الانتفاع من خدماتهم في القصور و الحقول والمنازل ، وكثر عددهم في عهد بني زيان ، فكانت هناك حاجة ماسّة إليهم لأنهم عرفوا بإخلاصهم للعمل و إتقانهم له ممّا جعل أثمانهم مرتفعة تراوحت ما بين 25 إلى 60 دينار¹ ، فنمت تجارة الرفيق السود واستمرّت عبر أجيال بين بلاد المغرب والسودان ، ما أدّى إلى وجود عدد كبير منهم في تلمسان ، فامتلك كل بيت أكثر من وصيفة أو وصيف².

- المسيحيون :

لم يبق من المسيحيين في بلاد المغرب إلا القليل إثر الفتح الإسلامي ، فأغلبهم انتقلوا إلى البلدان الأوربية ، فمنهم الجنود المسيحيون استأجروا في أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي بغرض الدفاع عن المملكة إلى جانب الجيش المحلي³.

كان هؤلاء الجنود يسكنون في حي خاص بهم في المدينة عُرف بحيّ النضاري⁴.

1- نجاة باشا ، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن 4 إلى 8 هـ ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1976 ، ص 68 .

2- نفسه ، ص 68 .

3- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 398 .

4- ابن عذاري المراكشي ، مرجع سابق ، ص 403 .

أمّا التجّار المسيحيون فاستقروا في مدينة تلمسان و ازداد عددهم في القرن السابع هجري ، الثالث عشر ميلادي و احتفظوا بمعتقداتهم الدينية وتمتعوا بالحرية في بناء كنائسهم ومعابدهم ، وكانت إقامتهم وتنقلهم في المدينة يخضع لمعاهدة بين دولهم وسلطان المغرب الأوسط ، أمّا الذين لا توجد اتفاقية بين دولهم وسلطان تلمسان فكانوا يدخلون تحت لواء دولة صديقة ، لم يكن عددهم بالكبير وإقامتهم في بلدان المغرب الأوسط لم تكن دائمة ، و لم يكن يُسمح لهم باصطحاب زوجاتهم معهم ولا يمكنهم الزواج من البنات المسلمات ، هذا ما جعل إقامتهم قصيرة في المدن الإسلامية .¹

أمّا الأسرى المسيحيون فعلى إثر الغزوات التي كان يقوم بها المسلمون في جزر البحر المتوسط والشواطئ الأوربية ، كانوا يعتقلون الأسرى على إثر وقوعهم في أيدي حراس الشواطئ .

كان عددهم كبير ، وكانوا أيضاً من التجار المدنيين ، استخدمهم بنو زيان في أغراض حرفية وصناعية كفنّ البناء وصناعة الأسلحة .²

وكانت عملية تسريح هؤلاء الأسرى عن طريق التفاوض بين الدولتين أو بتبادل الأسرى أو بالفدية .

1- روبار برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ، ج 1 ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي للنشر ، ط1 ، 1988 ، ص 60 .

2- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 216 .

ويُشارُ إلى أنّ عددهم ارتفع في بداية القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي بسبب الحروب والغازات بين شواطئ شمالية للبحر المتوسط والجنوبية له ، فعاصمة بني زيان كانت تتوفر على عدد كبير ، ويُذكر أنّ عدداً منهم اعتنق الإسلام وتقلّدوا بعض الوظائف السّامية في الدولة الزيانية ، وقد أخذت الأسيرات المسيحيات إلى القصر ليكن حريمًا للسُّلطان .¹

¹ - روبر بارنشفيك ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 480 .

- اليهود :

جاء اليهود إلى بلاد المغرب واستقروا بها منذ عهدٍ قديمٍ ، حضروا مع الفينيقيين عبر مراحل عديدة ، وجالية منهم قدموا عندما طردهم الرومان ، ولما فتح المسلمون بلاد المغرب وجدوهم آنذاك .

وعدّ اليهود في مدينة تلمسان قد تزايد في عهد الدولة الموحدية ، وتضاعف عددهم خلال سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1492م ، وكان من بينهم الأطباء والعلماء أمثال الطبيب العالم الرئيس " موشي بن صمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي " المعروف بـ " ابن الأشقر " الذي اشتهر كطبيب وأستاذ للطب بتلمسان ، و أخذ عنه الرحالة المصري عبد الباسط في هذا المجال¹.

وهاجر من اليهود إلى تلمسان بعض من الحرفيين والتجار ، فعملوا على تنمية الصناعة المحلية وتدعيمها ، وتنمية الحركة التجارية بها .

فعاشر اليهود في كنف المسلمين وتحت حمايتهم مقابل دفع الجزية المقررة من قبل الشرع الإسلامي ، كما كانوا يتمتعون بحرية أداء الشعائر الدينية ، فحظوا باستحسان سلاطين بني زيان وسمحوا لهم بالإقامة في عاصمتهم².

¹– Brunshing ® , deux recits de voyage inedits en afrique du nord au 15 siècle , abde bassit ben halil , p44 .

² – روبرار برنشفيك ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 433 .

هكذا نلاحظ تعدد العناصر الأساسية للمجتمع التلمساني بتعدد الهجرة الداخلية والخارجية الدائمة إلى المدينة قدست من أقطار وأقاليم عدة .

2- الفئات الاجتماعية في تلمسان :

إن واقع الحياة والظروف المعيشية والبيئية و سلوكات الفرد واجتهاداته في طلب المعاش يُحدث بالضرورة فئات اجتماعية متباينة في أي موطن من الأوطان ، والحال انطبق على المجتمع التلمساني ، فظهرت في المدينة فئات اجتماعية متميزة ومختلفة ومتعددة يمكن ذكر منها :

أ- الحكّام : وهي الفئة العليا في المجتمع تضم الأمراء والسلاطين من بني عبد الواد وأبناء عمومتهم ، والوزراء وكتّاب الدواوين والولاة ، وقادة الجيش¹ .
ويذكر أن هذه الفئة كانت تعيش عيشة مترفة ، يتلقون رواتب عالية من بيت المال ، وتُضاف بعض الشرائح الوظيفية إلى هذه الفئة ممن كان يستغلون مناصب حساسة كالقضاء والخطابة ، والجباية ، ورؤساء القبائل المتحالفين مع بني عبد الواد² .

وحضي هؤلاء إلى جانب رواتبهم العالية بامتلاكهم للعقارات السكنية في المدينة وأراضي زراعية ، كان يقدمها السلطان لهم .

¹ - ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 182 .

² - نفسه ، ج6 ، ص 96 .

ب- فئة الموظفين والمهندسين وأهل العلم والأدب والفكر : تشمل هذه الفئة الموظفين والمهندسين وأهل العلم والفكر والأدب من كتاب وشعراء و فقهاء وأساتذة والأطباء الذين حضوا بمكانة مرموقة لدى دولة بني زيان ، ويدخل في هذا الصنف الطلبة الذين استطاعوا أن يحتلوا مكانة مرموقة بين أهل العلم و الأدب .¹

ج- فئة التجار : هم أرباب الحرف وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة والقوافل التجارية ، ذلك أن تجهيز القوافل التي يتجاوز عدد دوابها مائتي دابة ، يقتضي وجود شركة كبيرة يملكها الشخص الذي يتخذ أعوان ووكلاء² ، نذكر على سبيل المثال عائلة المقرّي الجارية التي احتكرت طريق السودان ، كونت ثروة هائلة والمتكوّنة من خمسة إخوة تقاسموا العمل والأدوار ، وهذا ما ذكره الحفيد " المقرّي " صاحب كتاب " نفح الطيب " بقوله : " ثم اشتهرت ذريتهم (أي المقرّي) على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدّوا الطريق إلى الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجارة ، وأخذوا طبلا للرحل وراية تقدم عند السير ، وكان أولاد يحيى الذين أعدهم أبوبكر خمسة رجال فقصدوا بينهم في جميع ما ملكوا أو يملكونه على السواء ... " .³

1- ناصح محمد ، المرجع السابق ، ص 148 .

2- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، تحقيق محمد حجي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ودار المغرب الإسلامي للنشر ، المجلد 06 ، الرباط ، 1401هـ - 1981م ، ص 186 .

3- أحمد بن محمد التلمساني المقرّي ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، مرجع سابق ، ج7 ، 1968 .

كما اشتهرت عائلة النجار التلمسانية بالثروة الهائلة على رأسهم الشيخ الصالح الأمين أبو زيد عبد الرحمان بن النجار ، الذي كان يملك معامل لحياكة الصوف الرفيع ، فكانت له دورٌ ومنازل له ولِعَمَّاله بدرب شاكر ، ودربٌ خاص له ولأبنائه¹ ، وكانت عائلة المرازقة التلمسانية المشهورة هي كذلك تشتغل بالعلم والتجارة والفلاحة ، وعائلة العقياي تحترف العلم والوظيفة والتجارة وغيرهم².

أما فئة التجار الصغار : كان عددهم كبير في المدينة يتاجرون في الأسواق والدكاكين وينتقلون حتى إلى بعض المدن المجاورة والأسواق الأسبوعية والموسمية في البوادي والقرى³.

مثَّلت التجارة المقام الأول في المدينة تلمسان وتوسَّع نطاقها لتمتدَّ نحو الشرق بوادي الصومام و إلى واد ملوية غرباً ، وامتدَّ تأثيرها جنوباً إلى الصحراء والهضاب العليا ، وامتدَّ نطاق التبادل التجاري إلى عناصر أوربية خلال القرن 7هـ / 13م⁴.

أدى النمو التجاري الذي شهدته تلمسان في العهد الزياني إلى تشجيع العديد من العلماء و الفقهاء والطلبة لاحتراف التجارة فضلاً عن نشاطهم العلمي والفكري في محلاتهم بأسواق المدينة و لاسيما القيصارية⁵.

¹ - ابن مرزوق ، المجموع ، ورقة 14 .

² - نفسه ، ورقة 32 .

³ - ناصح محمد ، المرجع السابق ، ص 209 .

⁴ - Richard (i) Lawless , Tlemcen capitale du maghreb central , p57 .

⁵ - ابن مرزوق ، المجموع ، ورقة 39 .

فنذكر " بني مرزوق " الذين احترفوا العلم و النجارة في دكاكينهم بالقيصرية
 ودرّب مرسى الطلبة ، وفلاحة الأرض بالعباد ، وكان لهم منازل ودورٌ وخدمٌ¹.

كما احترّف بعض الفقهاء الحراثة وتربية المواشي وخياطة الملابس ونسخ
 المصاحف والكتب وبيعها في الأسواق².

تميّزت تجّار تلمسان بالمصداقية والنزاهة والإخلاص وحسن المعاملة مع
 الناس ، وهذا ما أشار إليه حسن الوزان : " فالتجّار أناسٌ مُنصفون ، مخلصون
 جدا ، أمناء في تجارتهم ، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزوّدة بالمؤن على
 أحسن وجه ، أهم أسفارهم التجارية ، وهو الذي يقومون به إلى بلاد السودان ،
 وهم وافروا الغنى أملاكاً ونفوداً " ³.

د- فئة الصّناع وأصحاب الحرف :

اختلفت الحرف وتنوّعت في مدينة تلمسان ، تميّز الحرفيون بالمهارة وإتقان
 صناعتهم ، فقُسمت الأسواق آنذاك إلى طوائف ، فنجد العطارين السراحين ،
 النجارين ، الحدادين ، الدرّازين ، الدبّاغين ، الصباغين ، فوّزعت هذه الصناعات
 على ساحات و أزقة المدينة⁴.

¹ - ابن مرزوق ، المجموع ، مرجع سابق ، ورقة 32 .

² - نفسه ، ورقة 12 .

³ - حسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا ، مرجع سابق ، ج 1 ، ص 21 .

⁴ - نفسه ، ص 19 .

أما أعمال البناء التي تحتاج إلى عدد كبير من العمال فقد استعان سلاطين بني زيان بالمهندسين و البنائين و الفنيين الأندلسيين ، وبالأسرى النصارى في مجال البناء وإنجاز المشاريع العمرانية والصناعات الحربية.¹

بهذا شهدت تلمسان تنوعاً في المواد المصنوعة من ألبسة وأغطية وأقمشة ، والحائك والبرنوس المشهور ، والمطلوب من جميع الأقطار المغربية ، والزرابي والأفرشة والسلال ، والحقائب والأحذية ونسج الحلفاء ، كما اشتهرت تلمسان بحرفة الصباغة التي تعتمد على صبغ الخيوط بألوان مختلفة ، وصبغ الجلود ، وُجِدَت ورشات صناعية بضواحي سهل الوريث أسّسها المهاجرون الأندلسيون ، فنقلوا إليها صناعة الأطرزة والمنسوجات الحريرية و القطنية والكتان والصوف ، وسائر الأواني المنزلية ومعامل الفخار والخزف والأسلحة² ، واختص اليهود بصناعة المجوهرات والذهب والمرجان .

عاش هؤلاء حياة راقية تتسم بالرفاهية بسبب الأرباح العالية .

هـ- العبيد والخدم :

كان العبيد والخدم يعملون في البيوت و الحقول والمتاجر و لاسيما عند الفئات الغنية ، فامتلك تقريباً كل بيت تلمسان خادماً ووصيفة خماسية ، وأكثر عند العائلات ذات الأموال والجاه³ ، وكانوا يرافقون أسيادهم في ترحالهم لخدمتهم ،

¹ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 216 .

² - ابن الأعرج ، زبدة التاريخ ، ورقة 97 .

³ - ابن مرزوق ، المجموع ، مرجع سابق ، ورقة 11 .

وكانت الجوّاري توريث وتُباع مع التراكات و الممتلكات ، كما كانت تُهدى مثل الحشبية التي أهداها السلطان أبو الحسن لأبي عبد الله محمد الخطيب ابن مرزوق ، وكانت هذه الجارية قد ترعرعت في بيت عبد الرحمان بن خلدون ، ترافق زوجة سيدها إلى السوق وتعتني بالأولاد¹ ، فكان لهم الدور البالغ في تقديم الخدمة لأسيادهم وإعانتهم .

هذا وقد وُجد في المجتمع التلمساني على غرار باقي المجتمعات فئة الفقراء والمساكين والبطالين والمتسولين² ، إلى جانب الغرباء القادمين من مصر وإقريقيا والأندلس والسودان ، كان معظم محتالين يعتمدون السرقة وأخذ أموال الناس³.

3- الحياة العامة للمجتمع التلمساني :

اكتسب المجتمع التلمساني مجموعة من العادات والمبادئ والقيم ولعلّ اختلاف العناصر الاجتماعية وتعددها وتباين الفئات الاجتماعية ترك الأثر البالغ في هذه العادات والمكتسبات ، ضف إلى ذلك مبادئ الإسلام والقيم الدينية التي لطالما ضبطت سلوكياتهم ووجهت حياتهم . ونشير إلى أنّ أهم ما ميز أهالي المنطقة اهتمامهم بمظهر الملابس والمأكل والتأنق فيهما ، فكانوا يفضلون لبس أحسن الثياب ، فالفقهاء ورجال الدين كانوا يرتدون الملائم والأحارم التونسية المستوردة⁴ ، كما يلبس الأعيان والأغنياء ألبسة من القطن والحريير والكتان

¹ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، مرجع سابق ، ج 1 ، ص 108 .

² - ابن خلدون ، المقدمة ، ص ، ص 663 ، 664 .

³ - ابن مرزوق ، المجموع ، مرجع سابق ، ورقة 46 .

⁴ - نفسه ، ورقة 6 .

والصوف الرفيع ، وكانوا يلبسون أثواباً مستوردةً من الأندلس وإفريقيا¹ . ويلبسُ أهل تلمسان النعلَ والقباب² والشاشية الأندلسية ، والمتصوف الأندلسي
يلبس الخرقَة وجبة الصوف ، كما عُرف بالمنطقة ما يسمّى بلباس القبطية وهي ثوب أبيض مصنوع من كتّان ناعم ، والشقة هي ثوب رفيع ومستطيل ، والسرّوال والبرنوس³ .

وكذا المرأة التلمسانية نجدها شديدة الاهتمام بجمالها وأناقته ، كانت ترتدي في العهد الزياني أنواعاً من الألبسة مختلفة الألوان من حياكة المرأة التلمسانية أو مستوردة من بعض البلدان الإسلامية ، كما كانت ترتدي أنواع الحليّ والقلائد والأساور والخلاخل والأقراط⁴ .

هذا وقد اتخذت مختلف أدوات الزينة ، فاستعملت الحناء المنقوشة ، والسواك والكحل والوشم ، وتتعطرّ بالعنبر وماء الورد⁵ .

ومن دون شكّ أنّ الإسلام كان له موقفٌ من أخلاق أهالي المنطقة ، فتمتثلوا له وجسدوا بعض السلوكات التي نادى بها ، فأقبلوا وأسّسوا عليها نمطية حياتهم

¹ - مارمول كريخال ، إفريقيا ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 300 .

² - كان ينتعله الأعيان عندما تكون الأزقة موحلة ، و هي من الطراز الجيد مصفحة بالحديد و مغطاة بالجلد المطرّز بالحديد ، غالية الثمن لا يستطيع الفقراء اقتناءها ، و تصنع من الخشب الأسود و الأبيض كات يلبسه التجار الأندلسيون ، أنظر المجموع ، ورقة 18 .

³ - ابن مرزوق ، المسند الصحيح ، مرجع سابق ، ص 452 .

⁴ - حسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا ، مصدر سابق ، ج 1 ، ص 52 .

⁵ - نفسه ، ص 52 .

الواقعية ، وهذا عندما حافظوا على القيم الاجتماعية والدينية وعلى ظروفهم وعاداتهم العامّة ، كاستمرارهم في الاحتفال بمعظم الأعياد الدينية ، فاعتادوا على سبيل المثال في عيد الفطر على القيام بمجموعة من السلوكات بزيارة المقابر وأضرحة الأولياء الصالحين ، فكانت تُؤدّى صلاة العيد في الملعب الواقع آنذاك خارج أسوار المدينة أمام باب القرماديين ، يتقدّمهم السلطان الزياني ويحضر الحراس والجيش بزيّهم الموحد والمميّز¹.

اختصّت المنطقة بظاهرة أخرى وهي الاحتفال بموكب الحجّ ، فكان السلاطين الزيانيون و المرينيون يعيّنون كل سنة ركبا يتوجّه إلى الحجاز برئاسة أحد الشيوخ المعروف بالتدين والحكمة ، وجرت العادة على إرسال مصاحف منسوخة بتلمسان سواء بخطّ بعض السلاطين أو الأمراء ، و كانوا يرسلون أيضا ما يُسمّى بالمحمل الذي هو عبارة عن هدايا وكسوة مخصّصة لتغطية الكعبة الشريفة² ، ويُشار إلى أنّ التحضير إلى زيارة بيت الله يتمّ في شهر ربيع الأول بمناداة الناس ، وينطلق الحجاج في موكب رسمي على الجمال والخيل والدواب ، فيخرج الأهل وسكّان المنطقة في جوّ من الابتهاج والفرحة لتوديع الموكب .

1- أحمد سعيد المجليدي ، التسيير في أحكام التسعير ، تحقيق موسى لقبال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970 ، ص 64 .

2- عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية للنشر ، ط1 ، 1973 ، ص 221 .

كما كان المسلمون في تلمسان كغيرهم يحتفلون بعيد الأضحى ، فيتوجهون في الصباح إلى المصلّى لأداء صلاة العيد ، ثم يقوم السلطان بذبح أضحية بيده مُعلنًا ببدء النحر ، ويخرجُ الناس لمشاهدة موكبه .

أما الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فقد اكتسى طابعاً خاصاً في المدينة ، وفي عهد أبي حمّو موسى الثاني تميّز الاحتفال به بإيقاد الشموع وتوزيع ماء الزهر والورد ، وتوزّع فيه بعد الصلاة الهدايا المتنوّعة وتُؤدّى الديون عن المسجونين والأموات.¹

والاحتفالُ بالزّواج اختصّ بمجموعة من العاداتِ التي ألفتها المجتمع التلمساني ، وكان يُبالغُ فيه أحياناً في عصرِ بني زيان .

و ممّا تجدر بنا الإشارة إليه تمسك التلمسانيون بالموروث و الثقافي بشدة ، خاصة في العهد الزياني ، في مجالات عديدة سواء الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية ، كتشبيّتهم بالنمط الأندلسي الإسلامي المغربي في مجال البناء والعمران ، و نلمس ذلك في الزوايا و المساجد و المآذن التي ظلت تحافظ على أشكالها الهندسية و زخرفتها الخاصة التي تعكس هويتها الأصيلة ، و كذا الحال فيما يخص العادات و التقاليد ، فظل أهالي تلمسان متعلقين بها و محافظين

1- ابن الحاج النميري ، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، تحقيق محمد شقرون ، دار الغرب الإسلامي للنشر ، الرباط ، ط1 ، 1990 ، ص 86 .

عليها ، فلم تتمكّن الثقافات الوافدة التأثير فيها سواء الاحتفالات بالمواسط والأعراس ، و الغناء و اللباس و الأطباق ...¹

فبالغ التلمسانيون في الاحتفال بهذه المواسم و الأعياد الدينية ، كلية المولد النبوي الشريف ، و ختم القرآن ، و حضور المواكب الرسمية والزواج والختان ...

¹ - محمد العربي حرز الله ، تلمسان مهد حضارة و واحة ثقافة ، ط 1 ، 2011 ، ص ، ص 218 ، 220 .

أولاً : ازدهار الشعر و تطوره في المنطقة :

قبل حديثنا عن الشعر و تطوره في المنطقة في هذه الفترة ، من المهم أن نشير إلى الحركة الفكرية و العلمية و الأدبية بصفة عامة ، فعرفت هذه المرحلة تطوراً و ازدهاراً ثقافياً ، و نهضة أدبية كبيرة¹ .

أطلق الباحثون عليها عدة أسماء ، فهناك من نعتها بعصر الازدهار الثقافي وهناك من سماها فترة النشاط العلمي ، أو الحركة الفكرية ، النبوغ الأدبي كلها مسميات تعكس فعالية الإنتاج الفكري ، و الأدبي ، و العلمي ، و حتى الفقهي ، ويعني هذا أن هذا الازدهار الثقافي قد مسّ و تضمّن جميع فروع العلم و المعرفة وأشكال النشاط الفكري² ، و لعلّ سبب هذا التطور يعود بالدرجة الأولى إلى عناية بني زيان بالثقافة و العلم و تميزهم بتلك النزعة العلمية الثقافية ، فكان لاهتمام سلاطين و أمراء بني زيان بالعلم و الثقافة دور بالغ في نمو الحركة الفكرية وقاموا على إثر ذلك بتشجيع العلماء و الفقهاء و الأدباء و رعاية مختلف الفنون والآداب و العلوم الشرعية و الفقهية بالأخص³ .

و رغم الفتن و الاضطرابات التي مسّت المغرب الأوسط كما أشرنا سابقا ، إلا أن الحالة الثقافية والعلمية ظلّت قائمة ، لأنّ بني زيان قد أولوها العناية الفائقة ونهضوا بها نهضة قوية .

¹ - محمد بن عمرو الطمار ، مرجع سابق ، ص 221.

² - عبد العزيز فيلاي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج 2 ، 2015 ، ص ص ، 3 ، 7 .

³ - ابن الأعرج ، زبدة التاريخ ، ج 3 ، ورقة 100 .

هذا و دون أن ننسى ذكر سبب آخر أسهم في البزوغ العلمي و الأدبي وهو هجرة المسلمين من الأندلس بعد استيلاء الإسبان على غرناطة ، فدخل العديد منهم الجزائر و استوطن عددٌ وافرٌ منهم تلمسان ، التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس من قبل ، و بالطبع قد حملوا معهم علومهم فنونهم وآدابهم وعاداتهم ... وهذا ما أشار إليه الدكتور محمد عمرو الطمار قائلا : " قد نظموا (يقصد المسلمون الأندلسيون) حلقات تعليم بالمدارس و المساجد و خاصة بالمسجد الجامع ، و كان المسجد قبل هذه الآونة ، زيادة على وظيفته الدينية مركزا من مراكز الثقافة العربية و الإسلامية منذ عهد المرابطين كمساجد حوائر البلاد ، ولكن إثر نزوح الأندلسيين إلى تلمسان أصبح معهداً للتدريس لا يقل أهمية عن جامعي الزيتونة و القرويين ، فبرز عدد وافر من العلماء في الأصول و التفسير والتوحيد و العلوم اللسانية و الرياضية ... " ¹.

و نذكر على سبيل المثال و ليس الحصر محمد بن أحمد بن أبي يحيى " التلمساني الشهير في الفلك الذي أخذ عنه " محمد بن يوسف السنوسي " المتوفي سنة 1464م ، و " أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مخلوف الراشدي " الفقيه الحافظ المحدث الطرابلسي الأصل التلمساني المنشأ ، أخذ العلم عن مشايخها ، توفي سنة 868هـ / 1464م ، دون أن ننسى الفقيه المالكي المفسر الصوفي " ابن زاغو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن " المغراوي التلمساني توفي سنة 845هـ ، و الأديب الفقيه " محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني " ولد ونشأ بتلمسان تولّى القضاء و من مصنفاته : " تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ

¹ - محمد بن عمرو الطمار ، مرجع سابق ، ص 221 .

الشعائر و تغيير المناكر " ، و نذكر أيضاً الحافظ العالم الأديب الكبير " محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي " ، له مؤلفات منها الطراز في الضبط و نظم الدرّ و العقيان في دولة آل زيان ، توفي سنة 900هـ / 1494م ، و أيضاً علامة تلمسان المفتي الفقيه ، البياني " أحمد بن محمد بن زكري المانوي ، أخذ العلم عن " ابن مرزوق و قاسم العقباني و ابن زاغر " ، توفي سنة 899هـ / 1493م ، مخلفاً " بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب " ، و منظومة في علم الكلام أسماها : " محصل المقاصد ممّا به تعتبر العقائد " ¹.

توالت المحن على المنطقة و وقعت تحت سيطرة الأتراك بعد سيطرة الإسبان عليها ، و عاش المجتمع من مرارة الاضطهاد و التعنيف ، رغم ذلك بقيت تلمسان محتفظة بما ورثته من تراث فكري .

واستمرت رعايتهم للعلم و الأدب و أتاحوا الفرصة للإقبال على دراسة مختلف العلوم ، حتى صارت تلمسان من المراكز التي تستقطب الطلاب و أهل العلم ، فأقبلوا ينهلون من ثقافتهم و يستفيدون من علمائها ، و كان السلطان يغمراسن أول من شجّع الحركة الفكرية و التعليمية بتلمسان و رغب رجال العلم في القدوم إلى عاصمته للتدريس و التأليف .

و كذا السلطان " أبو حمّو موسى الأول " الذي جعل من تلمسان منارة للعلم يقصدها العلماء و أهل الفكر ، منهم الفقيهين ابني الإمام أبي زيد و أبي موسى

¹ - أنظر محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، ص ص ، 223 ، 226 .

فكان يجلس معهما كثيراً و يستمع إلى نصائحهما وعلمهما¹ ، أما السلطان أبو حمو موسى الثاني فقد اهتم بالعلوم و الأدب اهتماما كبيرا ، لأنه كان يمتاز بإمامه الشاسع بمختلف العلوم و الفنون لا سيما الأدب و الشعر² ، و هو الذي وصفه الإمام أحمد المقرئ : " يقرض الشعر و يحب أهله " ³ .

ومن هنا يمكن القول أن الشعر هو كذلك أخذ نصيباً وافراً من الازدهار والتطور لنفس السبب السابق ذكره ، وهو نمو الحركة الأدبية والفكرية التي شهدها العصر الزياني و مابعد ، فإذا رجعنا إلى السلاطين المرينيين وبني زيان ، نجد منهم من كان يقرض الشعر أمثال السلطان أبو الحسن (هو أبو الحسن علي بن عثمان المريني الذي تغلب على المغرب الأوسط وعلى بني عبد الواد حيث حاصر عاصمتهم تلمسان سنة 737هـ ، وتأكد للجميع حينئذ أن مملكته بني عبد الواد أقلّ نجمها ، توفي سنة 752هـ بعد الانتصارات والهزائم التي تلقاها⁴ . و أبو العباس بن أبي سالم " والده السلطان المريني أبا سالم إبراهيم بن علي بن أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف بن عبد الحق المتوفي سنة 762هـ⁵ .

¹ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 130 .

² - التنسي ، نظم الدر ، ص 161 .

³ - المقرئ ، أزهار الرياض ، ج 1 ، ص 249 .

⁴ - أنظر عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته و آثاره ، ص ص 20 ، 28 .

⁵ - أنظر لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج 1 ، تحقيق بوزياني الدراجي ، دار الأمل للدراسات ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 ، ص ص 303 ، 310 .

أما السلطان أبو حمو موسى الثاني فكان شاعراً ممتازاً له كتاب " بواسطة السلوك في سياسة الملوك " ، جمع فيه الكثير من أخبار الملوك و سيرهم و ثبت فيه الكثير من شعره¹ ، عُرِفَ عنه أنه كان له الفضل في سنّ عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، فقال عنه ابن الأحمر : " تمسكّ بالعلم في سماء المعالي و برع في نظم القريض و جمع نور الأريض و جاز في الشرف بذلك ما أنسى به شرف كلّ مالك به "² . و ممّا قاله في مطلع قصيدته المولدية الحائية :

مُشَوِّقٌ تزيّاً بالغرامِ وشاحاً متى ما جرى ذكرُ الأحبةِ صاحبا
تعذبه أشجانُه و هو صابر و يبيدي اشتياقا زفرة و نواحاً³

فكان الشعراء التلمسانيون في العهد الزياني ينظمون القصائد المولدية في مدح الرسول صلى الله عليه و سلّم ، و اهتمّ كذلك بعض الشعراء بمدح سلاطينهم و ذكر فضلهم على أممهم و شعوبهم ، كمدح الشاعر محمد بن صالح شقرون للسلطان أبو حمو موسى الثاني :

وَفَضْلُ مُوسَى عَلَى كُلِّ يَسُوؤِهِ فَقَدْ أَتَى مِنْ بَنِي زِيَانِ مَنْعُوتَا
بِهِ اسْتِقَامَ أَسَاسُ الْمَلِكِ دُونَ مَرَا وَمَنْ بِهِ الْمَلِكُ يَسْمُو رَاحَ كَبْرِيْتَا⁴

¹ - الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج3 ، ص ، ص 286 ، 292 .

² - توات الطاهر بن خميس شاعر تلمسان الأكبر ، دار الأوطان للطباعة و النشر ، الجزائر ، ط1 ، 2011 ، ص 86 .

³ - يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج2 ، ص 97 .

⁴ - محمد بن عمرو الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ص 224 .

هذا و لا يمكننا الحديث عن الشعر في هذه المنطقة دون ذكر أهمية موقع المدينة بين البساتين و طبيعتها الساحرة الخلابة التي أحدثت ذلك الأثر العميق في إحساس الشعراء ، فشدوا قرائحهم و أنتجوا شعراً فنياً فائق الروعة في وصف لعناصر طبيعية باهرة .

فكانت تلمسان جميلة و تضاعف جمالها بعد زيادة المنشآت و هذا ما أدلى به يحيى بن خلدون في بغية الرواد بقوله : " وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة و الصروح الشاهقة و البساتين الرائقة ، مما زخرت عروشه و نمقت فروسه و نوسبت أمواله و عروضه ، فأزرى بالخورنق و أخجل الرصافة و عبث بالسدير و تنصب إليها من على أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي المذانب و الأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد و المدارس و السقايات بالقصور ، وعليه الدور و الحمامات ..."¹ .

وصف جمال تلمسان " محمد بن يوسف الثغري "² :

جَدُّوا أُنْسَنَا بِبَابِ الْجِيَادِ	أَيُّهَا الْحَافِظُونَ عَهْدَ الْوَدَادِ
كَلَّالَ تَظْمَنَ فِي الْأَجْيَادِ	وَصَلُّوْهَا أَصَائِلَ بِلْيَالِ
بَيْنَ تَلْكَ الرِّبَا وَ تَلْكَ الْوَهَادِ	فِي رِيَاضِ مَنْضَدَاتِ الْمَحَانِي
بَادِيَاتِ السَّنَى كَشْهَبِ بَوَادِ	وَ بَرُوحِ مَشِيدَاتِ الْمُبَانِي

¹ - محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، ص 163 .

² - نفسه ، ص 163 .

رَقَّ فِيهَا النَّسِيبُ مِثْلَ نَسِيبِي وَصَفَا النُّهْرُ مِثْلَ صَفْوِ وَادِي
وَزَهَا الزَّهْرُ وَ الْغُصُونُ تَنْتَّتْ وَتَغَنَّتْ عَلَيْهِ رُقٌّ شَوَادٍ¹

و في وصفها أيضاً ما قاله أبو عبد الله محمد بن خميس :

تلمسانُ جادتكَ السخابُ الدوالخ وأرسلت بواديك الرياح اللواقح
وسح على ساحات باب جياها ملت بصافي تردّها ويصافح
لساقية الرومي عندي مزية وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح
فكم لي عليها من غدو وروحة تساعدني فيها المنى و المناجح²

توالت المحن على المنطقة ووقعت تحت سيطرة الأتراك بعد سيطرة الإسبان عليها ، وعاش المجتمع من مرارة الاضطهاد و التعنيف ، رغم ذلك بقيت تلمسان محتفظة بما ورثته من تراثٍ فكري . و رغم أن الشعر لم يبق على ما كان عليه من الجودة في عصر أبي حمّو موسى الثاني للظروف الخاصة التي عرفتها البلاد إلا أننا نجد أشعارا مملوءة بالحيوية متأثرة إلى حدّ كبير بالشعر الأندلسي ، كيف لا و قد استقطبت المنطقة آنذاك موجاتٍ من اللاجئين الأندلسيين الذين كانوا مولعين بفنّ الموشحات فانتشر بتلمسان هذا النوع من الشعر ، و شارك فيه شعراء

¹ - الشاعر أبو عبد الله المكنى بالثغري نسبة إلى ثغر ، الإمام العلامة الأديب الكاتب ، أندلسي الأصل ، تلمساني المولد و النشأة ، أخذ عن الإمام الشريف التلمساني و غيره من أشهر شعراء تلمسان ، أنظر التيجاني بن عيسى ، معجم أعلام تلمسان ، ص 376 .

² - أحمد بن محمد التلمساني المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، ج 5 ، ص ، ص 360 ، 378 .

كثيرون، و ما لمسناه ممّا قرأنا من شعرٍ ، أن معظم الشعراء التلمسانيين تأثروا بالشعر الأندلسي الخاص بوصف عناصر الطبيعة ، و نحن نعلم أن أهم ما ميّز الشعر الأندلسي ذلك الفنّ الأصيل الذي وُلِدَ في أحضان الطبيعة الأندلسية ، و كان تعبيراً حقيقياً عن شخصية الأندلس الفنية و استقلالها الأدبي و هذا ما رآه بعض الباحثين في أنّ الموشحات نشأت استجابة لحاجة فنيةٍ أوّلاً ، و نتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً¹ . فبعد أن شاعت الموسيقى آنذاك لم يفِ الشعرُ بأوزانه التقليدية بالعرض المنشود ، فظهرت الموشحات تحت تأثير هذه الموجة العنيفة من الغناء والموسيقى والجوقات بتأثيرات مختلفة من البيئة المحلية² .

و لما وهبَ الله عزّ وجلّ الأندلس طبيعة فانتة ، فكانت أوفر الأماكن جمالاً أغناها منظرًا ارتفعت فيها الجبال الخضراء و امتدّت فيها السهول الواسعة و جرت فيها الأنهار والجداول و غرّدت على أفنان أشجارها الأطيّارُ و العنادلُ ، و عطرّ النسيمُ جوّها المعتدل و بساتينها المشرقة ، كان لا بدّ من وجودٍ من يدلي بهذا الجمال ففاضت قرائحُ الشعراء وصفًا مثاليًا لدرجة تمثيلها بجنة الخلد ، في قول ابن خفاجة :

يا أهل الأندلس لله درُّكم ماء وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنة الخلدِ إلّا في دياركم ولو تخيرتُ هاذي كنتُ أختارُ

¹ - فوزي عيسى ، الأدب الأندلسي ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، 2015 ، ص 245 .

² - شوقي ضيف ، الفن و مذهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، ط7 ، ص 451 .

ثانيا : الشعر الشعبي و أعلامه بتلمسان :

أ- مفهوم الشعر الشعبي :

أخذ المفهوم الدقيق للشعر الشعبي حيزا كبيرا من النقاش من قبل الباحثين فلم يتوصلوا إلى جواب موحد للظاهرة ، سواء من حيث تعريفه أو من حيث تسميته وإن كان موضوع بحثنا لا يتمحور حول هذا ، إلا أننا سنحاول إعطاء لمحة عامة و نقف بالأخص عند ما يخدم بحثنا و يقربنا من إشكاليته .

ففيما يتعلّق بتسميات هذا الشعر لكلّ رأيه الخاص ، فنجد مصطلح الملحون الذي رآه البعض الأنسب لأنه عام و شامل من الشعبي على رأسهم محمد المرزوقي الذي أظهر أنه يشمل كل شعر منظوم بالعامية معروف المؤلف كان أو مجهول ، مروياً من الكتب أو مشافهة¹ ، فنجد تعريف قد جمع هذه الأفكار للدكتور حسين نصار عندما قال : « هو الشعر المجهول المؤلف ، العامي اللغة ، المتوارث جيلاً بعد جيل بالرواية الشفوية »² .

وآخرون رأوا غير هذا فنظروا إليه من حيث اللغة و اعتبروه ذلك الشعر الذي غلبت عليه اللهجات المحلية البعيدة عن قواعد الإعراب التي تخصّ اللغة العربية الفصحى³ ، و بالتالي لم يروا فرقا بين مصطلحي الشعر الشعبي والشعر

1- عبد الحق زريوح ، دراسات في الشعر الملحون الجزائري ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ص 31 .

2- حسين نصار ، الشعر الشعبي العربي ، منشورات اقرأ ، ط2 ، 1980 ، ص 11 .

3- عبد الحق زريوح ، مرجع سابق ، ص 32 .

الملحون ، ومع هذا يبقى هذا الطرح غير دقيق ، ذلك أنّ الدكتور مرسى الصباغ يرى أنّ لغة الشعر العربي هي نفسها لغة الشعر الشعبي الحقيقية ، و يؤكد ذلك بقوله : « ... ويخطئ من ينظر للشعر الشعبي على أنه هو الذي يُقال باللهجات الدارجة ، فدارس الشعر الشعبي على أسس سليمة سيجد أنّ لغته أقرب إلى الفصحى منه إلى العامية ، و أنّ استغلاله لللهجات الدارجة إنّما بغرض التبسيط والتقريب إلى جموع الشعب ...»¹ .

وهناك من أسموه بالشعر العامي ، غير أنّ هذا الافتراض قد يوحي بأنّ قائلة أمي ليست له علاقة بالقراءة والكتابة ، وهذا ما رفضه عبد الله الركيبي² إذ يقول : « ... فالقائل قد يكون أمياً وقد يكون متعلماً ذلك أنّ بعض القصائد بالرغم من أنها لا تراعي القواعد اللغوية ، فهي في روحها فصيحة ، لأنّ ألفاظها وعباراتها ممّا يدخل في تركيب الفصحى لا في تركيب العامية أو نسيجها »³ .

وفريق آخر أطلقوا عليه تسمية "الزجل" ، وعمّموه على كل أنواع الشعر الشعبي المغربي ودافعهم الأوّل توحيد المصطلح في الأقطار لكنّ البعض رأوه بعيداً نوعاً ما عن الصواب ، ذلك أنّ الشعر الملحون الذي يخص إقليمياً بمجموعة من الخصائص ، من الممكن أن تخالفها مجموعة أخرى في إقليم آخر⁴ .

1- موسى الصباغ ، قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ص 18 .

2- عبد الله الركيبي ، الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1 ، 1981 ، ص ، ص 363 ، 364 .

3- نفسه ، ص 364 .

4- عبد الحق زريوح ، دراسات في الشعر الملحون الجزائري ، مرجع سابق ، ص 39 .

وعموماً نقول إنّ جميع هذه الدراسات المشار إليها قد أدرجها أحمد رشدي صالح في قوله : « الأدب الشعبي لأية أمة هو أدب عاميتها التقليدي ، الشفاهي ، مجهول المؤلف المتوارث جيلاً عن جيل ... ، وأما أصحاب النظرة الثانية ، فيعتمدون وسيلة أداء التجربة الفنية (اللغة) مزاناً للحدّ ... فيرون أنّ الأدب الشعبي هو أدب العامية ، سواء كان شفاهياً أو مكتوباً أو مطبوعاً ، سواء كان مجهول المؤلف أو معروفه ، متوارثاً عن السلف السابق أو أنشأه معاصرون ومعلومون لنا . و الرأي الثالث يعتمد محتوى الأدب لا شكله أي موضوع التجربة الفنيّة فيه لا اللغة التي يستخدمها أصحابه ، فهو عند أصحاب هذا الرأي ذلك الأدب المعبر عن ذاتية الشعب ، المستهدف تقدّمه الحضاري ، الراسم لمصالحه يستوي فيه أدب الفصحى وأدب العامية ، وأدب الرواية الشفاهية وأدب المطبعة ، والأثر المجهول المؤلف ، والأثر المعروف المؤلف »¹ .

ومن خلال ما سبق يمكن القول أنّ الأدب الشعبي عامة والشعر الشعبي على وجه الخصوص يستند على مقاييس أساسية أولها التداول الشفوي بين الناس والانتشار ، وثانيها اكتساف صفة الشعبية التي حددها محمود ذهني بمعلمين أساسيين هما : الانتشار والتداول ، والتراثية و الخلود² . ثالثهما اللغة و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ لغة هذا الفن ليست هي الفصحى أو العامية بل هي جمع

1- أحمد رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، مكتبة النهضة المصرية ، د.ط ، القاهرة ، 1971 ، ص ، ص ، ص 14 ، 15 .

2- محمود ذهني ، الأدب الشعبي العربي ، مفهومه ومضمونه ، مطبوعات جامعة القاهرة ، الخرطوم ، 1393هـ - 1972م ، ص 77 .

بينهما لتحقيق الانتشار و التداول يقول محمود ذهني في هذا الشأن : « فالأدب الشعبي لا يتميز بالفصحى أو العامية ، ولا يقال إنه يلتزم بوحدة منهما وإنما الأولى أن يقال إن له لغة خاصة به ، تحمل من سماته وصفاته ما يجعلها تضم الفصحى والعامية أو تسمو عليهما حين تأخذ بساطة العامية وانتشار أفراد الأمة ، بقدر ما هي قادرة على التصوير والإبداع والتأثير في كل فرد من أفراد الأمة »¹ .

ب- ظهور ونشأة الشعر الشعبي بتلمسان :

تشعبت الآراء وتضاربت حول أول ظهور لفن الشعر الشعبي بالمغرب العربي عامة و الجزائر خاصة ، ومنطقة تلمسان على وجه الخصوص ، شأنه شأن التسمية الأصح و المفهوم الأدق لهذا النوع من الفن ، و هذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أنه لم ينل حظّه من الدراسة و التحليل رغم ما يتمتع به من أهمية ثقافية و اجتماعية و قيم فنية إبداعية جمالية .

رغم ذلك وقفنا عند بعض الآراء حول نشأة الشعر الشعبي في المنطقة ، بعضهم رأى أن الفتح الإسلامي لأقطار المغرب قد أسهم في ظهور أشكال شعرية شعبية جديدة ، ولم يتم ذلك بشكل كبير إلا مع الحملات الهلالية للمنطقة ، وتلمسان موضوع بحثنا لم تكن بمنأى عن هذه التغيرات والأحداث ، وبالتالي عن هذا التأثير الثقافي ، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً ، فولع الهلاليين بفن الشعر الشعبي بالدرجة الأولى مقارنة بباقي الأنواع الأدبية جعلهم ينقلونه معهم أينما ذهبوا : يقول المرزوقي : « كثرة أولئك الأعراب و تغلبهم على إفريقية و انتشارهم في مناكبها

¹ - محمود ذهني ، مرجع سابق ، ص 54 .

عرب البلاد و أذاب العنصر البربري الأصيل في العنصر العربي المتغلب فسادت لغتهم و انتشر شعرهم ، و لم بق بعد نحو قرن من استقرارهم بالبلاد مكان للشعر الفصيح إلا في الحواضر حيث توجد الثقافة و دواليب الحكومات . ليس معنى هذا أنّ أولئك الأعراب كانوا لا ينظمون الشعر على طريقتهم المعروفة في أحيائهم ، كما يجنح بعض شيوخهم إلى النظم باللغة الفصحى عندما يضطر لمخاطبة رجال الحكومة أو المثقفين «¹ .

وهناك من نسب الشعر الشعبي الجزائري إلى أصول أجنبية بعيدة عن الثقافة العربية الإسلامية ، جاء قبل احتلال الرومان للجزائر فألحقوه بالشعر اللاتيني مستبدلين في ذلك بمقطوعات كتبت بطريقة المقاطع ، يقول عبد الله الركيبي : « أرادوا أن يجعلوا من الشعر الملحون شعراً بعيداً عن التراث العربي بل قصدوا إلحاقه بالشعر اللاتيني ، وحبّتهم في ذلك هي نظرتهم إلى بعض المقطوعات التي تكتب بطريقة المقاطع ، وأنّ الشعر الفصيح يعتمد على كمية الأبيات ، بينما الشعر الشعبي في رأيهم يعتمد على المقاطع ، و على النبرة و اللهجة الخاصة في النطق ، و لا يخضع للبحور التي عرفت في الشعر العربي الفصيح . إلا أن رأي هؤلاء يبقى ناقصاً ، فحقيقة أنّهم قدّموا نصوصاً ذات لهجة بربرية ، لكن مضمونها عربي إسلامي أرجع بعضها إلى العصر الجاهلي² .

1- محمد المرزوقي ، الأدب الشعبي في تونس ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1967 ، ص 54 .

2- أنظر عبد الحق زريوح ، مرجع سابق ، ص 10 . .

هذا و لا يمكننا أن ننسى تأثير الأندلسيين القوي في تقوية النزعة الشعرية الشعبية بتلمسان ، و هجرة الأندلسيين بعد سقوط الأندلس في يد الإسبان أسهم بدرجة كبيرة في نقل مظاهرهم الثقافية العربية الإسلامية ، فقوى عود الشعر الشعبي الجزائري ، فالتلمساني ، وهذا ما رآه التلي بن الشيخ حينما أشار إلى ظاهرتين ثقافيتين أثرتا في الفكر في المنطقة ، أولهما فنّ الزجل الذي ابتكر في الأندلس كان يقال بالعامية و ما زال تأثيره إلى الآن يتجلى في جمعيات الفنّ الأندلسي ، و ثانيهما وصول علماء وأدباء من مهاجرين كان لهم دورٌ فعّال في نقل مظاهر الثقافة و الأدب من الأندلس إلى المغرب العربي و الجزائر على وجه الخصوص»¹ .

وتجدر بنا الإشارة في هذا المضمار إلى أنّ الأشعار الشعبية التي طبعت ضئيلة جداً مقارنة بغزارتها نظرا لاستغناء الناس عن المكتوب واكتفاءهم بالمسموعه ، سواء عن طريق الغناء أو الرواية .

ومجموعة الأشعار التي كانت متداولة بين الناس في منطقة تلمسان هذه الفترة تمثل نسبة قليلة من الثروة الشعبية التي كانت منتشرة بين أصحاب الفن وهواته ، لكن معظمهم اندثر ولم يصلنا منه إلا القليل² .

1- التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1990 ، ص 27 .

2- عبد الحميد حاجيات ، الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص 07 .

ج- أعلام الشعر الشعبي بتلمسان :

استنادا على ما سبق من خلال تسليط الضوء على بعض أصول وبدائيات الشعر الشعبي بالجزائر عامة وتلمسان خاصة ، فقد ظهرت نخبة من شعراء شعبيين جادت قرائحهم و بانث روعة نظمهم وتعددت موضوعاتهم فأصبح هذا الفن حافلاً يدعو إلى الفخر والاعتزاز ، خصوصا وأنه قد تفاعل مع الأحداث التاريخية للمنطقة حاضراً في السراء والضراء ، وأظهرت لنا النصوص الشعرية الشعبية مدى نضج شاعر تلمسان وإحساسه بكيانه وانتماءه الحضاري والفكري ، ومدى قدرته الأدبية الإبداعية على مر الأزمنة وهذا ما أكده لنا محمد بن شريفة حينما قال : « ظهر في القرن التاسع وما تلاه من القرون لون من الزجل أطلق عليه اسم الملحون وقد بلغ شأناً بعيداً في العهدين السعدي والعلوي ، إذ كثر أعلامه وتعددت أنواعه وأغراضه وتنوعت أوزانه »¹ .

واقصر حديثنا عن أعلام هذا الفن الشعبي بهذه المنطقة قد حدد خلال القرنين 17 و 18م وأثناء دراستنا لموضوعات شعر الطبيعة لدى شعراء تلمسان وقع اختيارنا لبعضهم ورأينا أنه لا يمكن الوقوف على شعرهم دون التنويه إليهم ، وإعطاء لمحات وجيزة عن حياتهم والتعريف بهم وبأهم أعمالهم الشعرية وموضوعاتهم :

1- محمد بنشريعة ، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب - بحوث ونصوص - ، ج4 ، مطبعة دار المناصل ، 2006 ، ص 09 .

محمد بن مسايب :

أبو عبد الله محمد بن مسايب عملاق كبير من عمالقة الشعر الشعبي بمنطقة تلمسان ، ظهر في القرن الثامن عشر ، ذاع صيته واشتهر بين أهالي المنطقة وعشاق هذا الفنّ .

لم يصلنا عن حياة هذا الشاعر إلا القليل بفضل المهتمين بجمع هذا التراث والتقيب عنه أمثال محمد بخوشة الذي عمل على جمع بعض ما نظم هذا الشاعر في ديوان شعري¹ .

مولده :

لم تحدّد المصادر المكتوبة أو المنقولة لنا تاريخ مولده بدقّة ، وهذا ما ذكره الدكتور جعلوك عبد الرزاق في مقدمة ديوان بن مسايب لمحمد بخوشة ، فبعضها تشير إلى أنه وُلِدَ في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة لكنّ قصيدته " عمدالي ما وجدت صبيرا " تبين عند تأريخه لها أنّ مولده كان في نهاية القرن الحادي عشر هجري ، إذ قال فيها :

هَذِهِ مَنِّي بَغِيرَ فُخْرَةٍ	سَلَامِي لِلشَّيَاخِ مَانَا حَتِ لَطِيَارُ
فِي التَّاسِعِ عَامٍ بَعْدَ عَشْرَةٍ	مِيَّةٍ وَأُلْفٍ حَكِيَّتْ لَكُمْ شَيِّ صَارُ
وَأَسْبَابِي فِي الْمُحَايِنِ عَذْرَا	خَطَفْتُ عَقْلِي وَكُوتِي كِيَّةَ بِلَا نَارُ

¹ - ابن مسايب ، الديوان ، جمع وتحقيق محمد بن الحاج غوثي بخوشة ، نشر ابن خلدون ، تلمسان ، الجزائر ، 2001م ، ص 25 .

زُورَةَ يَا عَاشِقِينَ زُورَةَ إِلَى مَكَّةَ بَلَّغُوا سَلَامِي يَا زِيَّارًا¹

نشأته وحياته :

قلَّ ما دُوِّنَ عن حياة بن مسايب رغم شهرته ، فلم نعلم الظروف الاجتماعية التي نشأ فيها وأسهمت في تكوين شخصيته ، وما وصلنا عنه أنه كان بسيطاً يعمل نَسَاجًا وكان بعيداً عن السلطة وأمور الحكم والسياسة .

أجمع الباحثون على أصله الأندلسي من عائلة استقرت بتلمسان في حي باب الزَّير حيث التحق في بداية نشأته بالكتاتيب القرآنية فتعلَّم الفقه والنحو وحفظ بعضاً من القرآن ، بعدها اتجه إلى العمل كما سبق الذكر² .

اشتمل شعره على قصائد غزلية أظهرت أنه كانت له حبيبة تقنن في وصفها وإبداء ولعه بها في العديد منها ، كان يعشق الجمال و أكد ذلك في العديد من القصائد نذكر منها قصيدة " نار ولفي " يقول³ :

بَلَا فخرٍ نَنجِمُ ونَقُولُ بِلِسَانِي ابْنُ مَسَايِبٍ مَنْ يَعشِقُ الزَّيْنَ كَيْفُو

يَا سَيَادِي سَالِفِ عَيْشَةٍ نَشُوفُهُ

¹ - ابن مسايب ، المصدر السابق ، ص 29 .

² - ابن مسايب ، الديوان ، إعداد وتقديم الحفناوي أمقران سحنوني وأسماء سيفاوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م ، ص 08 .

³ - ابن مسايب ، الديوان ، المصدر السابق ، ص 59 .

فذكر أنّ هذه القصائد الغزلية وتشبّيه بمحارم الناس قد أحدث سخطا كبيرا وسط العامة وحكام البلاد ، ويروى أنّ عامل تلمسان قد أمر بقتله لهذا السبب ثم عاد وعفَى عنه ، فتاب الشاعر بعد ذلك وتراجع عن نظم القصائد في هذه المواضيع ، يتحدث عن ذلك الشاعر بقوله¹:

رَأَيْتُ عَلَى أَفْعَالِي نَدَمًا مَا دَرَّتْ بِأَشْرَنِ لَقَى اللَّهَ
مَا تَبَّتْ مَا قَرِيتُ اللَّازِمَ ابْلِيسُ غَرِنِي بِهِوَاهُ

وانصرف إلى الأشعار الدينية والتي كانت معظمها مدحا لخير الأنام صلى الله عليه وسلم ، يقول في قصيدة " الحرم يا رسول الله " ²:

مَدَّاحُ نَمْدَحُ لِعَدْنَانِي بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَلُسَانِي
مَوْلُوعٌ بِهِ طُولُ زَمَانِي ذِكْرُهُ فِي خَاطِرِي مَا حَلَاهُ
أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ فِي أَرْكَانِي مَدَّحُ النَّبِيِّ رَسُولَ اللَّهِ

أظهر بن مسايب تعلقه الكبير بمكان مسقط رأسه ونشأته ، مدينة تلمسان الجميلة الحضارة الراقية بعمرانها وأنهارها ، جبالها وحصونها ، فوصفها في قصائد مطوّلة نذكر منها قصيدة " ربي قضي " والتي تحسرّ فيها عن ما آلت إليه هذه المدينة من جورٍ للحكم واندثارٍ لأهم آثارها وعمرانها الثقافي³:

¹ - ابن مسايب ، الديوان ، المصدر السابق ، ص 12 .

² - نفسه ، ص 158 .

³ - نفسه ، ص 102 .

رَبِّي قُضِيَ عَلَيْهَا وَالْوَقْتُ ادْعَاهَا فِي السَّايِقِ الْمَقْدَرِ كَانَ الَّذِي كَانَ
 سَوَائِعِ السُّعُودِ دَارَتْ الْأَيَّامَ مَعَهَا تَتَكَّسُ الزَّمَانُ عَلَيْهَا وَشَيَانُ
 عَدِمْتُ وَأَكْ فَسَدْتُ وَالظُّلْمُ أَخْلَاهَا مَدِينَةَ الْجِدَارِ بَلَدٌ تَلْمَسَانُ

كما ذكر محاسن تلمسان وما زاد من بهائها وجمالها وعظمتها في قصيدة

" أَرَادَ كَيْفَ فَعَلَ " ¹:

كَانَتْ بَعِزٌ عَظِيمٌ وَشَانٌ مَرْتَفِعٌ مَنْ يَرَاهَا يَتَمَنَّاهَا فِي الشَّرِّ
 بَاهِيَةٌ صَفْتِهَا مَكْمُولَةٌ الطَّبَعِ صَبَّاحَهَا وَمَسَاهَا يَغْنِي عَنِ الْفَقْرِ
 عِنْدَهَا صُورٌ مَدُورٌ مُحَصَّنٌ لِلْمَنْعِ فِي الْحَجَرِ جِبَالَهَا حَرْزَهَا بِالْوَعْرِ
 جَاءَتْ مَا بَيْنَ الصَّحْرَا وَالْتَلَّ مَجْتَمَعٌ فَارْحِينَ مَوَالِيهَا بُصِيدُ الْبِرِّ وَالْبَحْرِ
 جَاءَتْ مَا بَيْنَ عَطَّارٍ وَقُبَّةِ الْمَنَارِ مَعَ الصَّفْصِيفِ وَعَيْنِ الْحُوتِ وَازِرُونَ
 الْخَنَادِقِ وَالْقَلْعَةِ وَحَنِيفٌ كَيْفَ دَارِ وَالجِنْحِ الْأَخْضَرِ وَالْعَبَّادِ وَالْعَيُونِ
 مَا بَقِيَ فِيهَا بَاشٌ تَعَانِدُ الْمَدُنُ

نقل لنا من خلال شعره رحلاته الطويلة وأسفاره بين المشرق والمغرب وبين مدن الجزائر ، وبالرغم من أنه عانى من الغربة أثناء هجرته إلا أنه اكتسب من هذه التجربة مجموعة من السلوكات ، فغير نظرتة وتعامله مع الحياة ، بعدما

¹ - ابن مساييب ، الديوان ، مصدر سابق ، ص 97 .

عاش حياة الهزل والعنفوانية انتقل إلى الجدّ واختيار العقل وتوظيفه في شعره¹.

أما عن ذكره لموضوعات الطبيعة - موضوع بحثنا - فقد أسهب في وصف كل ما هو جميل ، تغنى بالأزهار ، الأطيّار والرياض ، ورأيناها أنها كانت في الأغلب ممزوجة بذكره للمرأة ، فمتى ذكرها ذكر معها الزهر والورد والريحان والساق ، بل والشمس والبدر ، والظبية والطير ، فربط بين المرأة وعناصر الطبيعة ربطا وثيقا ، وهذا ما سوف نقف عنده بنوع من التفصيل في صفحاتنا اللاحقة إن شاء الله ...

توفي هذا الشاعر وبقي شعره خالداً إلى اليوم تغنى به العديد ، يقال أن ذلك كان في سنة 1768م / 1190هـ ودفن بمقبرة " وازوتة"².

بومدين بن سهلة :

الشيخ التلمساني بومدين بن محمد بن سهلة ولد ونشأ بتلمسان اهتم بنظم الشعر في سن مبكرة ، تعلق قلبه بفتاة تدعى " بدرة " فكان شعره في معظمه تغزلاً بها ، ويذكر أنه لم يتغزل بسواها في شعره ، وقد وقفنا عند اسم الفتاة في العديد من القصائد³:

¹ - بن مسايب ، الديوان ، المصدر السابق ، ص 12 .

² - نفسه ، ص 13 .

³ - الشيخ التلمساني بومدين بن سهلة ، الديوان ، جمع الأستاذ محمد الحبيب حشلاف ، تحقيق محمد بن عمرو الزرهوني ، ط1 ، 2001م ، ص 19 .

سِيْدِي وَلَا رَسُوْلٌ يَحْدُثُ	بَدْرَةٌ طُوْلَةٌ عَلَامُ الرَّايَةِ
جَمِيعٌ مَا شَهْرَتَهُ تَابَتْ	كُونُوا مِنْ الشُّهُودِ عَلِيًّا
رَأْسِي إِذَا رُضَاتُ وَعَطْفَتْ	نَعْطِيهِ فِي رُضَا الْهَمِيَةِ
بِالزَّيْنِ فِي الْمَدِينَةِ شَاعَتْ	طَاعُوا الْحَضَرَ وَبَلَدِيَةَ

تأثر بالوسط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه من مظاهر الاحتفالات بالأعياد والأفراح ، فكان لا بدّ من وجود أغاني تعبر عن هذه المناسبات وهذا ما جادت بسببه قريحة الشاعر ، فعبر عن مظاهر الفرحة والبهجة ، ونظراً لكونها كانت تؤدى في البساتين والرياض فاحتلت هذه العناصر الطبيعية مكانا في شعر بن سهلة وتغنى بها ¹.

ويذكر أنّ بن سهلة قد هجا في شعره الحكم الجائر وظلم الحكّام لما آلت إليه المنطقة آنذاك من تدهور سياسي واجتماعي ، فمعظم أهاليها كانوا يعانون الحرمان والفقر ، فشهد بن سهلة ملاحقةً من هؤلاء الحكّام فاضطر إلى الرحيل إلى سهول أنقاد بأقصى غرب الجزائر ².

موضوعات شعره :

كان بن سهلة شديد الحرص على إظهار الواقع المعاش ، فكان شعره شهادات حية صادقة عن أحوال الناس ، وهذا ما جعل شعره يلقى رواجاً

¹ - بن سهلة ، الديوان ، مصدر سابق ، ص 20 .

² - نفسه ، ص ص 20 ، 21 .

واستمرارية بين الفئات ، فبين قساوة العصر الذي كان يعيشه والأوضاع السياسية السائدة آنذاك ، فاعتمد في ذلك أسلوب التلميح والتعبير الرمزي .

كان ينتقل من غرض إلى آخر لأنه كان يصور حالات نفسية من حُب وولع إلى استنفارٍ ومعاناة ليعود إلى التفاؤل وإبداء الأمل بعودة الأيام السعيدة ، وبما أن شعره كان يُنظم ليُغنى فقد استخدم الألوان ومزج الصور بمناظر الطبيعة الزاهية ووصف مجالس الطرب .

عدّ شعره جديداً في فنّ الغناء ، جاء في مقدمة الديوان : « إن الشيخ بومدين بن سهلة يعدُّ من أوائل المبدعين المجددين في فن الغناء في عهده ، إنه بغزارة إنتاجه تعود على المجانسة بين أشكال النظم ، فيؤلف بينها تأليفاً مُحكما »¹.

شملت أغراضه الغزل من قصيدة " أنا المححون من غرامك " ²:

يَا اللَّيِّ زَيْنَكَ شَاعَ فِي الْبَهْجَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَلَاخِ

دَاوِينِي بِدَوَاكِ نَبْرِي يَا طَائِقَةَ الدَّلَالِ

ويقول :

لَا نَعشِقُ زَيْنَ غَيْرِ زَيْنِكَ يَا صَابِغَةَ الْأَمَاحِ

سُبْحَانَ لَحْيٍ مِنْ عَطَاكِ السِّرِّ وَالْكَمَالِ

¹ - بن سهلة ، الديوان ، مصدر سابق ، ص ، ص 23 ، 24 .

² - نفسه ، ص 34 .

عُيُونُكَ سُودٌ وَالْحَوَاجِبُ نُونِينَ فِي شَيْ أَلْوَاخِ
المبسم نعتٌ دُورٌ خَاتَمٌ وَالْخَدُّ كَمَا الْهَلَالُ

وفي الشوق يقول في قصيدة " نار هواكم لهَّاب " ¹:

خَلَيْتُونِي نَوَاحٍ نَبْكِ مَا فَادُ بَكَايَا
كُلُّ مَسَاءٍ وَ صَبَاحٍ نَمُوعٌ عَيْنِي جَرَّايَا
بِهَوَاكُمُ قَلْبِي جَا حٍ وَكثُرَ تَعْبِي وَ شَقَايَا

و في غرض المدح نجد مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم في قصيدة
" سلّم على طه القريشي " ²:

سَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَاوَدُ الْهَاشِمِي مُحَمَّدُ
قُلْ يَا مُحَمَّدُ عَاشَقَكَ عَمْدَا عَمْدَا
بِحَبِّكَ نَبَاتٌ نَغْرَدُ فِي الدَّلِيلِ رَكَبْتُ غَدَاةَ
رَأهُ جِسْمِي مُتْسَهِّدُ لَيْسَ تَهْنَى لِي رَقْدَاةَ

وأروع ما أبدع فيه كان الوصف ما يتعلّق بعناصر الطبيعة المختلفة التي
سنفصل فيها لاحقاً .

¹ - بن سهلة ، الديوان ، مصدر سابق ، ص 69 .

² - نفسه ، ص 139 .

أحمد ابن التريكي :

اكتسب أحمد بن التريكي التلمساني الأصل شهرة واسعة في القطر الجزائري كله وكذا المغرب الأقصى وخصوصاً بمدينة فاس ، رغم هذا قد اكتسى الغموض حياة الشاعر لأنه لم تصلنا معلومات صريحة ، تسمع بالإدلاء بحقائق ثابتة على واقعة .

هو أحمد بن التريكي لقب بابن الزنقلي ، والتي فسرها محمد بن شنب بأنها " الغنى " ، فابن الزنقلي معناها ابن الغني¹ .

أما عن كلمة التريكي فهي تصغير لتريكي ، وُلد في أواسط القرن الحادي عشر بمدينة تلمسان ، نشأ وترى بها وقد صرح عن ذلك بقوله² :

أَنَا يَا مَنْ اتَّسَلُ فَالْأَصْلُ تَلْمَسَانِي

كان يقطن بحارة باب الجياد بدرب الملياني³ ، ووجدنا هذا في قصيدة :
" طال عذابي و طال نكدي " ، عندما قال⁴ :

1- مقنونيف شعيب ، صورة المرأة في شعر ابن سهلة جمع ودراسة ، القسم الأول ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، 1995 ، ص 24 .

2- ديوان أحمد بن تريكي ، جمع وتحقيق عبد الحق زريوح ، نشر ابن خلدون ، تلمسان ، ص 25 .

3- أبو علي الغوثي ، كشف القناع عن آلات السماع ، مطبعة جوردان ، الجزائر ، 1409 هـ ، ص 75 .

4- توفيق ومان ، أحمد ابن التريكي ، سلسلة مشاهير الملحون ، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين ، ص 05 .

سَاكِنُ بَابِ الْجِيَادِ حُومَةَ دَرَبِ الْمَلْيَانِي

حفظ القرآن الكريم منذ صغره لالتحاقه بالكتاتيب القرآنية .

شعره :

يُقال أن سبب نظمهِ للشعر الملحون هو أنه كان له أخاً وكيلاً بضريح أحد الأولياء بتلمسان فذهب لزيارته ذات يوم ، فوجده قائماً حول الضريح ووجد هناك نسوة خرجن لزيارة هذا الولي الصالح ، فهام في حسنهن وجمالهن ، وبدأ يخاطب أخاه بالشعر فيقول¹ :

فِقْ يَا نَايِمٌ وَاسْتَيْقِظْ مِنَ الْمَنَامِ وَاسْغَى لِحَدِيثِي يَا خَايَ وَفَهْمُو

وهذا ما يعني أن بدايته الشعرية كانت غزلية ، فغاص في بحر العواطف

والوجدان ينقل لنا لوعة الفراق عن الحبيب

واستمرّ على هذا الحال إلى أن أمر الحاكم العثماني التركي بنفيه من البلاد بسبب كثرة تشبُّهه من النساء ، فرحل إلى وجدة وبقي هناك أياماً ، ونظم فيها قصائد عديدة يصف فيها الحالة التي آل إليها جرّاء بعده عن أهله وذويه² .

¹ - ابن التريكي ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 26 .

² - توفيق ومان ، مرجع سابق ، ص 04 .

نذكر على سبيل المثال ما جاء في مطلع قصيدة " طال نحبي " ¹:

طال نحبي ودموعي كل يوم زراب
والفراق كواني كية بلا سباب
من سمسو سيب في الليل مشهاب
ماوجدت لضرى حكمه ولا طبيب
شاب راسي يا ربي من فراق لحباب
بهم اجمع شملي ايا المرتقب

وقد أثرت معاناة الشاعر في الغربة على شعره ، فتحوّلت مواضيعه إلى جدّ بعدما كانت هزلية بسبب طيش وسفاهة الشباب ، فمال إلى التوبة والتصوف ومن هنا بدأ في القصائد الدينية التي تضمنت في معظمها مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان من معاصريه بن مسايب ، كان أستاذاً له ، فاقترب شعر ابن تريكي بشعر أستاذه في بعض الخصائص الفنية الذي قال عنه : « ابن التريكي يملكه جن عظيم ، ولكن ذلك الجن أشاء اختيار محل سكناه » ² .

وعن شعره قال : « عسل ابن التريكي في غاية الحلاوة ومن سوء الحظ أنه موجود في قرية مطلية بالقطران » ³ .

¹ - ابن التريكي ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 26 .

² - توفيق ومان ، مرجع سابق ، ص 05 .

³ - نفسه ، ص 05 .

سيدي الأخضر بن خلوف :

مولده ونشأته :

هو بن عبد الله بن عيسى الشريف الإدريسي المغراوي¹ ، يُقال له سيدي الأكل بن خلوف وأيضاً الأخضر بن خلوف لأنَّ الإسمين معا قدا أدلى بهما في قصائده ، فورد الأكل في بعضها ثم قام بتغييره بالأخضر في قصائد أخرى من أجل التفاؤل ، ودعى أيضا نفسه بن خلوف وولد خلوف .

وعن مولده لم يحدّد المؤرخون التاريخ بالتدقيق فيقال كان ذلك في أواخر القرن العاشر الهجري ، وأورد ذلك في بيت من قصيدة له بعنوان " ابقوا بالسلامة " ²:

مِنْ قَرْنِ الثَّمَانِيَةِ إِدَيْتِ سَنِينَ أَوْزَاعٍ وَالْأَيَّامَ هَامِلَةً وَالْجَالِبَ مَجْلُوبٍ
بِفَضْلِ النَّبِيِّ تَمِيَتْ الْقَرْنُ التَّاسِعُ وَالْفُلْكَ يَنْثَى وَالْحَاسِبُ مَحْسُوبُ

كما ذُكر في نفس القصيدة أنه عاش ما يزيد عن مائة وخمس وعشرين عاماً فيقول ³:

جَوَزْتُ مِائَةً وَعَشْرِينَ سَنَةً مَعْدُودَةً وَخَمْسَةَ تَامَّةً فِي أَجْلِي مَوْصُوفُ

¹ - المغراوي : نسبة إلى بلاد نشأته وتنتمي إلى زناتة التي كانت تحت ولاء الموحديين قبل الإسلام وفي صدره .

² - سيدي الأخضر بن خلوف ، شاعر الدين والوطن ، ديوانه ، جمع وتقديم محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، ابن خلدون للنشر والتوزيع ، تلمسان ، الجزائر ، ص 191 .

³ - نفسه ، ص 193 .

وبما أنه عاش القرن التاسع للهجرة فإنه شهد الاضطرابات التي عاشتها شمال إفريقيا والتي كانت على حدّ تعبير بخوشة مسرحاً للفوضى فأنت الأتراك وطهرت البلد من الإسبان¹.

كما أنه حضر المعركة التي دارت بين الإسبان والمسلمين بقيادة الأمير حسن باشا نجل خير الدين والمسماة بمعركة مزهران ، وقد خصّ شاعرنا قصيدة بأكملها يروي لنا فيها أحداث الواقعة بعنوان " قصة مزهران " ².

وبهذا لم يكن بن خلوف بمنأى عن الأحداث الوطنية والسياسية للبلاد بل عاش فيها كل لحظة وسجّلها في شعره بكل دقة وتفصيل .

نسبه :

أصل بن خلوف شريف النسب مغراوي الأصل كما ذكر أنفا ، فيقول بخوشة عن ذلك : « يرجع نسب سيدي الأخضر بن خلوف إلى مولى سيدي إدريس الأكبر رضي الله عنه فهو مغراوي الأصل شريف النسب ، يلتحق بجده عيسى الذي انتقل إلى الشقران من ناحية مستغانم وإليك سلسلة حسب ما ذكرها الإمام السيوطي (رضي) : وهو عيسى بن الحسن بن يعقوب الشريف ابن عبد الله بن عمران بن صفوان بن يسار بن موسى بن سليمان بن يحيى بن موسى بن عيسى بن إدريس الولد بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن البسيط بن علي كرم الله وجهه ، نعم إن سيدي الأخضر بن خلوف

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 24 .

² - نفسه ، ص 182 .

مغراوي الأصل شريف النسب ولو كره من قال وزعم بأن لا شريف في وطننا بعد القرن الثامن هـ¹.

شعره :

سيدي الأخضر بن خلوف كما يلقب شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما ظهر جلياً في شعره الذي تناول غرض المدح ليس غيره ، امتزج شعره بالحكم والمواعظ والزهد ، كان مناصراً لقضايا الإسلام والمسلمين وتحرير الوطن من أهم قصائده المديحية : " قدر ما في بحر الظلام " ، " الرشيد مصباحي " ، " محمد خير الأنام ... "

وفاته :

رحل بن خلوف بعدما عمّر حوالي مئة وخمسة وعشرين عاماً وعندما شعر باقتراب أجله ودّع أولاده وأهله في قصيدته الأخيرة " ابقوا بالسلامة " .

ويقال أنه قد أوصى قبل ذلك بدفنه قرب نخلة كان يحبها ويجلس كثيرا تحت ظلها بقرية " الباسي " بمستغانم وفعلاً حدث ذلك ودفن هناك وضريحه متواجد قرب تلك النخلة التي قال عنها في قصيدة " لله الحمد زاد فياً " ² :

النخلة منزلها احدايا تظلل في ظلها البعيدا

خلف شاعرنا وراءه ما يشهد له بالعظمة فبقي شعره خالداً للأجيال .

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص ، ص 24 ، 25 .

² - نفسه ، ص 93 .

سعيد المنداسي :

مولده ونشأته :

هو سعيد بن عبد الله المنداسي الأصل¹، التلمساني المولد والنشأة، كني بأبي عثمان²، وعن نسبه يقال أنه من عرب سويد من مالك بن زغبة، من بني هلال³، وهو الآخر كغيره من الشعراء الذين لم تصلنا إلا معلومات قليلة عن حياتهم المتناثرة في بعض المراجع والتي عمل الباحثون على جمعها لعلها تفيد القارئ.

نشأ وتعلم بتلمسان في القرن الحادي عشر هجري، وتلقى مختلف العلوم من لغة ونحو وصرف وبلاغة وشريعة وعلم الكلام وغيرها⁴، وقد روى الأستاذ محمد بخوشة أن الشاعر «عاش بفاس ومراكش مدة طويلة في رعاية العلويين، وكان معلماً لمولاي إسماعيل فأكرمه هذا الأخير عندما تولى الحكم»⁵. وأضاف: «وكان سخياً حتى أنه أعطى للأديب الشهير المتقدم في صنعه الشعر العربي والملحون أبا عثمان سعيد التلمساني صاحب قصيدة "العقيقة" وغيرها

¹ - المنداسي : نسبة إلى بلدة منداس بدائرة زمورة ، ولاية غليزان .

² - قاضي محمد ، الكنز المكنون في الشعر الملحون ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1928، ص 21 .

³ - أبو علي الغوثي ، كشف القناع عن آلات السماع ، مرجع سابق ، ص 51 .

⁴ - المنداسي سعيد بن عبد الله ، ديوانه ، تحقيق وتقديم رابح بونار ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2011م ، ص 05 .

⁵ - محمد بخوشة ، ديوان المنداسي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت ، ص 04 .

نحواً من خمسة وعشرين رطلاً من خالص الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، إلا أنه ما فتى أن أحسّ بالحنين إلى الوطن فرجع إلى تلمسان ومكث بها إلى أن أتى أجله¹ . لكن هناك رواية أخرى مفادها أن رجوع المنداسي إلى أرض الوطن كان بسبب طرد السلطان له بعد أن ساءت علاقتهما ، ذلك أن السلطان إسماعيل قد طلب من شعراء البلاد أن يصفوا جارية له ، فنظم شاعر مغربي يدعى خباب المغربي وقال للسلطان بأن وصف المنداسي لا يكون إلا من شخص قد رأى الجارية بالفعل ، فاغتاظ السلطان وشكّ في أن تكون له صلة بجاريته فطرده .

أدبه وشعره :

يقال أن سعيد بن عبد الله المنداسي شاعر شعبي متأثر بالشعر العربي ، فالعديد من قصائده كانت قريبة جداً من الشعر العربي من حيث الأسلوب والألفاظ² ، ويؤكد ذلك رابح بونار عندما قال : « و هو إلى جانب ذلك شاعرٌ في اللغة الفصحى قد ترك قصائد رفيعة فيها لا تقلّ في مستواها الفني عن قصائد فحول الشعراء في العصر العباسي³ . و قد ظهر هذا الطابع في شعره المتميز بالروح الصوفية وبالأخص تلك الأشعار التي يصف فيها حبه لسلمى⁴ .

¹ - محمد بخوشة ، ديوان المنداسي ، مرجع سابق ، ص 03 .

² - التلي بن الشيخ ، دراسات في الأدب الشعبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م ، ص 11 .

³ - سعيد المنداسي ، ديوانه ، تحقيق وتقديم رابح بونار ، ص 13 .

⁴ - التلي بن الشيخ ، دراسات في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص 11 .

وإذا تحدثنا عن الأغراض التي تناولها في شعره الشعبي نجد الغالب عليها العتاب والمديح الديني والحب ، والشوق إلى الأهل والأصدقاء .

و لقد ارتقى هذا الشاعر بشعره إلى مستوى عال ، ففي موازات الدارسين بين شعره وشعر آخرين كالأخضر بن خلوف وجدوه الشاعر الوحيد الذي تمكن من التفنن في بناء قصائده ومعانيه وتجاوز المدائح النبوية إلى موضوعات الشعر العربي الفصيح .¹

شعر العتاب لدى المنداسي قد أظهر جوانب هامة في شخصيته ، فاقترصر ذلك على الرد على خصومه والدفاع عن نفسه دون أن يلج في ذكر التفاصيل خصوصا فيما يتعلّق بصراعه مع السلطان وحاشيته .²

أما شعر الغزل فأظهر لنا فيه مدى تيممه بسلمى ، فهو الذي يحترق قلبه حزناً وألماً ويذوب شوقاً ولهفاً إلى لقاء سلمى ، إلا أنّ هذا الجانب قد اكتنفه بعض الغموض في ما إذا كانت سلمى فتاة جزائرية أو مغربية وفيما كانت هي الجارية التي ذكرناها سابقاً .³

و من أروع ما أبدع في تصويره للعلاقة الوطيدة بينه وبين سلمى وإظهار جمالها الرائع ما قاله⁴:

¹ - المنداسي ، ديوانه ، تقديم رايح بونار ، ص 14 .

² - التلي بن الشيخ ، دراسات في الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص 20 .

³ - نفسه ، ص 22 .

⁴ - نفسه ص 23 .

لَوْ ضَحِكْتَ سَلَمَى وَبَانَ بِيَاضُ الثَّغْرِ
يَطْلَعُ صُبْحُ أَنْ لَا تَرُدَّ اضْيَاهُ¹ اسْتُورُ
لَكِنْ مِنْ دُونَ الثَّنَائِيَا لَيْلَ الشِّعْرِ
حَطَّ أُرْوَاقَ اسْوَدَّ عَلَى الْغَرَّةِ² مَقْصُورُ
مَا رَيْتَ اشْبَهَ مِنْ مُحْيَاهَا بِالْبَدْرِ
وَقَتَ أَنْ تُرْسِلَ فَرْعَ عَاتِقِهَا مَنْشُورُ
يَحْكِي لِلْخَالِ مَا شَاهَدَ مِنْ قِسْرِ
فِي الْوَجْهِ اللَّيِّ مِنْ ضِيَاهِ الْحُلِيِّ يَنْوَرُ

أما المديح النبوي عند هذا الشاعر فهو الذي اشتهر بأروع وأشهر قصيدة في عصره وفي العصور الموالية وهي " العقيقة " في مدح محمد عليه ألف صلاة وسلام . كما أن شاعرنا عرف بشعره الذي يبدع فيه بتصوير الطبيعة وإظهار عظمة الخالق في خلقه ، وأشهر ذلك الربيعيات التي تغنى فيها بعدد كبير من العناصر الطبيعية من أنواع الأزهار والأطيوار والأشجار ... إلخ ، والتي أظهرت بحق دقة التصوير والإبداع الفني في نظم الشعر .

¹ - اضياه : ضياهه .

² - الغرة : الجبين .

وفاته :

عُلمَ بأنَّ الشاعر عاش في القرن الحادي عشر الهجري إلا أنَّ تاريخ الميلاد والوفاة مجهولان ، فذكر الأستاذان علوش والرجراجي أنَّ وفاته كانت سنة 1088هـ - 1677م ، وذهب أبو راس إلى أنه توفي في أواسط القرن الثاني عشر الهجري¹.

ظهر الاختلاف أيضا في مكان الوفاة ، إذ ذهب بكوشة محمد إلى أنَّ وفاته كانت بتلمسان بعد عودته إليها ، وأبو راس في شروحاته للعقيقة ذكر أنه توفي في سجلماسة ودُفِنَ بها².

¹ - المنداسي ، ديوانه ، تقديم رابح بونار ، ص 07 .

² - نفسه ، ص 07 .

ثالثاً : موضوعات شعر الطبيعة الشعبي لدى شعراء تلمسان :

إنَّ الشاعر الشعبي التلمساني مولعٌ بالبيئة التي ولد أو نشأ بها ، فتأثرت مشاعره وأحاسيسه بها ، حتى صار لا يرى صورة جميلة إلا من خلالها ، ولا يرسم صورة فنية إلا بالاستعانة بعناصرها .

فمن العناصر الطبيعية التي عنيَ الشاعر التلمساني بها وقام بتجسيدها على شكل صورٍ فنيةٍ جميلةٍ نذكر ما يلي :

أولاً : عناصر الطبيعة الصامتة :

أغرم الشعراء الشعبيين بالسماء وكل ما فيها من صورٍ بديعةٍ ، نجومها وكواكبها وشمسها وقمرها :

1- النجوم :

من أجمل مواضيع الطبيعة التي تناولها الشعر العربي منذ القديم موضوع النجوم يستمتع بها الإنسان في الليالي المظلمة الموشاة بالنجوم الصغيرة والكبيرة ، فكان من الطبيعي أن يحمل الشعر هذا المنظر الخلاب ، كانت نظرة الشاعر لها في أغلب الأحيان نظرة تفاؤل وسعادة ، وعدت الثرياَ أحبَّ النجوم إلى الشعراء ، فتداولها العديد منهم ، يقول عنها ابن المعتز :

زَارِنِي وَالذُّجَى أَحْمُ الْحَوَاشِي وَالثُّرَيَّا فِي الْغَرْبِ كَالْعُنُقُودِ

وهناك أسماء عديدة للنجوم ذُكرت في الشعر العربي قديماً منها "الدبران" سمي بهذا الاسم لأنه يأتي دبر الثريا أي خلفها ، و "سهيل" ، وهناك النجم القطبي أسماء العرب بالجدي .

وعموماً يمكن القول أن العرب لديهم خبرة كبيرة في معرفة النجوم ، ويعود ذلك إلى ترحالهم غير المحدود في الصحاري والفيافي سعياً وراء الأماكن التي تليق بالإقامة فيها ، فكانوا يهتدوا بالنجوم ليلاً ويتخذونها علامات تدلّ على نزول الغيث وزمن الحرّ والبرد والجفاف وهبوب الرياح .

لهذا قال ابن رشيق أن : " العرب أعلم الناس بمنازل القمر وأنوائها " ¹ .

وفي شعرنا الشعبي وجدنا الشعراء الشعبيين يتغنون بجمال النجوم يذكرون فضلها في الاهتداء بها ، كما وجدناهم على دراية ببعض أنواعها .

يقول بن مسايب في قصيدة " ما أزينَ نهارَ اليوم " ² :

يَا عَاشِقِينَ نَلْقَى الْإِجْدَلَ	عِنْدَهُ شَفَارٌ بِهِمْ يَقْتُلُ
نَفْنَى إِذَا تَجِي تَزْعَبَلُ	تَمَثِيلُ بَدْرٍ بَيْنَ نَجُومِ
الْخَدُ وَاشْ فِيهِ مَكْلَلُ	نَغْنِيهِ وَرْدٌ فِي مَشْمُومِ

¹ - محمود سليم الحوت ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ط2 ، 1979م ، ص 84 .

² - بن مسايب ، ديوانه ، ص 68 .

مثّل هنا الشاعر محبوبته بالبدر بين النجوم لتميّزها بجمالها بين باقي النسوة ، وذكرها أيضا في قصيدة " الوشام " ¹ :

اعْمَلِ الْقَافَ قَمَرُونَجُومٍ وَالْبَهَاءَ فِي الْجَوِّ الْمَعْلُومِ
اعْمَلِ اللَّازِمَ وَالْمَلْزُومَ كُلُّ مَنْ فَاتَ يُرَاعِيهَا
يَا الْوَشَّامُ

فوصفها في هذه الأبيات بالبهاء لجمالها وحُسنها .

وأبدى الشاعر الأخضر بن خلوف كثرة عدد النجوم وهي تضيء الليل الحالك ، فيقول ² :

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ طُولُ الدَّهْرِ عَلَى نَبِينَا
قَدَرُ نَجُومِ اللَّيْلِ الاظْلَمِّ وَالْأَمْطَارِ النَّاظِلِينََا

فيُكثر هنا من الصلاة على سيد الأنام بعدد النجوم .

وذكر بومدين بن سهلة الغرّار وهو نوع من النجوم في قصيدة " طامو تاج الباهيين " ، ويربطها دائما بالغزل ، إذ شبّه ما تحت الجبين أي العينين بالغرّار ، فيصف بريق وضياء عينيها بضياء الغرّار ³ :

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 53 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 41 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 56 .

مِنْ تَحْتِ ضِيَاءِ ذَا الْجَبِينِ غَرَّارِ طَالِعِ يَا فَاهِمِينَ
 بِهِوَاهِ يَسْحَرُ النَّائِمِينَ حَوَاجِبِ فِي مَعْنَاهِ
 حَكِيَّتِ أَقْوَاسِ مَرْكَبِينَ الشَّفَرِ يَفْتَنُ مِنْ وِرَاهِ

ويذكر سعيد المنداسي الثريا في قصيدة " أنا الممحون " ¹:

هَلَّلِي مِنْ سَعْدِ السَّعُودِ أَنْصَابِحَ وَأَنْمَاسِي

انْقَبَلْ طَلَعَتِ الثَّرِيَا وَمَعَاهَا جَالِسُ

2- الشمس :

أشعتها الذهبية التي تشرق كل يوم لتعلن عن بداية يوم جديد توحى بالأمل والتفاؤل والنشاط والحيوية ، فشروقها يقترن بالابتسامة بعد الحزن واليسر بعد العسر ، وغروبها منظر باهر تبرز فيه العظمة والسحر والجمال ، تختار الرحيل في كل يوم لكنها تملك من الوفاء ما يجعلها تعود مرة أخرى لتشرق من جديد . هي من الكواكب المنيرة فذكروها في مختلف أوضاعها لحظة إشراقها وفي وقت الضحى وفي غروبها ، فمنحوها أجمل الصور ، ذكرها بن مسايب في قصائد عدة ونجد تكرارها في القصيدة الواحدة مثل قصيدة " الوشام " ² :

اعْمَلِ التَّاتَا تَاجَ مَرْصَعٍ بِالْكَوَاكِبِ نُورُهُ يَسْطَعُ

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، الجزائر ، ط1 ، 2014م ، ص 29 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 50 .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَتَّبَعُ
بَيْنَ الْأَيَّامِ وَلِيَالِيهَا
يا الوشَّامُ

وفي ذكر الشمس أيضاً وجدنا تشبيها لها بجمال المرأة فيقول بن مسايب في قصيدة " مَال حُبَيْبِي مَالُهُ " ¹:

بِجَمَالِهِ يَتَنَاعَتُ
عَنْ سَائِرِ الْأَقْرَانِ
مَثُو الْقَمَرَةِ غَارَتْ
وَالشَّمْسُ يَا الْأَخْوَانَ

وبنفس المعنى السابق جاء ذكرها من طرف بن سهلة في قصيدة " كحل العين " ²:

مَنْ زِينَهَا يَفُوتُ الشَّمْسُ وَضَوْ الهَلَالِ
مَا كَانَ حَدَّ مَنْ يُوصِلُهَا فِي الزَّيْنِ

3- القمر : ملهم الشعراء منذ القدم ونديم العشاق من أبرز وأجمل ما تغنى به الشعراء فوصفوه بأعذب الصفات وأجمل المشاعر, إذ سحر الناس بروعة جماله , كونه رمزاً من رموز الجمال والصفاء .

إنَّ ما يسترعي أنظارنا اختلاف أشكاله وتعدّد مطالعه فتراه يلوح ليلة أول الشهر أثر غروب الشمس ضئيلاً مقوساً لا يلبث أن يغرب ويغيب في شفق

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 75 .

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 54 .

الشمس ثم يهّل في الليلة الثالثة في صورة واضحة ويبقى زمناً ويزيد نوره ومطلعه في تقدّم نحو المشرق حتى يطلع في الليلة الرابعة عشرة عند غروب الشمس بَدراً كاملاً باهي الطلعة ، باهر الأنوار فالحالات جميعها وجدناها في الشعر الشعبي .

تحدث عنه الشعراء الشعبيون بكثرة وأبدعوا في إظهار أروع الصور له ، قد يُذكر منفرداً أو مُحاطاً بمجموعة من النجوم ، وذكروه في مختلف حالاته هلالاً ، بَدراً وقمرًا ، يقول بن سهلة في قصيدة " ما يلي صدر حنين " ¹:

يا شُبِيهَةَ شُعَاعِ القَمَرَةِ والمُشْتَرِي مع الزُهْرَاءِ

مَضْرُورٌ مِنْكَ ما نَبْرِي سَاهِرٌ فِي الدَّاجِ حَزِينٌ

صَابِرٌ لِمَوْلَى القُدْرَةِ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ

أرفقه الشاعر بكواكب أخرى كالمشتري والزهرة .

ويقول أيضا في قصيدة " الزهراء إمام البنات " ²:

جَبِينٌ وَفِي ذَابِلِ الأَعْيَانِ فَايِتِ البَدْرِ العَالِي فِي البَهَاءِ والأنْعَاتِ

الخُدُودُ كَمَا بِنُعمَانَ والمرَاشِفُ بالنارِ كَوَاوِنِي فِي الذاتِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 45 .

² - نفسه ، ص 50 .

ويذكر ابن مسايب الهلال في قصيدة " يا قامة غصن الياس " ، ويقرّنه بالغزل إذ شبهه بخدّ معشوقته في قوله ¹ :

يَضْوِي خَدَّكَ مَثْلَ الْهَلَالِ	في ليلة عَشْرَةَ بِالْكَامَلِ
كَيْتَمَايْحُ تَحْتَ الدَّلَالِ	يَتَخَبَّلُ فِي الْأَخْرَاسِ
بِالزُّيْنِ الْفَائِقِ وَالْجَمَالِ	تَسْبِي الْعَاشِقُ بِكِيَّاسِ

4- السحاب :

ذكره الشعراء الشعبيون بمختلف مصطلحاته : السحاب ، الغيام ، الغمام ، لأن هناك فروق بين أنواعها سواء تعلق الأمر بالأوصاف أو الأسماء ، يقول في هذا الشأن ابن منصور الثعالبي في فقه اللغة وأسرار العربية : « أول ما ينشأ من السحاب فهو النشئ . فإذا انسحب في الهواء فهو سحاب وإذا تغيرت له السماء فهو الغمام فإذا كان غيما ينشأ في عُرْضِ السماء فلا تبصره ولكن تسمع رعده من بُعد فهو العقر . فإذا أطلّ وأظلّ فهو العارض . فإذا كان ذا رعدٍ وبرقٍ فهو العراض ، فإذا كان ذا ماءٍ كثيرٍ فهو القنيف ، وإذا كان أبيض فهو المزن والصبير ... ²

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 66 .

² - أبو منصور الثعالبي ، فقه اللغة وأسرار العربية ، شرح وتقديم ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ص 302 .

وفي الشعر الشعبي وقفنا في ذكر السحاب وأنواعه عند بعضهم ، فيقول بن

سهلة في قصيدة " طامو تاج الباهيين " ¹:

بَرْقٌ يَشْعَلُ لَيْلَةَ الظَّلَامِ وَيَضْحَى مِنْ بَعْدِ الغِيَامِ

فِي سَمَاءِ يِشَالِي بِالسَّهَامِ وَرَى حُسْنَهُ مَا أَعْلَاهِ

يَسْبِي مِنْ وَالِعِ بِالأَرِيَامِ هَذَا العَاشِقُ سَبَاهِ

وذكر بن خلوف السحاب والغيم معاً في قصيدة " أَلْفٌ اسْتَمْتَلُوا كَلَامِي "

وهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويكثر من الصلاة والسلام عليه ²:

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ قَدَّرَ حُرُوفَ الجِيمِ مَنْ جَانَا مَبْعُوثٌ بِالفَرَايِضِ وَالسِّنَا

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ قَدَّرَ سَحَابٌ وَغِيمٌ وَعَدَدَ نَجُومٍ كُلُّ دَامَسٍ لَنْ تَفْنَا

وذكره المنداسي بمصطلح آخر وهو " المزون " فيقول ³ :

المزُونُ اتَّبَعَ اخْلَافُو مَسَاوِ لَصْبَاحِ

فِي جَوْ اسْمَاهَا بِمَطَارِهَا قَوِيَّةِ

فكثيرا ما كان السحاب يعبر عن مشاعر الحزن والألم أو عن احتجاب

الأشياء وبعدها من تناول الشاعر .

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 56 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 57 .

³ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 40 .

5- المطر :

هو نعمة من نعم الله التي منّ بها علينا ، فبنزوله تُغسل القلوب ونشعر بالراحة والسعادة و ذكره لدى الشعراء العرب كان دائماً يوحي بالأمل واستمرار الحياة وارتسام الابتسامة ونسيان الهموم وعادة ما يُشعر بالحنين إلى كلّ شيء ابتعد عنه كالطفولة مثلاً ، فهو يغسل القلوب من الأحقاد يدلّ على الرجوع إلى الأصل دون تصنّع ، وهنا تذكرنا الحكمة التي تقول : " بعد العاصفة يأتي المطر وبعد الغيوم تشرق الشمس " . وهو كذلك أنواع ربّتها الثعالبي يقول : « أخف المطر وأضعفه الطلّ ثم الرذاذ أقوى منه ، ثم البغشّ والدثّ » .

وقال : « أول المطر رش وطش ، ثم طلّ ورذاذ ، ثم نضح وهو قطر بين قطرين ، ثم هطل وتهتان ، ثم وابلٌ وجودٌ »¹ .

ذكره بن سهلة في قصيدة " ما عندي مرسول " بقوله² :

كَيْفَ زَمَانَ اللَّيِّ تَأَه	عَنِّي بَعْدَ رُضَاه
آه عَلَى مَنْ رَاه	تَعْطَفَ أَمْطَارَ الْجَوِّ مِنَ السَّحَابِ
يَجْرِي الْمَاءَ مَجْرَاه	وَالظَّمَا يُبْعِدُنِي بَعْدَ الشَّرَابِ

¹ - أبو منصور الثعالبي ، مرجع سابق ، ص 303 .

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 81 .

وعادة ما يرفق الشاعر الشعبي المطر ويشبّهه بالدموع ، يقول بن سهلة في

قصيدة " عاداوني الأحباب " ¹ :

وَلَاوَا نَمُوْعِي كَالْأَمْطَارُ يَجْرِيوَا اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارُ

وَبَقِيْتُ أَنْوَحُ فِي الْأَوْكَارُ وَالنُّوْمُ عَلَيَا غَابُ

مَاذَا جَرَعْتُ مِنَ الْمُرَارُ قَلْبِي مَن هُوَاهُمْ طَابُ

وذكره أيضا بن مسايب في نفس المعنى في قصيدة " عبيت وأنا نذمم " ² :

اعْبِيْتُ وَأَنَا نَذَمُّ مَا نَفَع تَذَمَّام دَمَعْتِي عَلَى خَدِي تَجْرِي كَالْمَطْرُ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 116 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 90 .

5- البرق :

يذكر أنه أنواع حسب رأي أبي منصور الثعالبي فيقول : إذا لمع ، وأطمع
ثم عدل قيل له خُلب، بمعنى أنه (الخلبُ)¹ هو البرق الذي لا غيث فيه ويطلق
هذا الاسم على السحاب أيضا الذي يبرق و يردد و لا مطر فيه ، و في حديث
شعرائنا عنه نذكر قول ابن خلوف في قصيدة " قدر ما في بحر الظلام " ²:

صَلَّى اللهُ عَلَى مَنْ عَطَاهُ رَبِّي النَّصْرَ

قَدَرَ الرِّيشُ وَ مَا تَلَايِمُ مِنْ شَعْرَ

قَدَّرَ الْعَايِشُ وَاللِّي مَضَى تَحْتَ الْقَبْرِ

قَدَّرَ السَّاكِنَ فِي الْبَرِّ وَاللِّي فِي الْبَحْرِ

وَعَدَدَ السَّجَدَاتِ مِنَ الْفَجْرِ لِلْفَجْرِ

قَدَّرَ الْبَرْقُ وَ مَاذَا يَدُورُ بِهِ الْقَدَرُ

و ذكره أيضا بن سهلة عندما شبه معشوقته لحسنها و بهائها بضياء البرق

في الليل المظلم في قصيدة " طامو تاج الباهيين " ³:

بَرْقٌ يَشْعَلُ لَيْلَةَ الظَّلَامِ وَيَضْحَى مِنْ بَعْدِ الْغِيَامِ

¹ - أبو منصور الثعالبي ، مرجع سابق ، ص 302 .

² - سيدي الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 50 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 56 .

فِي سَمَاءِ يُشَالِي بِالسَّهَامِ وَرَى حُسْنَهُ مَا أَعْلَاهُ
يَسْبِي مَنْ وَالَعَ بِالْأَرْيَامِ هَذَا الْعَاشِقُ سُبَاهُ

6- الرعد : وظف هذا المصطلح المنداسي في قصيدة " الربيع أقبَلْ يَا أَهْلَ

الْحَمِيَّة " ¹ :

الرَّبِيعُ أَقْبَلَ بِجِيُوشُو بَرْقٍ وَرِيَّاحٍ

وَالرَّعْدُ اطْبُولُو رَنْتَ عَسْكَرٍ وَقَوِيَّةٍ

7- الثلج : هو الآخر كان حاضراً في شعر التلمسانيين الشعبي لكن بشكل

ضئيل ، قال عنه بن سهلة في قصيدة " يوم الخميس " ² :

الأَصْبَاعُ يُوهِجُوا بِخَوَاتِمَ زَادُوا مَحْنَتِي وَعَذَابِي
الْبَدَنُ تَلْجُ فِي جَبَلٍ رَاسِمَ وَالسَّاقُ بَرْدْفِيهِ يَسْبِي
مَا كَانَ مِثْلَهَا فِي الْعَوَارِمِ سُبْحَانَ اللَّهِ مَنْ يُصَوِّرُ رَبِّي

كما قال ابن مسايب في قصيدته " يَا أَهْلَ الْهُوَى " ³ :

يَا أَهْلَ الْهُوَى حُبِّي عَذْرًا بَاهِيَّةً جَمِيلَةً مَسْرَارًا

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 40 .

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 39 .

³ - بن مسايب ، ديوانه ، ص 162 .

وَعْيُونَ لَهَا دَعَجٌ سَكَارًا	خَدَّيْهَا وَشَفْتَهَا حَمْرًا
يَضُوي ضِيَا قَمْرًا الدَّارَا	جَبِينٌ بِيَانٌ مَوْنُ الغُرَّا
تَحْتِ الرَّقَبَةِ يَا مَا إِعْلَاهَا	جِيدُهَا بَعْقُودٌ مَلَأَتْكُمْ
وَالشَّفْرِ كَمَا اللَّيْلِ إِكْسَاهَا	وَبَدَنٌ كَالثَّلْجِ الرَّاسِمِ

فدائما كانوا يصفون بدن المرأة بالثلج دلالة على بياضها .

8- الليل والنهار :

أبدى الشاعر مكانة ليل منذ أمدٍ بعيد ، فهو يمثّل عنده علامة تشير إلى الحزن والخوف والهموم والمصائب ، فيظهر طوله بمعاناة الشاعر وإحساسه النفسي منتظراً زواله بظهور النهار ، هذا ما نراه في قول امرؤ القيس¹ :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُودَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي

فالليل يتواطأ دائماً مع الخيبة والقلق .

كما يظهر في بيت الأعشى كذلك الذي نظر إليه نظرة التألم في الحياة ،

فيقول² :

وَيَهْمَاءُ بِاللَّيْلِ غَطَشَى الْفَلَاةَ يُؤْنَسُنِي صَوْتُ فَيَّادِهَا

وهذا ما رأيناه عند شعرائنا الشعبيين أمثال الشيخ بومدين بن سهلة في

قصيدة " لمتى يهنى قلبي " ³ :

يَا مَنْ زِينَكُ مَشْنُوعٌ عَلَى الْأَرْيَامِ حَرَمٌ عَنِي قُوتِي وَكَثْرٌ سَهْرِي

طُولُ اللَّيْلِ نَحَمَّمْ حَرَمٌ عَنِّي الْمَنَامِ يَا مَنْ حُبُّكَ إِلَّا عَلَيْهِ شُكْرِي

¹ - امرؤ القيس ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 18 .

² - الأعشى ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 73 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 65 .

وفي القصيدة الرائعة " اِعْيَتْ وَأَنَا نَزَمُّ " لابن مسايب يذكر حلول الليل وما

يصحبه من نسيم وظهور نجم الغرار ، فيقول ¹:

عَسَسَ اللَّيْلُ رَأَهُ هَبَّ نَسِيمُهُ وَاسْتَقَامَ - يَا حَمَامَ - بَانَ نَجْمُ الْغَرَارِ وَزَيْقُ لَفْجَرِ

نَطَقَ الطَّيْرُ فِي وَكْرِهِ بَعْدَ الْإِحْتِكَامِ فَاقَ مِنْ شِدَّةِ الْهَوَى وَنَغَايِمِ الْوَتْرِ

كَيْفَ نَعْمَلُ هَذَا جَهْدُهُ يَحْلَى الْمَدَامَ ضَمَّ حَبِيبَكَ لَرَوْ لِيكَ وَأَسْقَرُ

وذكره ابن مسايب بلفظ آخر وهو " الدَّجَا " مظهراً كالعادة همّه وحزنه

الشديد الذي جعله يمشي وحده في الدَّجَا للتفتيس عن غمّه فيقول في قصيدة " لا تُلُومُونِي " ²:

هَمِّي هَمُّهُ وَهَمُّهُ هَمِّي خَايِفٌ مِنْ خَايٍ وَبِنِّ عَمِّي

فِي خَاطِرِي حُبِّي مَا نَكَمِي فِي الدَّجَا نَمَشِي لُو

فِي الدَّجَا نَمَشِي لُو أَيَّمَا عِنْدَ حُبِّي نَفَجِي الْغُمَّةُ

رَأَهُ عَارَفُ اللَّيِّ تَمَّا مَنْ يَجَوِّزُ خَلِيلُو

أمّا ذكر النهار فعادة ما كان يقترن بذكر الليل فيتمنى الشاعر زوال الليل

لأنّه مصاحب للحزن والأسى والتفكير لينجلي بحلول النهار ، فكان في أغلب

الأحيان يدلّ على الفرحة وجلاء الحزن والغمام ، وصفه ابن مسايب في قصيدة

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 94 .

² - نفسه ، ص 72 .

" مَا أَزَيْنُ نَهَارَ الْيَوْمِ ¹ عَلَى أَنَّهُ أَجْمَلُ نَهَارٍ فِي حَيَاتِهِ لِأَنَّهُ رَأَى فِيهِ مَحْبُوبَتَهُ
فَغَمَّرَتْهُ الْفَرِحَةُ وَالسَّعَادَةُ وَتَمَنَّى عَدَمَ زَوَالِهِ ، فَيَقُولُ :

مَا أَزَيْنُ نَهَارَ الْيَوْمِ	مَا أَزَيْنُ نَهَارَ الْيَوْمِ
وَتَقَاجُؤًا لِي الْهَمُومِ	لَقِيتُ فِيهِ كَحُلِّ الْحَاجِبِ
مَوْلَى الْعَيُونِ زِينَهُ عَذْبُ	لَقِيتُ فِيهِ كَحُلِّ الْحَاجِبِ
بِالْهَجَرِ وَلَجْفًا وَلَلُّومِ	بِهَوَاهُ رَأَى جَسْمِي ذَائِبِ

وذكره أيضا في قصيدة أخرى بعنوان " هكذا أراد وقدر " مقترنا بذكر الليل ومظاهر كونية أخرى ليظهر عظمة الخالق وبيدع صنعه ، فيحمده على تسخيره لنا الليل والنهار والقمر والسماء والأفلاك ...، فيقول ²:

نَحْمَدُ وَنَشْكُرُ مَنْ سَخَّرَ اللَّيْلَ وَنَهَارَ	قَمَرَ وَشَمْسَ وَالْأَفْلَاقَ بِالنُّجُومِ
الْأَرْضِيْنَ وَالسَّبْعَ النَّائِرَةَ نَوَارَ	وَالْبُرُوجَ وَمَا فِيهِمْ قَوْمَ بَعْدَ قَوْمِ

ذكر النهار أيضا بن سهلة في قصيدته " عاداوني الأحباب " ، ليعبر هنا عن حزنه الشديد وسيلان دموعه ليلاً ونهاراً مبيناً عدم توقفه عن البكاء لابتعاد الأحباب عنه وهجرهم له ، فيقول ³:

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 68 .

² - نفسه ، ص 110 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 116 .

وَلَاؤُ دُمُوعِي كَلِمَطَارٍ يَجْرِيوُ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ
 وَبَقِيْتُ أُنُوحٌ فِي الْأَوْكَارِ وَالنُّوْمُ عَلَيَا غَابُ
 مَاذَا جُرَعْتُ مِنَ الْمَرَارِ قَلْبِي مَنْ هَوَاهُمْ

هذا ودون أن ننسى أن الشاعر الشعبي قد تحدث عن النهار وجميع المراحل التي تتعاقب عليه من صباح ، ظهر ، مساء ...

يصف ابن مسايب أول ظهور للفجر بظهور الغرار ، فيقول ¹:

عَسَّسَ اللَّيْلُ رَاهُ هَبْ نَسِيمُهُ وَاسْتَقَامَ - يَا حَمَامَ - بَانَ نَجْمُ الْغَرَارِ وَزَيْقُ الْفَجْرِ
 نَطَقَ الطَّيْرُ فِي وَكْرِهِ بَعْدَ الْإِحْتِكَامِ فَاقَ مِنْ شِدَّةِ الْهَوَى وَنَغَايِمِ الْوَتْرِ

وأورده في قصيدة " هاجت بالفكر أشواقِي " ²:

الْفَجْرُ اعْزَمَ بِفِرَاقِي لَكِنِ أَنَا مَحْبُوبِي مَا نَطِيقُشْ نَفَارِقُوا

كما ذكر الصباح والمساء في قصيدته المشهورة " يَا الْوَشَّامُ " ³:

اعْمَلِ الْهَاءَ هَيْفَاتٍ مَلَّاحٍ نُورُهُمْ يَضْوِي كَالْمَصْبَاحِ
 جَالِسِينَ كُلُّ مَسَا وَصَبَّاحٍ عِنْدَ مَنْ يَجْمَعُنِي بِهَا

يَا الْوَشَّامُ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 94 .

² - نفسه ، ص 144 .

³ - نفسه ، ص 54 .

و بن خلوف ذكر هو أيضا الفجر في قصيدة " مفتاح خير الآ ينفذ " التي

يمدح فيها خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول ¹:

يَا سَيْدَهَا غَرْبٌ وَمَشْرِقٌ أَمَامَهَا جُوفٌ وَقُبْلَا
 مَنْ نُورِكَ النِّعْمَانُ شَرِقٌ مَنْ رَيْقِكَ عَسَلُ النَّحْلَا
 فَقَتُ الْفَجْرِ إِذَا يَنْشَقُ نُورِكَ كَالْبَدْرِ إِنْ يَعْلَا
 مَنْ سَيْلُ عَرَقِكَ طَابَ الْوَرْدُ يَا اللَّهُ رَاغِبُكَ فِي وَحْدَةٍ
 زُورَةَ لِلْقَبْرِ لِمُجَّدٍ لَهَا شَمِي زَيْنُ الْبُرْدَةِ

9- الأرض :

جاءت لفظة الأرض في مواطن عديدة من الأشعار الشعبية ، قال عنها بن

سهلة أنها بكت لبكائه وحزنت لحزنه لفراقه عن محبوبته ، فيقول في قصيدة

" كَحَلُّ الْعَيْنِ " ² :

بَكَّيْتُ الْحَجَرَ وَالْأَرْضَ الْعَطْشَانَ وَجَمِيعَ مَا خَلَقَ رَبُّ الْعَالَمِينَ
 فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَأَهْلَ الرَّبْعِ أَرْكَانَ وَبَكُّوا الْمُلُوكَ الرُّوحَانِيِّينَ
 عَلَى فِرَاقٍ وَلَفِي ذَابِلِ الْأَعْيَانِ مِنْهَا مَرِيضٌ كِيَاتِي مَخْتَلِفِينَ
 هَيْفَاءَ غَرَامَهَا جَانِي بِالْقُومَانِ يَا نَاسَ صَا لِي جُمُوعَ قُوبِينَ

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 79 .

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 53 .

وبحديثنا عن الأرض علينا الإشارة إلى أنماطها ، فهناك الأرض القاحلة ،
الجرداء ، وهناك الخضراء ، هناك الصحاري ، الفيافي ، الوقفار ، الفلاة ، كلها
لقت نصيبها في شعر هؤلاء نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر قول ابن
مسايب في قصيدة " يَا الْوُرْشَانَ " ¹:

مَيِّزُ الْأَرْضِ وَأَصْبَحَ شَوَّافٌ عَمْدُ قَبَالَةَ لِلْعَطَّافِ
اقْطَعْ أَشْلَفَ سَامِي الْأَجْرَافِ بَاتَ مَنْ هَذِيكَ الْجِبِهَا

ونذكرها أيضا سيدي الأخضر بن خلوف في قصيدة " سيد المهاجرين وسيد
الأنصار " ، وفي نفس القصيدة ورد لفظ الصحراء فيقول ²:

عَلَيْكَ الصَّلَاةُ يَا سَيِّدَ الرُّسُلَا الْمَطْبُوعِ فِي الْبَرِّ وَالسَّمَاءِ وَالتَّلُّوْلِ وَالصَّحْرَا
فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ يَا الْمُصْطَفَى مَسْمُوعِ اعْتَقَّتْهَا مِنْ الشَّرْكَ خَلِيَّتْهَا حُرًّا
والشاعر نفسه ذكر الفلاة في قصيدة " إِلَّا وَجْهَ الْحَبِيبِ غَابَ " ³ :

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَدَّرَ جَمِيعَ الرِّيشِ وَوَبَّارَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَاتِ تَهُومِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَدَّرَ نَبَاتَ حَشِيشِ وَعَدَدَ الْأَعْوَامِ وَالشُّهُورِ لَيْلًا وَيَوْمِ
وَعَدَدَ أَصْنَافِ النُّوَاوِيرِ بِالتَّتَقِيشِ وَمَا فِي الْبَحْرِ وَكَافَّةَ الْأَمْوَاجِ اِطْمُومِ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 168 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 87 .

³ - نفسه ، ص 109 .

ونكرها أيضا بن سهلة في قصيدة " الزهراء إمام البنات " ¹:

حُبَّهَا جَانِي بِالْقُومَانِ حَرَمَ الثُّومِ عَلَيَا صِرْتُ سَاهِرٌ نَبَاتُ
جَابَ لِي نَحْوَ مَيَاتِ عَنَانُ ذَا الْغَرَامِ فَنَانِي يَا خَايَ هَمَّتْ فِي الْفَلَاةِ

ونكرها ابن مسايب بمصطلح " الفيافي " في قصيدة " يا الورشان " ²:

بَاتُ سَائِرٌ وَأَصْبَحَ غَوَّارُ فِي الْفِيَا فِي وَأَوْطَانُ قَفَّارُ
أَدْخَلَ مَصْرٌ وَفِيهَا اخْتَارُ فِي الْحَسَنِ دَارُ اكْرِيهَا

هذا وقد جمع بن سهلة كل من مصطلحات الفلوات ، الفيافي ، القفار في

قصيدة واحدة " ذاق أمري " يصف فيها لوعة الفراق عن الأحباب وهجرهم إياه ³:

حَالِي حَالُ اللَّيِّ يَفَارِقُ الْأَحْبَابُ النَّاصِحِينَ وَالْأَهْلُ وَالْأَوْكَارُ
بَشَوَامَخَ رَائِقِينَ بَاسِقُ فِي رُوسِ الْفَلَوَاتِ وَفِيَا فِي وَقَفَّارُ
يُظَلُّ يِرَاقِبُ الطُّوَارِقُ زَعْمًا مَنْ يَجِي يَعَاوِدُ لُو الْأَخْبَارُ
يَرْمِيهِ الْوَحْشُ بِالْمَرْزَاقُ يَطْعَنُ قَلْبُو وَيَحْرِقُ اكْبَادُو بَانَارُ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 48 .

² - بن مسايب ، ديوانه ، ص 171 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 74 .

10- السماء :

عادة ما كانت تُذكر السماء في الشعر الشعبي مقترنة مع الأرض ، فإذا أراد الشاعر إظهار عظمة وقدرة الخالق يذكر أهم المظاهر الكونية منها السماء والأرض ، وكانت تذكر أيضا للدليل عن البعد ، فيمثله بالبُعد بين السماء والأرض ، يقول بن سهلة في قصيدة " كحل العين " ¹:

كَانَ مَتَّ يَا مَنْ تَفْهَمُ مَوْتِي حَالًا مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ فَرْقَةٍ كَحَلِّ الْعَيْنِ
يَا رَافِعُ السَّمَاءِ يَا عَالِمَ بَكُلِّ حَالٍ يَا خَالِقَ الْعِبَادِ بَجَاهِ الْحَسَنِينَ
لَقِينِي بَوَلْفِي طَالِقَةَ الدَّلَالِ وَبِهَا جَمَعَ شَمْلِي بَجَاهِ الْأَمِينِ

ويقول عنها الأخضر بن خلوف في قصيدة " قدر ما في بحر الظلام " ² :

قَدَّرَ مَا لَبَسَتْ الْأَرْضُ مِنَ اللَّبَاسِ جَدِيدٍ
وَمَا صَبَّتْ الْأَمْطَارُ مِنْ سَمَاهَا تَفِيضُ

وذكرها ابن مسايب في قصيدة " الوشام " فقال ³:

اعْمَلِ السَّيْنَ سَمًا بَرَقَاقُ وَكُلُّ مَا يَدْرُوهُ الْعُشَّاقُ
السَّمَاءَ وَسَبْعًا طَبَاقُ فِي أَوْقَاتِ اللَّهِ يَحْضِيهَا

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 54 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 50 .

³ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 54 .

يَا الْوَشَّامُ

11- البحر :

يعتبر البحر من أجمل المناظر الطبيعية التي تبعث الراحة على القلوب ، فهو الصديق الذي يسامر الإنسان في وحدته وهو المعشوق الذي يذيب العاشقين ، فلا شيء يظاهي جماله ، وروعته وسحره ، تغنى به العديد من الشعراء هناك من ذكر جماله وقت الغروب وهناك من اعتبره موطنه ، يحفظ سره ويسمع أحزانه ، بين موجاته المتتالية رسائل متناغمة ن ذكريات وأزمنة تنتشع الروح برائحة الحياة عند رؤيته ، وتطرب الأذن لسماع موسيقى الموجة الهادئة .

أصبح هذا العنصر الطبيعي أكثر ذكرا من ذي قبل ، وبدأ أثره يظهر في أشعارهم وازداد ذكره في الشعر الأندلسي لازدياد أهميته في حياتهم ، فوصفوا البحر ورحلاتهم وأهم المعارك البحرية والسفن والأساطيل وعادة ما ارتبطت صورة البحر في الغالب بالخوف والرعب ، ذكره ابن مسايب في قصيدة " الوشَّام " بقوله ¹ :

اعْمَلِ الصَّادُ أَصْحَابُ اللّهُوْ وَاَنْطَرِبْ مَعَهُم بِالزَّهْوِ

ارْكَبْ سَفَائِنَ بَحْرِ السُّهُوْ وَسَطِّهَا وَالذِّضَائِرِ بِهَا

يَا الْوَشَّامُ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 53 .

يدلّ ذكر البحر في هذا المقام على غوصه في بحر الهموم والتفكير
والسهو .

وفي أخرى بعنوان " يا فَاهِمٌ " يرمز إلى البحر على أنه مكان خوف ورعب
ينعدم فيه الأمن ولا يمكن الوثوق به فشبهه بالصاحب الخائن الذي علينا الحذر
منه فيقول ¹ :

تُرَى كُلَّ فَايِدَةٍ وَالسَّرِّ أَكْمِيهِ سَأَلَ أَهْلَ الْعَشَقِ وَالْغَرَامِ
أَهْلَ الْفَعْلِ الذَّمِيمِ زُمْرَةَ السَّفِيهِ أَبْعَدَ مَنْ خُلْطَةُ الرِّيَامِ
الْخُلْطَةُ بَحْرٌ وَالْبَحْرُ مَا فِيهِ أَمَانٌ أَمَا غَرَّقَ مَنْ سَفُونُ
غَرَّقُوا فِيهِ اللَّعِينِ وَوَزِيرُهُ هَامَانٌ وَعَسَاكِرُ ضَلُّوا الْفُتُونُ

كما جاء ذكره من قبل ابن مسايب دائما في قصيدة " هاجت بالفكر
شواقي " ² :

هَاجَتْ بِالْفَكْرِ أَشْوَاقِي وَتَهَوَّلَ بَحْرِي مَا وَرِيحٌ وَتَقَلَّقُوا
مَنْ كَثُرَ أَمْوَاجُ اخْلَاقِي رَانِي خَائِفٌ مِنْهُمْ جَوَارِحِي يَغْرُقُوا
مَا صَبَتْ نَهَارٌ يَلَاقِي هَلْ بَعْدَ الْفُرْقَةِ نَشُوفٌ مَنْ نَعَشَقُوا

لَاقِي يَا رَبِّي لَاقِي

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 124 .

² - نفسه ، ص 143 .

إذ شبّه هيجانه وأفكاره شوقاً بتهوّل البحر وثوران أمواجه لدرجة أنه يخاف أن تغرق جوارحه في هذا البحر الغامق إنها حقا صورة فنية رائعة يصف لنا الشاعر فيها نفسيته ويصوّرها بحالة البحر .

وفي صورة جميلة أخرى أبدع بن سهلة في وصفه في قصيدته " ندعكم الله " يقول ¹ :

يَا الْأَحْبَابُ دَبُّرُوا عَلَيَّ الْمُبْتَلِي بِهِ بَلَائِكُمْ اللَّهُ وَبِكُمْ بَلَاءَهُ
عَذَّبْتُونِي يَا خُوشَمَ التُّرْكَلِي وَرَمَيْتُونِي فِي اللَّهَيْبِ مَا أَقْوَاهُ
مَا نَسَاكُمْ لَوْ طَالَ بِي أَجْلِي وَلَوْ عَشْتُ مَا عَاشَ نُوحٌ فِي سَنَاهُ
أُنْسَيْتُ أَحْبَابِي وَخَاوَتِي مَعَ أَهْلِي نَتْرَجِي فِي وَصَالِكُمْ وَرِضَاهُ
رَمَيْتُونِي فِي بَحْرِ صَائِلٍ لَا قَرِيبَ رِيَّاحُهُ مَتَدْرَكَةٌ قَوِيَّةُ
الْبَرِّ مَا ظَهَرَ لِي ذَاكَ وَصُولُهُ صَعِيبَ غَيْرِ الْأَمْوَاجِ تَلَاظَمُوا عَلَيَّ
يَا جِيرَانِي دَبُّرُوا عَلَيَّ

مثلّ الغربة والحنين إلى الوطن والأهل والجيران بالبحر البعيد عن البرّ والوصول إليه صعب ، وخوفه من أمواجه المتلاطمة ورياحه القوية .

وذكره أيضا في قصيدة " كيف أعْمَالِي وَحِيلَتِي " فيقول ² :

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 119 .

² - نفسه ، ص 77 .

قَالَ الْمَرْسُورُ يَا عَجَبٌ ذَا الشَّيْءِ مَنْ قَلَّةُ الذَّهَبِ
 كَمَا قَالَتُوا أَهْلُ الْأَدَبِ فِي السَّابِقِ كَلَّتْهُ ظَهْرُ
 الْمَالِ يَشْرَفُ النَّسَبُ وَيُدِيرُ طَرِيقَ فِي الْبَحْرِ

وقال عنه الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف في قصيدة " إلا وجه الحبيب

غاب " يقول¹:

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ قَدْرَ جَمِيعِ الرِّيشِ وَوَبَارَ الْوُحُوشِ فَلَفَلَاتِ تَهُومِ
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ قَدْرَ نَبَاتِ حَشِيشِ وَعَدَدِ الْأَعْوَامِ وَالشُّهُورِ لَيْلًا وَيَوْمِ
 وَعَدَدِ أَصْنَافِ النُّوَاوِيرِ بِالنُّتْقِيشِ وَمَا فِي الْبَحْرِ وَكَافَّةِ الْأَمْوَاجِ أَطْمُومِ
 وفي هذا المقام يصلي الشاعر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكثر

من الصلاة عليه بعدد أمواج البحر ، وفي نفس القصيدة يقول²:

يَا لَأَيْمٍ لَا تَلُومَ عَاشِقٍ فِي مَعْشُوقِ خَلِيهِ فِيمَا قَضَى اللهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ
 لَوْ تَشْرَبُ مِنْ غَوَامِقِ بَحْرِ الشُّوقِ تَعَدَّرَ بِالْحَقِّ الْمَوْلَعِ فِي حُبِّو

فيمتثل شوقه لخير الأنام بعمق البحر .

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 109 .

² - نفسه ، ص 110 .

12- الجبال :

عادة ما كان يذكرها الشعراء للدلالة على العلوّ أو البعد وعدم التمكن من الوصول إلى المراد ، ذُكر كثيرا في شعر الأخضر بن خلوف ، نذكر على سبيل المثال قوله في قصيدة " مفتاح خير الأينفد " ¹:

لَوْ كَانَتْ الْأَكْوَانُ جِبَالًا يُقَالُ فِيكَ أَنْتَ الرَّبْوَةُ ²

لَوْ كَانَتْ الْأَكْوَانُ أَجْمَالَ يُقَالُ فِيكَ أَنْتَ الدَّرْوَةُ

إذ يشيد الشاعر في هذه الأبيات بعظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيعته واعتبره هو المقام الأعلى والأسمى من الجبال بذكره للربوة لو كان الكون كله عبارة عن جبال .

ولقي مصطلح الجبال أيضا نصيبا وافرا من الذكر في شعر بن سهلة ، يقول في قصيدة " لمتي يهنى قلبي " ³ :

يَا مَنْ زِينَاكَ مَشْنُوعٌ فِي الدُّنْيَا لَمَتِي صَابِرٌ نَرَجَاكَ فِي زَمَانِي

لَوْ سَلْتُ جَبَلًا عَالِيًا مِنَ الْعَلْيَا لَوْ كَانَ أَصْغَى لِي وَكَلْمَنِي

لَوْ كَانَ شَكَرْتُ غَنِيًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَاللَّهِ لَا بُدَّ لِي وَكَا فِينِي

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 81 .

² - الربوة : قمة الجبل ، أعلاه .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 65 .

وذكره في قصيدة أخرى بعنوان " كيف أعمالي وحيلتي " على أنه ملجأ

الهارب من متاعب وهموم الدنيا فيقول¹:

قَالَ لَهَا قَلَّةَ الْمَالِ تَفَنَى يَا فَاطِمَةَ الْغَزَالِ
 الْهَارِبِ يُوعَدُ الْجِبَالَ يَمْنَعُ فِيهِمْ وَيَسْتَقِرُّ
 الصَّاحِبُ يَصْحَبُ الْأَبْطَالَ وَالْمَالُ عَلاشُ يَنْذَكُرُ

وذكر الجبل أيضا بن سهلة في قصيدة " ما عندي مرسل " على أنه المكان الذي تسكنه محبوبته وهو جبل لالا ستي ، يُظهر لنا من خلال قوله على أنها بعيدة المنال² :

أَهْ عَلَى مَنْ شَافَ الزَيْنَ ظُرَيْفَ الْأَوْصَافِ
 بَعَدْتَنِي بِزَافٍ يَا خَايَ لَهَا مَا صَبَتْ بَابُ
 جَاتُ فِي رُوسِ الْأَجْرَافِ عَالِيَةً عَلَى جِبَلِ سَتِي وَالْقَبَابِ
 جَاتُ فِي رُوسِ الْجِبَالِ ذَا الْغَزَالَةَ يَا عَقَالَ
 بَيْنَ الْأَسَدِ وَالْأَهْوَالِ وَالنَّعَابِنِ وَالنَّمُورَةَ أَهْلَ الرِّقَابِ
 نَاسٌ كَحَيْلِ الْأَنْجَالِ مِنْ هَوَاهُمُ لِبَدَا يَهَابِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 77 .

² - نفسه ، ص 81 .

أما بن مسايب فقال عنها في قصيدة رائعة بعنوان " أراد كيف فعل " يتغنى

فيها بجمال تلمسان وأهم ما تزخر به من مناظر من بينها الجبال¹:

كَانَتْ بَعْرٌ عَظِيمٌ وَشَانَ مَرْتَفَعٌ مَنْ يَرَاهَا يَتَمَنَّاها فِي الشَّرِّ
بَاهِيَةً صَفْتَهَا مَكْمُولَةَ الطَّبَعِ صَبَاحُهَا وَمَسَاها يُغْنِي عَنِ الْفَقْرِ
عِنْدَهَا صُورٌ مَدُورٌ مَحْصَنٌ لِلْمَنْعِ فِي الْحَجْرِ جِبَالُهَا حُرْزُهَا بِالْوَعْرِ

وذكر أيضا في نفس القصيدة مظهر موقع مدينة تلمسان وحدودها إذ يحدها

جبال بني سنوس الشامخة التي تتميز بهوائها النقي ومائها العذب المنحدر منها

فيقول²:

عِنْدَهَا وَطَنٌ عَجِيبٌ وَعِنْدَهَا غُرُوسٌ بِالْفَوَاكِي وَالْخَيْرِ وَكُلِّ مَاشِيَةٍ
جَاتَ بَيْنَ تَرَارٍ وَجِبَالِ بَنِي سُنُوسٍ عِنْدَهَا نَحْوُ الْعِشْرِينَ أَلْفَ سَافِيَةٍ
مَنْ هَوَاهَا وَمَنْ مَاهَا تَرْتَاخُ النُّفُوسِ لَأَوْجَدْتُهُمْ أَرْضُ بِأَمْوَالٍ غَالِيَةٍ
خَيْرَهَا يَأْسِرُ وَمَا فِيهِ مِنْ فُلُوسٍ حَاطَ بِهَا الْكَسْبُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 98 .

² - نفسه ، ص ، ص 99 ، 100 .

13- النباتات :

لَمَّا وَهَبَ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ تَلْمَسَانَ بَيْئَةً جَمِيلَةً تَحْتَوِي عَلَى مَنَازِرٍ طَبِيعِيَّةٍ تُسَرُّ^١
النَّاطِرِينَ مِنْ سَهُولٍ وَحُقُولٍ وَبَسَاتِينٍ وَحَدَائِقٍ وَرِيَّاحِينَ ، تَمْتَازُ بِاعْتِدَالِ هَوَائِهَا
وَجَوْهَا وَنَسِيمِهَا الَّذِي يَشْفِي الْعَلِيلَ ، كُلُّ هَذَا وَغَيْرِهِ كَانَ مَصْدَرَ إلهَامِ الشَّاعِرِ
التَّلْمَسَانِيِّ فَأَخَذَ يَمَجِّدُهَا - الْعُنَاصِرَ الطَّبِيعِيَّةَ الصَّامِتَةَ - وَيَمَجِّدُ حَضَارَتَهُ وَبَيْئَتَهُ ،
وَسَنَقُومُ بِإِدْرَاجِ بَعْضِ مَا ذَكَرَهُ الشُّعْرَاءُ وَتَفَنَّنُوا فِي وَصْفِهِ وَتَمَثِيلِهِ وَإِعْطَائِهِ أَجْمَلَ
الصُّورِ وَاللُّوْحَاتِ مِنْ أَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ .

أ- الأزهار والورود :

أظهرت الورد والأزهار ما يسرُّ العيون بأنواعها المتعددة واختلاف ألوانها ،
فحاول الشاعر الشعبي التلمساني تجسيد هذا الجمال في شعره ، ومن أروع ما
قرأناه في هذا الشأن ما قاله ابن مسايب في قصيدة " مَا أَزَيْنَ نَهَارَ الْيَوْمِ " ¹ :

يَا عَاشِقِينَ نَلْقَى الْإِجْدَلَ	عِنْدَهُ شَفَارٌ بِهِمْ يَقْتُلُ
نَفْنَى إِذَا تُجِي تَزْعَبَلُ	تَمَثِيلُ بَدْرٍ بَيْنَ نَجُومِ
الْحَدُّ وَاشْ فِيهِ مَكَلَّلُ	نَخْنِيهِ وَرَدٌ فِي مَشْمُومِ

وقال عنه أيضا في قصيدة " مَا لِحَبِيبِي مَالُهُ " ² :

يَا عَلَى مَنْ شَافُو	يَتَمَتَّعُ بِأَوْصَافُو
-----------------------	--------------------------

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 68 .

² - نفسه ، ص 75 .

وَخُدُودُهُ وَشَفُوفُو
وَالْمَبْسَمُ عُقْيَانُ
فُوقُ الْوَجْنَةِ حَافُوا
الْوَرْدُ وَبِنُ نَعْمَانُ

والشاعر الشعبي بن سهلة يصف خدود المرأة بالورد الفاتح بالرائحة العطرة في أجمل تصوير ، فيقول في قصيدة " أنا المححون من غرامك " ¹:

فُوقُ جَبِينِكَ رَيْتُ عَظْمٌ وَخُدُودَكَ وَرَدٌ فَاحٌ
وَالرَّقِيبَةُ تَائِفَةٌ طَوِيلَةٌ نَحْكِي جِيدَ الْغُزَالِ
الشَّعْرُ مَخْبَلٌ زَادَ بِهَاهَا الْهَمَّةَ وَالشَّبَابَ

وَالْبَدَنُ نَعْنِيهِ تَلَجَّ رُسِي غَطَى رُوسَ الْجِبَالِ

ويقول عنه أيضا مقرنا إياه بجمال المرأة دائما في قصيدة " غلبتكم فاطمة " ²:

الْعِيُونُ مَذْبَلِينَ كَحَلِّ زَنْجِينِ طَعْنُونِي يَا قَرَائِحِي مِثْلَ الْحَرَبَاتِ
الشَّفْرُ هَنْدِي هَوَى عَلَى رُوسِ الْخَدِينِ طَلُّوا مِثْلَ الْخَلِيحِ مِنْ فُوقِ الْوَرْدَاتِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 35 .

² - نفسه ، ص 51 .

ووقفنا عند قول رائع لابن مسايب في قصيدته " يَا فَاهْمُ " يذكر فيه الورد
ويصوره عند تفتّحه بانفراج الهم وحلول الهناء والسعادة في قلب الإنسان
فيقول¹ :

أَشْرَقَ بَدْرُ الْمُنِيرِ قَرَّبَ لِحُجُوبِ	وَأَصْبَحَ يَوْمَ نَهَارِ عِيدِ
يَنْزِلُ عَلَيْهِ الضِّيَاءُ وَأَجَلَى الْحُزْنَ عَلَيْهِ	طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْغِيَامِ
تَبَسَّ لَوْ هُنَا وَجَا فَرَحَهُ يَهْدِيهِ	انْفَتَحَ الْوَرْدُ فِي الْكَمَامِ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 126 .

الزهر :

قال عنه سيدي الأخضر بن خلوف يظهر من خلاله قدرة وروعة الخالق في

خلقه ¹ :

قَدَّرَ الْأَنْوَارَ فَتَحُوا الْكَمَامَ زَهَرَتْ فِي الرِّيَاضِ تَبَارَكَ اللَّهُ السَّنِينَ
كِي نَشُرُوا فِيهَا الْعَلَامَ افْتَحَ مِنْ كُلِّ أَلْوَانِ الْيَاسِ وَالْيَاسْمِينَ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وذكر الزهر بن مسايب في قصيدة " اعبيت وأنا نذمم " ² :

لِيَهُ الْأَيَّامُ اعْطَاتُ وَسَعَدُهُ اسْتَقَامَ لَيْلَةَ اللَّيْلَةِ مَسْرُوقَةٌ مِنَ الْعُمُرِ
بَاتَ بَيْنَ سَهَارِجٍ وَخَصَصَ مِنْ رَخَامِ وَالطَّرْنَجِ الْبَاهِي وَالْوَرْدِ وَالزَّهْرِ
سَلَّمَ عَلَيَّ مَحْبُوبِي سَابِغِ الشَّفْرِ

وفي شعر بن سهلة وجدنا " الزهر " في قصيدة " يوم الخميس " يشبه غزاليته

(محبوبته) بالورد والزهر ، فيقول ³ :

هَذَا الْغَزَالُ بَاهِي الصُّورَةِ لِلْوَرْدِ وَالزَّهْرِ مَثَلْتَهُ
الشَّفْرُ مَا أَحْسَنَهُ بِالنَّظَرَةِ وَالْعَيْنُ بِالْكُحُولِ وَاتَاتُو

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 49 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 93 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 38 .

وفي قصيدة " سلم على طه القرشي " يقول عنه ¹:

سِيرَ مَنْ قَبْلَ الْأَذَانِ يَا الْوَرْشَانَ لِلْحَبِيبِ الْقُرْشِيِّ طَهَ الشَّرِيفِ الْأَمَّجَدِ
سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ الْعَدْنَانَ يَا الْوَرْشَانَ بِأَلْفِ سَلَامٍ مَكَّلَ بِالزُّهُورِ وَالْوَرْدِ
سَلَّمَ عَلَى طَهَ الْقُرَيْشِيِّ الشَّرِيفِ الْأَمَّجَدِ

الياسمين :

ذكره ابن خلوف في قصيدة " قدر ما في بحر الظلام " فيقول ²:

قَدَّرَ الْأَنْوَارَ فَتَحُوا الْكَمَامَ زَهَرَتْ فِي الرِّيَاضِ تَبَارَكَ اللَّهُ السَّنِينِ
كِي نَشَرُوا فِيهَا الْعَلَامَ افْتَحَ مِنْ كُلِّ أَلْوَانِ الْيَاسِ وَالْيَاسْمِينِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وعند بن مسايب أيضا في قصيدة " نار للهوى " ³:

شَهْلُ الْعَيْونِ غَنَجُ الشَّفْرِ حَمْرُ الْمَرَاثِفِ وَالْخُدُودِ
مَنْ حُسْنُهُ غَارُ الْقَمَرِ وَالشَّمْسُ فِي سَعْدِ السُّعُودِ
مَنْ شَذَاهُ فَاحُ الزَّهْرِ وَالْيَاسْمِينِ مَعَ الْوَرُودِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 139 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 49 .

³ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 152 .

وفي قصيدة " هَاضُ الْوَحْشِ عَلِيَا " يقول¹:

سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي أَنْشَأَكَ زَيْنَ الْعَذْرَاوِيَّاتِ
الْخَدَّ احْمَرَّ يَا سَامِعِينَ فِيهِ الْوَرْدُ مَعَ الْيَاسْمِينِ

أما بن سهلة فقال عنه في قصيدة " عُبَيْتُ نَوْصِي فِيكَ " يصف فيها روعة

روعة اللقاء مع حبيبته في رياض الياسمين²:

جَأتُ لِعُنْدِي يَا سَامِعِينَ دَخَلْنَا رِيَاضَ الْيَاسْمِينِ
بَتَّتَا فِي فُرْجَةٍ زَاهِيَيْنِ قَالَتْ رُوحِي نَهْنِيكَ
بَتَّتَا فِي فُرْجَةٍ وَأَنْطِرَابِ بَكِيَاتِرُ وَعُودُ وَرِيَابِ
يَا مَنْ تَكُونُ مِنَ الْأَحْبَابِ هَنِينِي وَنَهْنِيكَ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 136 .

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 63 .

الأقحوان :

تسمى بزهرة الولاء والإخلاص وتسمى أيضا بالورد الغريب لأنه يزهر في الخريف خلاف كل الورود ، تسمى بزهرة السعادة ، تعبر عن السرور والبهجة¹ ، ذكرت في العديد من الأشعار العربية وفي شعرنا الشعبي ذكرها بن سهلة في

قصيدة " لوماً الفضولُ يا عجباً " ² :

تَسْوَى مَآيَةَ حَمْرَاءَ وَأَحْمَرَ نِعْمَانَ فِي التَّلُولِ مَشَهَّرُ

تَسْوَى مَآيَةَ صَفْرَاءَ وَأَصْفَرَ أَقْحَوَانَ فِي الْبَطَاحِ مَنْوَرُ

تَسْوَى مَآيَةَ خَضْرَاءَ وَأَخْضَرَ مَادُوبَ كَالْحَمَامِ الطَّائِرُ

يظهر لنا الشاعر في هذه الأبيات كل ما يمكن له تقديمه لحبيبته من أنواع

الأزهار والهدايا ...

¹ - الأقحوان موطنها الأصلي أوروبا وآسيا الجنوبيتين الشرقيتين ومنطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا ، وأصبحت حالياً تزرع في أغلب بقاع الأرض ، أنظر

REP. EYE.com.mars.2013

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 43 .

شقائق النعمان :

هي زهرة بريّة حمراء جميلة تُعرف علمياً باسم الشقار الإكليلي ، ارتبطت بالأدب العربي قيل نبتت على قبر نعمان بن المنذر أشهر ملوك الحيرة عندما داسته الفيلة ، إذ رفض الخضوع لملك الفرس لتسليم نساء العرب فكانت معركة " ذي قار " ولهذا نُسبت إليه ، تعرف في أرض فلسطين والشام والعراق باسم " الدحنون " أو " الدحنونة " ، موطنها الأصلي أوربا وشمال إفريقيا والمناطق المعتدلة في آسيا¹.

ربط ذكرها الشاعر بن سهلة بذكر المرأة فشبهه محبوبته بشقيقة النعمان في قصيدة " يا ضَوْ عيني " فيقول² :

يَا صَابَغَ الْأَمَاحِ	عِنْدَ سَيِّدِي الشَّعَارِ ارْتَاخِ
كَفَّ مَنْ التَّوَّاحِ	شُوفَ مَنْ نَهَوَى غُصْنَ الْبَانِ
مَطْبُوعَةَ الْأَشْبَاحِ	فَاطِمَةَ شَقِيقَةَ بِنِ نَعْمَانَ

وقال عنه بن خلود في قصيدة " مِفْتَاحُ خَيْرِ الْأَيْنِفَذِ " ³ :

يَا سَيِّدَهَا غَرْبٌ وَمَشْرِقٌ	أَمَامَهَا جُوفٌ قُبْلًا
مَنْ نُورَكَ النِّعْمَانَ شَرَّقُ	مَنْ رِيْقَكَ عَسَلُ النَّحْلَا

¹ - أنظر <https://ar.m.wikipedia.org>

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 92 .

³ - الأخضر بن خلود ، ديوانه ، ص 79 .

فَقَّتْ الْفَجْرَ إِذَا يَنْشَقُّ نُورَكَ كَالْبَدْرِ إِنْ يَعْلا

وذكره أيضا في قصيدة " بك طابت الأثمار " التي يمدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويظهر أن بنور خير الأنام ابتهج النعمان الأحمر وعمت الورود في الحدائق وزينتها بألوانها ورائحتها العطرة يقول ¹ :

لِيكَ يَا مُحَمَّدَ زَهْرَتِ مُصَابِحِ اللَّيْلِ وَاسْتَتَارَتْ شَهَابٌ مَا بَيْنَ سَيْنٍ وَرَأ
لِيكَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ مَعَ الْأَمِينِ جَبْرِيلُ قَالَ يَا مُحَمَّدَ خُذِ الْكِتَابَ وَأَقْرَأ
لِيكَ صَبَّتْ الْأَمْطَارُ وَفَاضَتْ الْمَنَازِلُ وَأَحْتِيَاتِ الْجَذْبَةَ وَلاَتِ سُرَيْسِ خَضْرَا
وَابْتَهَجَ النُّعْمَانَ الْأَحْمَرَ فِي الْقَطِيبِ فِي حَدَائِقِ مَصْنُوعَةِ لِيكَ حَافِظَةَ

¹ - الأخضر بن خلوفا ، ديوانه ، ص 101 .

وذكر أيضا مصطلح النوار عندما قال ابن مسايب في قصيدة

" يا الوشّام " 1:

اعْمَلْ النُّونَ نُورًا ظَرِيفًا فِي الرَّبِيعِ مُصَنَّفَ تَصْنِيفًا

قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ حَرَّ الصَّيْفِ جَاهَا النَّطْحُ وَجَالِيهَا

يَا الْوَشَّامُ

وأيضاً في قصيدة " أراد كيف فعل " قال 2:

عِنْدَهَا وَطَنٌ مَلِيحٌ وَعِنْدَهَا الدِّيَارُ وَالْجَوَامِعُ وَخَصَّصَ بِمِيَاهِ الْعِيُونِ

تَقَلَّتْ غُرُوسَهَا بِشَمَائِمِ النُّورِ الزُّهْرُ وَالنُّسْرِي وَالْوَرْدُ فِي غُصُونِ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

أما سعيد المنداسي فقد ذكر أنواع عديدة من الأزهار والورود في القصيدة

الواحدة وهي : " النسري " 3، " مردقوش " ، " الخيلي " 4، " القيقلان " 5،

1- ابن مسايب ، ديوانه ، ص 52 .

2- نفسه ، ص 101 .

3- النسري : ورد أبيض eglantine ، أنظر محمد الفاسي ، معلمة لغة الملحون ، ج 2 ،

القسم 1 ، معجم لغة الملحون ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، د.ت ، ص 133 .

4- الخيلي : نوع من الزهور girofleé ، معلمة الملحون ، ص 66 .

5- القيقلان : نوع من الزهور .

" شاكوكي " ¹ ، " الحبق " ² ، " البابونج " ³ ، " قسندش " ، " الزريرق " ⁴ ،
 "ديدحان " ، " عطرشة " ⁵ ، كلها أنواع من الزهور فقال عنها ⁶:

الرَّبِيعُ أَقْبَلُ بِفِصَالِهِ لِلْعُشَيْقِ سَلْوَانَ

خَاطِرُهُ يَتَسَلَّى مِنْ كُلِّ بَأْسٍ يَهْنِي

الزَّهْرُ وَالنَّسْرِيُّ وَالْفُلُّ أَمَعَ السَّيْسَانَ

مَرْدُقُوشُ وَالْخَيْلِيُّ فِي طَرَفِ يَاسْمِينَا

السَّنْبُلُ وَالنَّرْجَسُ وَالْبَاغُ وَالْقَيْقَلَانُ

قَرْنُفُلٌ أَوْشَاشُوكِي بَيْنَهُمْ لِحَبَقٍ عَنَا

الْبَابُونَجُ وَقَسَنْدَشُ وَالزَّرِيرِقُ بِطَيْبِ فَاحٍ

وَرْدُ الْمِسْكِ يَعْبَقُ بِنَسَائِمِهِ ذَكِيَّةَ

خَشَاشٍ أَوْ مَسْكَ الرُّومِيِّ زَيْنَهُ اشْبَاحُ

¹ - الشكوكي : le nard ، زهر مركّب ، معلمة لغة الملحون ، ص 180 .

² - الحبق : le basilic ، نبتة طيبة الرائحة .

³ - البابونج : نوع من الزهور .

⁴ - الزريرق : زهر أزرق اللون ، pied d'alouette ، معجم لغة الملحون ، ص 85 .

⁵ - عطرشة : نوع من الزهور ، géranium rosat ، معجم لغة الملحون ، ص 145 .

⁶ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص ، ص

دِيدِحَانُ وَعَطْرَشَةٌ لِلنَّظْرَةِ زَهِيَّةٌ

ب- الأشجار :

وظّف الشعراء التلمسانيون أنواع مختلفة من ثمار الأشجار نذكر منها :

النخيل :

شبه بن سهلة طول المرأة وقوامها بطول النخلة ، فيقول في قصيدة " يوم

الخميس " ¹:

خُذْ الْكَلَامَ وَاسْمَعْ مِنِّي	يَا مَنْ تُسَالِنِي نَعَطِيكَ أَخْبَارُ
نُورِيكَ مَا نَظَرْتُ بَعِينِي	رَقَبَةٌ مَقُومَةٌ مِنْ عَاجٍ وَ بِلَارُ
بِخَوَامِسِ الذَّهَبِ سَلَبْتَنِي	الْقَدِّ مِثْلُ النَّخْلَةِ مَالَتْ بِثَمَارُ
الزُّنْدُ سَيْفٌ يَا سَايِلِنِي	يَوْمَ الطَّرَادِ قَبْضَةٌ فَارَسُ غَزَارُ

وبالمعنى نفسه تقريبا ذكرها بن مسايب حين شبه رقبة المرأة البيضاء

الطويلة بالنخلة في الصحراء فقال في قصيدة " من نهوى " ²:

وَالرَّقَبَةُ بِيضًا مُسَقَّمَا	بَانَتْ لِي مَا أَعْلَاهَا
الرَّقَبَةُ بِيضًا مُجَرَّدَا	فِي الصَّحْرَا نَخْلَةٌ مَفْرَدَا
مَنْ فُوقَ الْأَثْمَارِ وَاجِدَا	صَيَّلَهَا مُوَلَاهَا

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 38 .² - بن مسايب ، ديوانه ، ص 88 .

أما بن خلوف فقد وظّف في شعره ثمرة النخلة وهي التّمر ، فيقول في قصيدة " مفتاح خير إلا ينفذ " ¹ :

مَعْلُومٌ يَخْلِي وَيَعْمَرُ لِّلْهَاشِمِيِّ يَسْرَعُ بِيًّا
مَقْطُوعٌ مِنْ عَرَجُونِ التَّمْرِ مَحْصُودٌ عِنْدَ الْوَسِيمَةِ

وذكر النخلة في قصيدة أخرى " قَدْرَ مَا فِي بَحْرِ الظَّلام " ² :

صَلَّى اللهُ عَلَى الصَّادِقِ الصَّدِيقِ الْأَمِينِ
قَدْرَ مَا يُتْلَا فِي مُحَاضِرِ الْقَارِيَيْنِ
قَدْرَ اللَّيْلِ وَمَا يُلِيهِ النَّهَارُ يَا سَامِعِينَ
قَدْرَ النَّخْلَةِ وَالِدَالِيَةِ بَثْمَارِهَا الْبَنِينِ

الزيتون :

ذكر شجرة الزيتون بن خلوف عندما قال ³ :

وَعَدَدُ الْجَبَّاتِ وَمَا فِيهَا مَنْ لَقَّاحُ
وَعَدَدُ الزَّيْتُونِ وَمَا خَرَجَ مِنْ أَصْلَاحُ

¹ - الأخصر بن خلوف ، ديوانه ، ص 79 .

² - نفسه ، ص 51 .

³ - نفسه ، ص 53 .

وَمَا نَاحَ الْحَمَامِ مَنْ صَمِيمٍ قَلْبُهُ وَيَاحَ

وعندما حدثنا ابن مساييب عن مدينة تلمسان وتغنى بمفاتها ذكر أشجارها التي زادتها خضرتها جمالا وبهاءً في قصيدة " أراد كيف فعل " ¹:

خَيْرَهَا يَاسِرٌ وَمَا فِيهِ مِنْ فُلُوسٍ حَاطَ بِيهَا الْكَسْبُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ
وَلَمَّعَادِنٌ فِيهَا شَلًّا كَثُمُوا أَسْرَارُ مِنْ التَّبْرِ وَالْفَضَّةِ وَنَحَاسُ وَالِدُونِ
أَشْجَارَهَا بِخُضُورَةٍ عَلَاتِ وَالثَّمَارُ وَالْمَعَاطِنُ هَذَا بَارِدٌ وَذَا سَخُونُ
مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

وفي نفس القصيدة ذكر مختلف الخيرات التي تزخر بها تلمسان من ثمار وغروس وفواكه ، فقال ²:

عِنْدَهَا وَطَنٌ عَجِيبٌ وَعِنْدَهَا غُرُوسٌ بِالْفَوَاكِي وَالْخَيْرِ وَكُلِّ مَاشِيَةٍ

الليمون :

قال عنه دائما المنداسي ³:

انكسأت الارض بحلل مختلفين

زهرة الاشجار ليمون او رمان

¹ - ابن مساييب ، ديوانه ، ص 100 .

² - نفسه ، ص 99 .

³ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 40 .

نباتات أخرى :

ما لفت انتباهنا أن بعض الشعراء قد ذكروا غصن الشجرة - الأغصان - ذكره ابن مسايب في أروع وصفٍ للأغصان التي تلتف حولها الأزهار ، تظهر من مكان بعيد تدور حولها الطيور والبلابل ، فيقول ¹ :

اعْمَلِ الزَّيْنَ زَهْرَةَ الْأَغْصَانِ فِي الْعَالِي مَنْ الْبَعْدُ تَبَانُ
وَالطُّيُورُ تَحْنَنُ تَحْنَانُ كُلُّ بَابِلُ جَا مَنْ جِيهَا

يَا الْوَشَّامُ

اعْمَلِ الطَّا طَيْرُ فِي الْأُدْوَاخِ بَيْنَ الْأَغْصَانِ يُصِيحُ صِيَاخُ
الْمَخْتَمَّرُ بِكَيْوسِ الرَّاحِ بِيهَا النَّفْسُ يُسَأِّيهَا

يَا الْوَشَّامُ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 51 .

وفي قصيدة أخرى بعنوان " يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ ¹ " ارتبط ذكر الغصن
بقامة المرأة على أن قوامها رشيق ، فذكر أغصان الياس الجميلة ، يقول ²:

يَا قَامَةَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ فِي الْبُسْتَانِ الْبَاهِي الْعَجِيبِ
وَحَشَاكَ يَشِيبُ مَنْ لَا يَشِيبُ وَالْقَلْبُ فِي تَهَوَّاسِ

وقال عنه بن سهلة في قصيدة " لمتى يهنى قلبي " ³:

شَهَرَتْ حُرُوفُ بَهَاكَ يَا غُصْنُ اللَّقَاحِ حَتَّى عَادَ اللَّيُّ تَائِبٌ يَتَمَنَّأُ
أَشُّ يُصَبِّرُ قَلْبِي عَلَى أَمِيرَةِ الْمَلَاكِ دَاوِي قَلْبِي يَا لَالَةَ بَدَوَاكِ

¹ - نبات الآس : أحد أكثر النباتات شهرة اسمه العلمي " الآس " هو شجيرة دائمة الخضرة وصغيرة تنمو لتصل إلى خمسة أمتار تنمو في جميع أنحاء منطقة البحر الأبيض المتوسط ، تحتوي أزهارها على العديد من الفوائد ولها استخدامات عديدة بين الطهي والزينة ، تستعمل للتخفيف من حدة أمراض الجهاز التنفسي ، تهدئ الجسم وهي مفيدة لدوام صحة القلب والشرايين ... أنظر سهام أحمد ، www.almrsal.com ، 05/ 07 ، 2014/ .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 66 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 65 .

وهذا وقد وقفنا عند بعض النباتات الصحراوية كالحلفاء ، الدوم عند بن

خلوف ، حيث يقول ¹:

قَدَّرَ مَا قَبِضَتْ يَدُ الْكَافِلَةِ بِالْجَمِيعِ

قَدَّرَ الْحَفَّةَ وَالذُّومَ وَالزَّرْعَ وَالرَّبِيعَ

قَدَّرَ الْأَنْوَارَ فَتَحُوا الْكَمَامَ زَهَرَتْ فِي الرِّيَاضِ تَبَارَكَ اللَّهُ السَّنِينُ

كِي نَشَرُوا فِيهَا الْعَلَامَ افْتَحَ مِنْ كُلِّ أَلْوَانِ الْيَاسِ وَالْيَاسْمِينُ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وإظهاراً لقدرة الخالق وعظمة خلقه بذكر أنواع من الحبوب والمزروعات من

أعشاب وحنط وأوراق ، يقول بن خلوف في قصيدة " لولا أنت " ²:

قَدَّرَ عَشُوبَ الْحِنْطِ فِي السَّهْلِ وَالْحَدَابِ الْمُرَّةَ وَالطَّيْبَةَ وَاللِّي بِنِينَةَ

قَدَّرَ جُنُودَ النَّحْلِ وَالنَّمْلَ وَالذَّبَابَ وَالْمُرْجَى وَالْمَسْكَ فِي رِيَاضِ السَّفِينَةَ

ثم يقول :

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ قَدَّرَ الْأُورَاقَ فِي الْفِرْعِ وَعَدَدَ الشَّعْرَ الرَّقِيقَ مَعَ مَنْ كَسَاهُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ قَدَّرَ الْأَثْمَارَ وَالزَّرْعَ وَفَرَّاشُهُ وَغَطَّاهُ وَالْمَجْرَدُ سَفَاهُ

¹ - الأخصر بن خلوف ، ديوانه ، ص 49 .

² - نفسه ، ص 67 .

ذُكِرَ أيضاً نبات آخر وهو الخِزْران¹ في قصيدة " اعْيِيتْ نُوصِي فَيْكَ " لبْنِ
سهلة فيقول²:

نَلَقَاها فِي بَابِ الْجَنانِ مَتَرَعَلِبَةً كَغُصْنِ الخِزْرانِ
بِالنَّظَرَةِ تَرَهَّبَ العِيانِ يا مَنْ تَفَهَّمْ نُورِيكَ

قال عنه بن تريكى في قصيدة " انا المولوع " ³ :

الرَّقْبَةُ باهِيَةٌ مُسَلْسَلَةٌ مِثْلُ الخِيزْرانِ
وَالصَدْرُ اصْفَى مِنَ الجُوهَرِ وَالنَّهْودُ مَعْكِرِينَ

كما وقفنا عند نبات الدَّفلة في قول بن مسايب في قصيدة " هاجت بالفكر
اشواقي " ⁴ :

رَأَيْ مَنَّهُ نَسَقِي بِكَيْوسٍ مَدَّافِقَةٌ

¹ - الخيزران : شجرة تُعدّ من أسرع النباتات نموا على وجه الأرض له قيمة عالية وفائدة كبيرة للمناخ ، يصنّفه علماء النبات أنه من بين أفضل منظّفات البيئة ، فالشجرة الواحدة تنتج ما معدّله 35% من الأكسجين فتمتص أربعة أضعاف من الكربون أكثر من أي شجرة أخرى ، يستخدم الخيزران في البناء والأثاث وصناعة الورق والنسيج ، كما يستخدم في الطب الصيني لعلاج الالتهابات وخصائصه الطبيعية مضادة للبكتيريا والفطريات ، أنظر www.hacen.net

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 62 .

³ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 81 .

⁴ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 143 .

دَفْلَةٌ وَحَدَجٌ وَثَقَى ومَرٌ وَصَبْرٌ وَرَيْقٌ

ج- الرياض والبساتين :

عُرفت كما سبق الذكر البيئة التلمسانية بطبيعتها الزاخرة بأنواع الرياض والبساتين النظرة الجميلة ، والتي أثرت في نفس الشاعر فتغنى بها بشعر شعبي رائع .

الرياض :

يقول بن سهلة في قصيدة " اعبيت نوصي فيك " ¹:

جَاتْ لَعْنَدِي يَا سَامِعِينَ دَخَلْنَا رِيَاضَ الْيَاسَمِينَ
بَتْنَا فِي فُرْجَةِ زَاهِيِينَ قَالَتْ رُوحِي نَهْنِيكَ

فجعل الشاعر من رياض الياسمين أفضل مكان يلتقي فيه العشاق الذي يضيف البهجة في قلوبهم ويزيد اللقاء فرحا وسعادة .

وفي شعر رائع ذكرها بن مسايب في قصيدة " نار للهوى " ²:

مَنْ شَذَاهُ فَاحَ الزَّهْرُ وَالْيَاسَمِينَ مَعَ الْوُرُودِ
فَاحَتْ بِهِ كُلُّ مَنْ طِيبُ مَا بَيْنَ رَوْضَاتِ الْبَطَاحِ
لِلَّهِ يَا شَمْسَ الْمُغِيبِ سَلَّمَ عَلَيَّ سَيِّدَ الْمَلَاخِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 63 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 152 .

وعنها قال بن تريكي¹:

أَنَا وَأَنْتِ فِي رِيَاضِ زَاهِرٍ
وَالْوَرْدِ أَعْلَى الْأَغْصَانِ شَلًّا

البساتين :

ذكرها ابن مسايب على أنها ملتقى أهل الأدب وهو مكان أصحاب المال والكسب وأصحاب العز ، فاعتبر البساتين أماكن مرموقة ذات منزلة عالية ، يقول² :

نَزَاهَةٌ أَهْلُ الْأَدَبِ وَالْمَالِ وَالْكَسَبِ فِي كُلِّ بُسْتَانٍ دَارَتْ الْعَزُّ وَالْجَمِيعُ
عِنْدَهَا وَطَنٌ مَلِيحٌ وَعِنْدَهَا الدِّيَارُ وَالْجَوَامِعُ وَخُصَّصَ بِمِيَاهِ الْعِيُونُ

وتمنى بن خلوف ودعا الله أن يكون من أهل الجنة التي تحتوي على الياقوت الأحمر والبساتين الخضراء ، فيقول في قصيدة " محمد خير الأنام " ³ :

فِي الْفَرْدُوسِ يَكُونُ مَقَامِي جَارِي صَاحِبِ الْغَمَامِ
مَنْ يَأْقُوتُ أَحْمَرَ خِيَامِي وَبَسَاتِينَ يَخْضُرُوا دَوَامِ

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 82 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 100 .

³ - سيدي الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 86 .

ووظفها أيضا بن تريكى عندما قال عنها ¹:

الْبُسْتَانُ كَانَ وَاجِدًا مِّنْ بَكْرِي لَطْرَادًا

أَوْ لَطِيَّارٍ نَّاطِقَةً فُوقَنَا يَا فَهْمَهُ

الجنان :

ذكرت في شعر بن خلوف في قصيدة " لله الحمد زاد فيا " حيث قال ² :

بِعَيْنِي شَفَّتْ الْمُدَّثَّرُ مَن شَافُو مَا يَشُوفُ غُلْبًا

يَتَبَخَّرُ فِي الْجَنَانِ الْأَخْضَرَ يَمَلِكُ مَن الْوَارِدِينَ قُبَا

وقال عنها بن سهلة في قصيدته " لوما الفضول يا عجا " ويصرح أنه

عندما يرى حبيبته كأنه رأى الجنة الخضراء ³ :

لُومًا الْفُضُولُ يَا عَجَبًا وَاشْ أَدَانِي حَتَّى لَقَيْتُ كَحْلَ السَّالْفِ بَدْرَةَ

يَا مَن تَكُونُ فَاهِمٌ حَرَبِي سَيْسَانِي خُذْ الْكَلَامَ وَأَفْهَمِ الْإِشَارَةَ

لُومًا نَخَافُ نَعْصِي رَبِّي بِلِسَانِي حَتَّى نَقُولُ شَفَّتْ الْجَنَّةُ الْخَضْرَا

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 92 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 93 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 40 .

ثانيا : عناصر الطبيعة الحية :

أ- الحيوان :

كان دائما للبيئة الأثر الفعّال في خلق فنّ شعر الطبيعة ، فبينما أبدع القدماء في وصف الوحش والناقة والفرس ونحو ذلك ، أصبحوا يصفون أنواع الحيوانات الوديدة والأليفة كالحمام ، الغزال ... ، لذا تبقى الحضارة هي أول أسباب استحداث فن شعر الطبيعة الحديث ، ولهذا يمكن لنا حصر أهم ما ذكرته أسنة الشعراء الشعبيين التلمسانيين للحيوان فيما يلي :

1- الطيور :

كانت أكثر تداولاً من غيرها من الحيوانات نظرا لجمالها وتنوع ألوانها من جهة ولاعتبارها وسيلة تواصل ، حيث توصل رسائل العاشق إلى معشوقته لتقطع مسافات طويلة .

فنظم ابن مسايب قصيدة رائعة بعنوان " يَا الْوَرْشَانَ " ، وهو نوع من الحمام يترجّاه أن يذهب إلى بيت الله الحرام ليوصل سلامه لخير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول¹ :

يَا الْوَرْشَانَ أَقْصِدْ طَيْبًا زُرْ فَاقْدُ مَرَسَمَ شَيْبَا
لَا تَحْمَمْ فِي أَمْرِ الْغَيْبَا وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِهَا...

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 175 .

نَرْسَلَكْ مَنْ بَابِ تَلْمَسَانَ سَرِّ فِي حَفْضِ اللَّهِ وَالْأَمَانِ
 بَعْدَمَا تَزُورُ بِلَا تَمْنَانِ كُلُّ مَنْ هُوَ وَالِي فِيهَا...
 رَفْرَفُ يَا طَيْرِ أَمْشِ عَجَلَانِ بَاشْ تُوْصَلْ لُبُو خَلْوَانِ
 بَاتَ مَكْرُومٌ عَلَى الْأَمَانِ عِنْدَ نَاسِ بِلَادِكَ فِيهَا...
 قُمْ يَا طَيْرِ الْوَعْدَ أَوْفَى طِرْ وَانْزَلْ جِبْلَ عَرَفَةَ
 اغْتَنِمْ مَعَ النَّاسِ الْوَقْفَةَ حَاجَتَكَ تَمْ تُوْفِيهَا

وسيدي لخضر بن خلوف قد شبه نفسه بالطير المجروح كسرت جناحه وأصبح يعاني من شدة الألم ، فيقول ¹:

يَا رَسُولَ مَوْلَايَا أَنْتَ مَشْفِي النُّفُوسِ نَفْسِي عَلِيَّةُ
 مَنْ كَثُرَ اجْرَاحِي يَا شَجْرَةَ عَلَى عُرُوقِهَا تَدَلِّي اعْتِدَالِي
 انْطَوَاتِ اجْنَاحِي كَيْفَ الطَّيْرِ أَنْعَانِي مَنَازِلِ الْقُوصِ الْمَالِي
 مُحَمَّدُ الْمَاحِي

كما ذكر عدة أنواع من الطيور منها الحمام واليمام والزأوش في قصيدة واحدة وهي " قَدَّرْ مَا فِي بَحْرِ الظَّلَامِ " فيقول ²:

قَدَّرْ الْفَاخَتْ وَالْيِمَامَ قَدَّرْ طَيْرُ الدُّنْيَا جَاوَا مَتَخَالِفِينَ

¹ - الأخرى بن خلوف ، ديوانه ، ص 90 .

² - نفسه ، ص 52 .

قَدَّرَ الزَّأوِشَ وَالْحَمَامَ وَعَدَّدَ اللَّيَّ فَاتُوا وَعَدَّدَ اللَّيَّ جَابِينَ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

أما الشاعر بومدين بن سهلة فقد وصف لنا نوعا آخر من الطيور هو
"المقنين" في قوله ¹:

الْبَدَنُ تَلْجُ رَسَى فِي أَرْضِ خَفِيَّةٍ وَالسَّاقُ بِالْخَلَاخِلِ يَسَوَاوُا أَلْفِينَ
الطُّوْلُ كَالْبُنْزَةِ الْوَهْرَانِيَّةِ وَإِذَا تَقَوْمٌ تَدْرَجُ كَيْفَ الْمَقْنِينِ

يتغزل في هذه الأبيات بحبيبه ، فيصف مشيتها بتدرج المقنين في مشيته .

وذكر أيضا نوعا آخر وهو " القُمري " في قصيدة " يَا ضَوْ عَيَانِي " يتوسل
فيها إليه بأن يبلغ سلامه إلى أهالي تلمسان ، فيقول ²:

يَا ضَوْءَ أَعْيَانِي يَا الْقُمْرِي زَرْقَ الْجِنْحَانِ
جَمَلٌ وَأَسْعَانِي وَسَلَّمٌ عَلَى نَاسٍ تَلْمَسَانَ
كُونَاكَ سَيْسَانِي حَدٌّ لَا تَقْرَى فِيهِ أَمَانَ

وفي نفس القصيدة يصفه - القمري - بأنه أفضل وأحسن الطيور
وأجودها ، فيقول ³:

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 55 .

² - نفسه ، ص 91 .

³ - نفسه ، ص 97 .

يَا جَيْدَ الْأَطْيَارِ نَرَسَاكَ لَدَرْبِ السَّمَارِ
تَاتِينِي بِأَخْبَارِ يَا الْقُمْرِي تَنْظُرُ بِأَعْيَانِ
النَّجْمِ السِّيَارِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي الْأَمَزَانِ

ونفس الشاعر - بن سهلة - يذكر الطير في قصيدة "حسبك يا ولد الطير"

ويذكر فيها أيضا الحمام ، القمري ، يقول في جزء منها ¹:

نَطَقْتُ قَالَتْ يَا قُمْرِي أَنَا نَحَبَكَ تَكْتُمُ سَرِّي
تُكُونُ رَاضِي طَائِعِ أَمْرِي نَعْطِيكَ شَيْئًا تَبْغِي مَنْ مَالِي
خُذْ الْأَمَارَةَ وَاجْرِي خُذْهَا هِيَ فَرْدَةٌ خُلْخَالِي ...
وَأَكْ طَيْرِي لِعَنْدِي جَاءَ ذَاكَ الْحَمَامِ اللَّي نَرْجِي
وَصَلْ بَشْرَنِي بِالْحَاجَةِ زَالَ هَمِّي وَذَهَبَ تَهْوَالِي
نَفْرَحُ بِهِ نَعْمَلُ فُرْجَةَ نَشُوفُ وَلَفِي جَالِسٌ قِبَالِي

وحديثنا سوف لا ينتهي بحصر كل ما ذكر عن أنواع الطيور وإنما اكتفينا

بذكر البعض أو القليل منها .

وقد ذكر البلبل هو الآخر يقول عنه بن مسايب في قصيدة "يا الوشام" ²:

اعْمَلُ الزَّيْنُ زَهْرَةَ الْأَغْصَانِ فِي الْعَلَالِي مَنْ الْبَعْدُ تَبَانِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص ص 78 ، 79 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 51 .

وَالطُّيُورُ تَحْنَنُ تَحْنَانَ كُلُّ بُلْبُلٍ جَا مَنَ جِيهَاً

يَا الْوَشَّامُ

ووقفنا عند نوع آخر من الطيور وهو " الظليم " أو " الظليم " كما يسميه البعض ، وهو ذكر النعام كان يوظفه الشاعر الشعبي بكثرة وعادة ما يشبهه بالمرأة ، قال عنه بن سهلة في قصيدة " يوم الخميس " ¹:

هَذَا الْغَزَالُ بَاهِي الصُّورَةَ لِلْوَرْدِ وَالزَّهَرِ مَثَلَتْو
الشَّفْرَ مَا أَحْسَنَهُ بِالنَّظْرَةِ وَالْعَيْنَ بِالْكَحُولِ وَاتَاتُو
الثِّبْتُ كِظْلِيمِ الصَّحْرَاءِ هَاوِي عَلَى الصَّدْرِ طَلَقَاتُو

وقال أيضا يصف شعر المرأة بجناح الظليم في شدة سوادها في قصيدة " طامو تاج الباهيين " ²:

سَالَفَ أَكْحَلُ نَمَثْلُهُ جَنْحِينَ الظَّلِيمِ تَخْبَلُوا
رَاحَ يِعَاهَدَ لِمَنْزَلُهُ خَايِفٌ مَن يَشْفَاهُ
مَسْتَبِدُّ مَوْلَاهُ يَهُولُهُ يَتَمَرِّدُ بَيْنَ أَعْدَاهُ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 38 .

² - نفسه ، ص 56 .

أما المنداسي فكعادته يذكر أنواعا عديدة من الطيور في القصيدة الواحدة
" الربيعُ أقبَلُ يا أهلَ الحمية " ¹:

اعلَى خَطُوطِ الزَّرَابَةِ اعلى العَرَضِ أو طُولِ

و لَطِيَارٍ فِي بُسْتَانٍ تَصِيحُ اصْيَاحُ

اعلى مَنَابِرِ الاغْصَانِ يَسْبَحُو زَهِيهِ

الهَزَارُ ² يَهْلَلُ فَوْقِ اغْصَانِ لَدَوَاحِ

والبُشَيْقِ ³ يَجَاوِبُ بِصَوَاتِهِ اهْنِيهِ

الربيع اقبل يا أهل الحميه

اسخ حَسَّ لَطِيُورٍ نَاطِقَةٍ بِصُوتِ مَرْفُوعِ

بَهْبُوبِ النَسَائِمِ الصَابِهِ بِتَمَجِيدِ تَصَادِي

أمَّ الحَسَنِ ⁴ بِصُوتِهَا تَهِيحُ مَنْ هُوَ مُوَلُوعِ

والبَابِلِ مِنْ انْغَايِمِهِ لَشَوَاقِ تَزْدَادِي

¹ - عبد الحق زربوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ،

ص ص 43 ، 44 .

² - الهزار : هو البلبل .

³ - البشيق : طائر مغرد .

⁴ - أم الحسن : ويقال له أيضا الحسنى نوع من طيور mis pour rossignol .

مَنيار¹ يُحَنُّنْ وَايزِيدُ لِلْقَلْبِ اخشوعُ

وَالْحَرَبِلُ² اِبْمَايْتُهُ يَنْشُدُ اَعْلَى شَطُوطِ الْوَادِي

وَتَمَامُ فَرَجَتْ لَطِيَارُ الْخُصِيمِ الْحَدَّادِي³

الْمَقَانِنُ⁴ تَفَخَّرَ بِصَوَاتِهَا اتِّبَاعُهُ

اَعْلَى السَّوَاكِي وَمِيَاهُ تَدْفَقُ كَمَا وَاَدِي

الدَّمَّغَانُ⁵ يَفَكِّرُ وَايزِيدُ فَالْوَلَاةُ

اَعْلَى فُرُوعِ لَشَجَارِ اِبصُوتُهُ اِينَادِي

الْقَمْرِي يَغْرَدُ فِي بُرُوجِ الرَّفَاعَةِ

الْيَمَامُ وَالْفَاخْتُ⁶ تَنْشُدُ فَالْوَهَادِي

¹ - منيار ، نوع من الطيور .

² - الحريل : نوع من الطيور .

³ - الحداد : طائر مغرد .

⁴ - المقانن : جمع مقنين .

⁵ - الدمغان ، عصفور مغرد .

⁶ - الفاخت : من فصيلة الحمام ، والفاخت لفظة فارسية .

2- الغزال :

امتزج الحديث عن الغزال عند أغلب هؤلاء الشعراء بالحديث عن المرأة ،
فدائماً يقرنون صفات المحبوبة بصفات الغزال التي بقيت صورته عالقة في
مخيلتهم ، ومن أجمل فنون القول في هذا المجال ما ذكر الشيخ بومدين بن سهلة
في قصيدة " لَوْ مَا الْفُضُولُ يَا عَجَبًا " ¹:

بِالزَّيْنِ فِي الْمَدِينَةِ شَاعَتْ طَاعُوا الْحَضَرَ وَبَلَدِيَّةً
طَبَعَ الْغُزَالَ مِنْ لَا سَالَتْ بِسْوَالٍ كَمَا نَسَالَ أَنَايَا
مَنْ خَدَّهَا يَفُوقُ هَلَالَ الْعَشْرَةَ

وفي نفس القصيدة يعيد تصوير المرأة بالغزال في أعينها ، فيقول ²:

نَلَقَى الْغَانِيَةَ الْهَمِيَّةَ عَيْنَ الْغُزَالِ الْقُصْبِ الْبَلْدِي
بَدْرَةَ ظُرَيْفَةَ الْخَدِيَّةِ هِيَ دَخِيرَتِي وَمُرَادِي
مَصْبُوغَةَ الرَّمِّ جَاهِلَةَ الْخَزْرَةَ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 40 .

² - نفسه ، ص 42 .

والشاعر نفسه يذكر الغزال في قصيدة أخرى " واحد الغزال ربت اليوم " ¹:

وَاحِدَ الْغَزَالِ رِبْتَ الْيَوْمِ يَا سَامِعِينَ عَذْبَنِي

كَيْفَ الْعَمَلِ وَالتَّدْبِيرِ فِي وَصْفِ ذَا الْغَزَالِ نَحِيرُ

فِيهِ الْبَهَاءُ وَالزَّيْنُ كَثِيرُ شَيْ لَا نُوصَفُ بِلِسَانِي

شَعْرُهُ مَنِينٌ رَطَبٌ كَالْحَرِيرِ أَكْحَلُ تَقُولُ سُودَانِي

فيشيد هنا ببهائه وجماله الذي لا يضاهى لدرجة عجزه عن وصفه والحديث

عنه .

ويمكن الإشارة إلى أنه - بن سهلة - قد أكثر من الحديث عنه مقارنة بغيره

من الشعراء ، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على تعلقه بالغزال ورؤيته للجمال فيه كما أنه يكثر من تشبيهه بالمرأة فكلما تغزل بها ذكر الغزال .

أما بن خلوف فأشار إلى كثرة عدد الغزلان في الخلاء ، فيصلّي و يسلمّ

على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعدد كثرتها مدحا لخير الأنام ، فيقول ²:

قَدَّرَ الصُّحُوفَ وَقَدَّرَ الْغِيَامَ قَدَّرَ الْأَرْيَاحَ السَّبْعَةَ جَاؤُ مَتَابِعِينَ

قَدَّرَ الطَّائِرَ فِي الْهُوَامِ قَدَّرَ وَحُوشَ وَغَزْلَانَ فِي الْخَلَاءِ سَاكِنِينَ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 59 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 50 .

وتحدّث عن الغزال أيضا بن مسايب في عدة قصائد ودائما كان يشبّهه
بالمرأة في بهائها وجمالها ، نذكر قوله في قصيدة " ما أزين نهار اليوم " ¹:

سُبْحَانَ رَبِّنَا الَّذِي يَخْلُقُ ذَاكَ الْغَزَالَ الَّذِي نَعُشِقُ
بِالصُّوْتِ حِينَ لِي يَنْطِقُ مَايَا حُسَيْنٍ مَعَ الْمَزْمُومِ
أَنَا هُوَيْتُ وَالْقَلْبُ عَشَقُ مِنْ حُبِّهَا شَفَّتْ هُمُومُ

ويقول عنه في قصيدة " نارٌ وُلْفِي " ²:

غُزِيلِي مَنْ دَرَبَ الشُّوْلُ كَحَلِّ السَّالْفِ عَايِشَا
سَاقٌ لِي وَاهَزَمَ جَسْمِي وَدِيَوَانِي صَحِيحٌ عَمَدٌ لِي وَالْغَيْرُ خَلْفُو
يَاتَرِي كَانُ نَشَاهِدُ الزَّيْنَ بَاعِيَانِي بِاللِّقَا يَعْطَفُ لِي عَسَلٌ مَرَشْفُو
يَا سَيَادِي سَالْفِ عَايِشَةَ نَشُوفُو

3- الخيل (الفرس ، الجواد) :

افتتن العرب منذ القدم بالفرس واعتبروه من مقومات الشخصية ، بل اعتبروه
جزءا من عرض الإنسان فعدّ من أفراد الأسرة ؛ وكذا الحال كان بالنسبة لشعرائنا
الشعبيين حاولوا أن يظهروا خصال الحصان العربي وأصالته وأناقته وجمال

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 68 .

² - نفسه ، ص 59 .

ألوانه ، فتعرضوا لكل الأوصاف التي تليق به وأمعنوا في وصفه ، وتحدث بالأخص عن الشاعر الشعبي البدوي .

ويقال أن الخيل هو إحدى الثلاث التي تقام لها الأفراح ، فلا يهنئون إلا بـغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج¹ ، والخيل أو الفرس عند الشعراء التلمسانيين قد وجدت هي كذلك نصيبها ، قال عنها بن مسايب في قصيدة " يا الوشّام "²:

اعْمَلْ أَلْفَ أَلْفِ زَنَادٍ والعَسَاكِرِ حَتَّى الْقِيَادِ
الطُّبُولُ تَرَعْدُ تَرَعَادُ والخَيُْولُ تُشَالِي بِهَا
يَا الْوَشَّامُ

يشير هنا الشاعر إلى مشاركة الخيول في الأفراح والمناسبات ، ويعني بتشالي أي ترقص لقرع الطبول كما أشاد بعظمتها وأهميتها سابقا في نقل الترحال والاستعانة بها للسفر البعيد ، فيتمنى أن يكون لديه جواد محنك مدرب على تحمل المشاق لينقله إلى مكة روضة المختار محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول³:

¹ - إبراهيم شعيب ، الصحراء والأنواء في الشعر الشعبي من خلال شعراء الأطلس الصحراوي ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ، إشراف د. عبد الحميد حاجيات ، ت 2003 / 2004م ، ص 160 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 50 .

³ - نفسه ، ص 201 .

مَنْ صَابَ لِي جَوَادٌ مُحَرَّبٌ مَدْرَبٌ مِنْ خَيْوَلِ الْهَمَّا
 وَأَنَا مَعَ الْقَطْرِ مُصَرَّدٌ رَاكِبٌ نَاشِطٌ فِي تَحْزِيمَا
 وَلَا عَلَى أَلْوَاخِ الْمَرْكَبِ فِي قُلُوعِنَا أَرْيَاحٌ عَظِيمَا
 الْأَمْوَاجُ فِي اللَّجُوجِ تَغْرَبُ دَارُ الْمَقَاصِدِ بِلَا سَمَا

وبن سهلة عدّ الخيل بمثابة الهدية الثمينة التي تقدّم للحبيب ، وهذا يدل على مكانة الفرس عند الناس وقيمتها الكبيرة ، فيقول ¹:

تَسْوَى مِنْ الْخَيْوَلِ شَقْرَاءَ وَأَشَقَّرَ طَبَعُهُ شَلِيلٌ وَالسَّرَجُ أَحْمَرُ
 تَسْوَى مَائَةَ حَمْرَاءَ وَأَحْمَرُ نِعْمَانٌ فِي التَّلُولِ مَشْهَرُ
 تَسْوَى مَائَةَ صَفْرَاءَ وَأَصْفَرُ أَقْحُونٌ فِي الْبَطَاحِ مَنْوَرُ

أما سيدي لخضر بن خلوف وكما شهدنا آنفاً أن ذكره للعناصر الطبيعية حية كانت أو صامتة إظهاراً لعظمة وقدرة الخالق في الخلق وروعة طبيعة الكائنات الحية ، ووصف الخيول كان من ضمن ما قاله ²:

قَدَّرَ اللَّيِّ فِي الْقَرِيَّاتِ وَالْمَدُنِ سَاكِنِينَ
 قَدَّرَ مَا صَلَّاتِ النَّاسِ عَلَى تَاجِ الْمُرْسَلِينَ
 وَمَا رَكِبَتْ مِنْ خَيْلٍ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 43 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 51 .

ثم يقول¹:

قَدَّرَ العَدْرَاَ والمَالُ والطَّبِيَّ والجَمَالَ
وعَدَدَ الخَيْلِ وَمَا طَعَنْتُ بِهَا الرِّجَالَ

كما قال في قصيدة " مفتاح خير لا ينفذ " ²:

مَنْ صَابَ لِي عَمُهْوجٌ³ أَحْمَرٌ يَسْوَى مِنْ الْيَبْرِيزِ⁴ مِيَا
مَعْلُومٌ يَخْلِي وَيَعْمَرُ لِلهَاشِمِي يَسْرَعُ بِيَا
مَقْطُوعٌ مِنْ عَرَجُونَ التَّمْرِ مَحْصُودٌ عِنْدَ الوَسِيمَةِ

4- الناقة (الجمل) :

للإبل مكانة عظيمة في حياة العرب منذ القديم ، إذ صنّفوها في أسمى درجات الشرف الحيواني كما أنها عدت أحسن ما خلقه الله عز وجل ، وهي قادرة على تحمل المشاق والسفر البعيد وتحمل العطش ، ترعى من كل شيء ما لا ترعاه البهائم الأخرى سريعة الانقياد ... مما جعل الشعراء يطنّبون في الحديث عنها ويذكرون عظمتها وقوتها ، إلا أنّ في الشعر الشعبي التلمساني لم نجدها

¹ - الأخرى بن خلوف ، ديوانه ، ص 52 .

² - نفسه ، ص 79 .

³ - العمهوج : اسم لفرس .

⁴ - الإبريز : من خالص الذهب .

بالقدر الكافي بل كان ذكرها قليل ، وهذا ببساطة يعود إلى طبيعة البيئة التلمسانية فهي منطقة حضارية لم تعنى بتربية الإبل .

ونذكر في هذا المضمار مثلا قول بن مسايب في قصيدة " بِسْمِ الْعَظِيمِ
الدَّائِمِ " ¹:

مَنْ صَابَ لِي جَوَادٌ وَبَغْلًا وَجَمَلٌ عَلَّاشٌ نَرَفْدُ زَادِي
وَمِيَا مِنْ الذَّهَبِ بِالْقَلَا وَمِيَاتُ صَرْفٍ حَرَجُ بِلَادِي
وَمِيَا نَحْبَهَا لَعَلِّي فِي الدَّارِ نَسْتُحَقُّ لِأَوْلَادِي

وأشار الشاعر بن خلوف إلى عظمة سيدنا وحبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله هو الذروة أي المقام الأعلى الذي لا يفوقه مقام لو كان الكون كله جمال ، فيقول ²:

لَوْ كَانَتْ الْأَكْوَانُ جِبَالًا يُقَالُ فِيكَ أَنْتَ الرَّبْوَةُ
لَوْ كَانَتْ الْأَكْوَانُ أَجْمَالَ يُقَالُ فِيكَ أَنْتَ الدَّرْوَةُ
لَوْ كَانَتْ الْأَكْوَانُ أَحْمَالَ يُقَالُ فِيكَ أَنْتَ الْعَلْوَةُ

ونذكرها أيضا بن مسايب في قصيدة " لَمَنْ نَشَكِي " ³ :

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 200 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 81 .

³ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 55 .

عَمْدَالِي فِي الزَّمَانِ وَحَدِي عَمْدَالِي ذَا الْحَمْلِ عَلَيَّ ثَقِيلٌ
خَلَانِي فِي الْخَلَا وَبَرَكَتِ جَمَالِي مَا صُبْتُ مَعَ مَنْ نَشِيْلٌ

5- الظبي :

لم تخلو قصائد العرب من ذكر الظبي وصفاتها تتميز بحدّة البصر ، هي أشد الحيوانات نفورا تتميز بسرعة عدوها ونحافتها ورشاقتها ، وكان دائما ذكرها في الشعر يرتبط بذكر المرأة فيُشَبَّه جمال أعينها ورشاقتها بجمال الظبية ، ذكرها بن مسايب في قصيدة " ناري وقرحتي " ¹:

مَا رَيْتُ فِي الْمَلَا حُ بَحَالُو ظَبِيًّا لَقِيتُ زِينَهُ فَايَقُ
بَاهِي بَدِيعِ حُسْنِ جَمَالِهِ مَكْمُولٌ كُلُّ شَيْءٍ لَوْ لَايِقُ
مِنْ حَاجِبِهِ وَشَفَرِ انْجَالِهِ عُمْرِي فَنَاتُ رُوحِي ضَايِقُ
مَرَشُوشٌ بَعْسَلُ الْاَجْبَاحِ رِيْقُهُ رَحِيْقُ مَخْتُومِ

كما جاءت في شعر بن خلوف في قصيدة " قدر ما في بحر الظلام " ² :

قَدْرُ الْغَابَةِ وَالْدَيْسِ وَالْوَرَقِ وَالْكَبَالِ
قَدْرُ الْعَدْرَا وَالْمَالِ وَالظَّبِيِّ وَالْجَمَالِ
وَعَدْدُ الْخَيْلِ وَمَا طَعْنَتْ بِهَا الرِّجَالِ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 139 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 52 .

وصور الشيخ بن سهلة صورة المرأة الجميلة بصورة الظبي النفور بقوله في

قصيدة " ضاق أمري " ¹:

مَوْلَاةُ السَّالْفِ الْغَرَابِي صِفَةُ الظَّبِيِّ النَّفُورِ عِبْلَةُ الصَّمْصَالِ
هِيَ رُوحِي وَضَوْ قَلْبِي كَامَلَةُ الزَّيْنِ وَالْبَهَاءِ عَارِمُ الْأَطْلَالِ

وقال عنها أيضا في قصيدة " عاداوني الأحباب " ²:

قَبَلُوا فِي رَأْيِ الْحُسُودِ وَرَضَاوَا الْهَجْرَةَ وَالصَّدُودِ
تَاهَ عَلَيِ الظَّبِيِّ الشُّرُودِ وَضَحَى مَنِي هَرَابِ
أَلَا سَعْدِي دُونَ السُّعُودِ يَا رَبِّي مَا لُو خَابِ

يُصَوِّرُ هُنَا بَعْدَ أَحْبَبْتَهُ عَنْهُ بِشُرُودِ الظَّبِيِّ وَفَرَارِهِ الَّذِي يَمِيزُهُ .

6- حيوانات أخرى :

وجدنا ونحن نبحث عن أهم موضوعات الطبيعة التي تغنى بها شعراؤنا

الشعبيون أنواعا أخرى حيوانية لكنها لم تحض بمكان واسع ، مع هذا أردنا أن

نشير إلى بعضها ، إذ ذكر على سبيل المثال الشيخ بن سهلة الليث فقال عنه ³ :

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 73 .

² - نفسه ، ص 115 .

³ - نفسه ، ص 50 .

عَنْدَهَا رَقَبَةٌ وَهَاجَ بِالذَّهَبِ تَغْنِي الْمُشَرَّرَ
 بَدْنٌ صَافِيٌ مِثْلُ الْعَاجِ سَاقَهَا فَاقَ الْبَلَّارَ
 أَعْذُرُونِي يَا الْإِنْتَاجَ سَاعِفُونِي عَقْلِي طَارَ
 فَنَيْتٌ فِي يَدِ الرَّجْرَاجِ شُوفَةُ اللَّيْثِ الْغَزَارَ

كما وجدنا ذكر للوحش الذي يرمز إلى الخوف والرعب الذي يعيشه الشاعر
 أو إلى الوحدة أحيانا ، قال سيدي الأخضر بن خلوف في قصيدة " قَدْرُ مَا فِي
 بحر الظلام " ¹ :

قَدَّرَ الصُّحُورُ وَقَدَّرَ الْغِيَامَ قَدَّرَ الْأَرْيَاحُ السَّبْعَةَ جَاؤُ مَتَابِعِينَ
 قَدَّرَ الطَّائِرُ فِي الْهُوَامِ قَدَّرَ وَحُوشٌ وَغَزَلَانُ فِي الْخَلَاءِ سَاكِنِينَ
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وذكر الوحش أيضا في قصيدة " لَوْلَا أَنْتَ " في قوله ²:

تَعْرِفُ أَسَاسَ الدِّينِ رَأَى عَلَيْكَ مُوَاجِبَ بِالنِّيَّةِ وَالصِّدْقِ وَاجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ
 مَا تَمْشِي مَشْيِي سَرِيعٍ وَلَوْ كُنْتُ هَارِبَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ جَرِي الْوَحْشِ عَادِمِ
 وذكره بن سهلة في قصيدة " ضَاقَ أَمْرِي " ³ :

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 50 .

² - نفسه ، ص 70 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 74 .

حَالِي حَالُ اللَّيِّ يَفَارِقُ الْأَحْبَابُ النَّاصِحِينَ وَالْأَهْلُ وَالْأَوْكَارُ
 بِشَوَامَخٍ رَائِقِينَ بَاسِقُ فِي رُوسِ الْفَلَوَاتِ وَفِيَا فِي وَقْفَارُ
 يِظَلُّ يِرَاقِبُ الطُّوَارِقُ زَعْمًا مِنْ يَجِي يَعَاوِدُ لَوْ الْأَخْبَارُ
 يَرْمِيهِ الْوَحْشُ بِالْمَرْزَاقُ يَطْعَنُ قَلْبُو وَيَحْرِقُ اكْبَادُهُ بِالنَّارُ

وفي ذكر الأسد قال بن سهلة في قصيدة " ما عندي مرسول " ¹:

جَاتُ فِي رُوسِ الْجِبَالِ ذَا الْغَزَالَةَ يَا عَقَالُ
 بَيْنَ الْأَسَدِ وَالْأَهْوَالِ وَالثَّعَابِينَ وَالنَّمُورَةَ أَهْلُ الرِّقَابِ
 نَاسٌ كُحِيلُ الْأَنْجَالِ مِنْ هَوَاهِمٍ لَبَدًا يَهَابِ

كما ذكر الكلب أيضا حينما نعت الشيخ سيدي الأخضر بن خلوف من هم منشغلين بشهوات الدنيا البعيدين عن طاعة الله بالكلاب ، وحذر من صحبتهم فيقول ² :

النَّاسُ أَذْيَابُ فِي ثِيَابِ وَالْمُسْتَذِيبُ يَرْجِعُ لِلْأَذْيَابِ ابْحَالُو
 بِأَلْكَ مِنْ خُلْطَةِ الْكَلَابِ خَالَطُ مِنْ طَاعِ النَّبِيِّ قَوْلُو وَأَفْعَالُو

انظرت اليوم في الكتاب

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 81 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 111 .

وذكره أيضا بنفس المعنى في قصيدة أخرى " الموت لا غنى تدركني " ¹:

مَوْخُودٌ مَعَ بَلَا شَيْطَانِي فِي حُبِّ أُمِّ الْغُرُورِ كَالْكَلْبِ مِنَ الْكَلَابِ

وَنَشُوفٌ كُلُّ مَا يَعْجِبُنِي التَّاحُ الْغَطَا عَنْ عَيْنِي وَتَرَكْتُ الصُّوَابَ

مَا أَقْوَاكَ رَاقِدَةً يَا عَيْنِي

ب- الحشرات والزواحف :

جاء ذكرها متفاوتا بين الشعراء وقليلًا مقارنة مع أنواع الحيوانات التي ذكرت سابقًا ، فإذا تحدثنا عن الحشرات وجدناها يكاد ينعدم توظيفها لدى معظم الشعراء عدا الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف ، ويعود السبب في ذلك أن جلّ قصائده كانت مديحًا فكلّمًا مدح خير الأنام وصلىّ عليه يذكر أنواع الحشرات من نمل ونحل وجراد وذباب للدلالة على كثرة عددها ، وكذلك جاء ذكرها لإظهار قدرة الخالق الذي أبدع في صنعها ، وسنحاول ذكر بعض النماذج منها .

يقول بن خلوف في قصيدة " لَوْلَا أَنْتَ " ² :

قَدَّرَ جُنُودَ النَّحْلِ وَالنَّمْلَ وَالذَّبَابَ وَالْمَرْجَى وَالْمَسْكَ فِي رِيَاضِ السَّفِينَةِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ الْعَرَبِيِّ يَا سَرَّاجَ الدَّهْرِ يَا أَحْمَدَ بْنَ آمِينَةَ

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 144 .

² - نفسه ، ص 67 .

و في قصيدة " إِلَّا وَجَهَ الْحَبِيبُ غَابٌ " ¹:

الْجَرَادُ وَالنَّحْلُ وَالذَّبَابُ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَرَابٍ وَصِلْصَالُهُ
قَابِضٌ فِي رَيِّ صَوَابٍ رَأَيْ نَسْغِي لِلْحَدِيثِ وَمَا قَالُوا
انظُرْتُ الْيَوْمَ فَوِي الْكِتَابِ

وفي ذكر العنكبوت يقول بن خلوف دائما ²:

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ قَدَّرَ مَا نَكْتَبُ فِي الْأَزَلِّ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ قَدَّرَ الْأَثْمَارَ فِي النَّخْلِ وَعَرَاجِينَ مُتَقَلِّينَ وَفَتْحَ النُّوَابِيرِ
قَدَّرَ عُلُومَ الْعَارِفِينَ بِالنَّقْلِ وَالْعَقْلِ مَكْسُوبٌ وَمُوهُوبٌ فِيهِ بَاطِنٌ وَظَاهِرٌ
قَدَّرَ مَا سَدَّاتُ الْعَنْكَبُوتُ مِنْ قَبَابٍ وَايْدِينَ النَّسَّاجِ فِيهِ مُحَرِّكِينَ

الزواحف :

هي الأخرى كما أسلفنا الذكر جاءت قليلة عند شعر هؤلاء بطبيعة البيئة التي كانوا يعيشون فيها ونحن نعلم أن الزواحف تعيش في البيئة الصحراوية ، لذا وجودها كان نادراً ، ونذكر ما قاله بن سهلة وهو يصف جمال محبوبته ويتغزل بها فيذكر الثعبان ³ :

¹ - الأخرى بن خلوف ، ديوانه ، ص 109 .

² - نفسه ، ص 68 .

³ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 33 .

شُفَايْفُ الرِّيمِ السَّقْمَةَ عَكْرِي فَاتُ الفِيلَالِي
الزُّنُودُ تُعَابِنُ المَاءَ والجيدُ جيدُ الجفَالِي

ثالثاً : عناصر الطبيعة المصطنعة :

أشرنا فيما سبق أنّ الطبيعة المصطنعة هي كل ما تدخلت يد الإنسان في صنعه من مباني ، منشآت ، مآذن ، مساجد ...إلخ

فكان الشاعر يقف معجبا بعظمة ما أبدعه الإنسان فيصوّر ويرسم تفاصيل العمران ، ونضج هذا النوع من الشعر بشكل ملفت في العهد العباسي حيث ازدهر العمران وبلغ أوجه في عصر هارون الرشيد وابنه المأمون اللذين بالغوا في اهتمامهما ببناء القصور وزخرفتها ، ومن أكثر الشعراء الذين برعوا في وصف مشاهد الطبيعة المصنوعة البحري عندما وصف إيوان كسرى :

وإذا ما رأيتُ صورةً أنطأ كية ارتعت بين روم و فرس
و المنايا موائل و أنوشَر وأن يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس¹

وعند وصفه للبركة التي شيدها الخليفة العباسي المتوفي عند قصره فيبين عظمتها بأنها تضاهي البحر وأن نهر الدجلة يغار منها ونقاؤها يعكس صورة النجوم في السماء ، وتظهر كأنها سماء أخرى ، إنه حقاً لوصف رائع بل فاق الروعة في ذكر عناصر الطبيعة المختلفة الصناعية والصامتة والحية فيقول² :

¹ - البحري ، الديوان ، تصحيح عبد الرحمن افندي البرقوقي ، ج2 ، المطبعة الهندية ،

مصر ، ط1 ، 1229هـ - 1921م ، ص 28 .

² - نفسه ، ص 204 .

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسات إذا لاحت مغانيها
يحسبها أنها في فضل رتبها
تعدُّ واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيري تنافسها
في الحسن طوراً وأطواراً تباهاها

فالمظاهر المتعددة للطبيعة التي صنعها الإنسان ببراعة وإتقان نالت الحظ الوافر من وصف الشعراء وعنايتهم الأدبية ، فنوّهوا بالقصور الرائعة والدور الفريدة والبرك والنوافير والصهاريج والحدائق .

ومما هو جدير بالذكر أنّ هذه المظاهر الطبيعية المصطنعة قد انتشر ذكرها ووصفها على وجه الخصوص في الشعر الأندلسي نظراً لبراعة الأندلسيين في تشييد القصور الشاهقة المتقنة البناء والمحكمة الصنع والزخرفة .

1- الحدائق :

يقول عنها بن خلوف في قصيدة " بك طابت الأثمار " ¹:

ليك صبت الأمطار وفاضت المنازل
واحتيات الجذبة ولات سريس خضراً
وابتهج النعمان الأحمر في القطيب
في حدائق مصنوعة ليك حافظاً
زينك أحسن وأبهى يا ركب النجيب
معدور من لا شافك عينه مغمدة

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 101 .

2- القصور :

أغلب الشعراء في عهد ملوك الطوائف أولوا قصور خلفائهم اهتماما واضحا في آثارهم الشعرية فوقوا عندها منوهين بملامح الحسن والجمال ومواضع الدقة والبراعة ، فأبوا الحسن البكري على سبيل المثال قد قام بوصف قصر المعتمد بن عباد ، فوقف عند رسوماته وزخارفه وتمائيله ، فقال ¹:

أُقْرَنَ الْغَزَالَةَ أُمَّ مَعْقَلٍ
يَكَادُ الْجَمَادُ بِهِ يُعْقَلُ
قَرَارُهُ أَنْسَ بِكَنْسِ الظَّبَاءِ
بِدَارِ الضَّرَاغِمَةِ الْبَسَلِ
تَجَرَّدَ أَفْوَاهُهَا فِي الصَّفَاءِ
سُيُوفًا بِشَمْسِ الضُّحَى تُصْقَلُ
وَلَيْسَتْ سُيُوفًا وَلَكِنَّهَا
لِظَامِي الثَّرِيِّ مَنْهَلِ سَلْسَلِ
تَشَقُّ الْمِيَاهُ بِهِنَّ الْمِيَاهُ
كَمَا شَقَّ فِي اللَّأَمَةِ الْمُنْصَلِ

¹ - الشنتريني ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبد الله ، منشورات الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، تونس ، ط1 ، 1975م ، ص 698 .

مَحَاسِنُ لِلرَّوَضِ فَيَاضَةٌ
 بِهَا تَضَعُ الْأَرْضُ مَا تَحْمِلُ
 وَفِي صَحْنِ سَاحَتِهِ مَجْلِسُ
 شُرُودِ اللَّحَاطِ بِهِ يُعْقَلُ
 كَأَنَّ تَمَائِيلَ جُدْرَانِهِ
 عَلَى مَنْ يَقَابِلُهَا تَقْبَلُ

وهكذا تحدث الشاعر عن التماثيل والنقوش التي زينت مجلس الأمير ، ونوه بسحر هذا القصر وانفراده بمعالم جمالية من نحوت ورسوم نادرة .

وقد احتذى شعراء الشعر الشعبي حذوهم وتقننوا هم الآخرون في وصف ما أبدعته يد الإنسان في صنعه ، فنوهوا بعظمة البناءات في تلمسان ، وما شيده الملوك والأمراء في عهد الزيانيين ؛ ونذكر منها ما قاله ابن مسايب في قصيدة " اعيت وأنا نذمم " ¹:

مَا أَمْلَحَ الْحَضْرَةَ طُولُ اللَّيْلِ لَوْ تَرَى
 تَحْتَ نَجْمِ الزَّهْرَا فِي مَنَازِلِ الْقُصُورِ
 لَا رُقَيْبَا يَرَى لَا قَوْمَ مَنَكْرَةَ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 93 .

وفي قصيدة " رَبِّي قَضَى " يظهر ما تزخر به تلمسان من عمران ومباني وقصور ، فيقول ¹:

فِي مَوَاسِطِ الْجِبَالِ أَعْلَاهَا وَأَبْنَاهَا شَيْدٌ لَهَا قُصُورٌ وَأَبْرَاجٌ وَبِيَّانٌ
جَعَلَ لَهَا قَوَاعِدَ بِهِمْ وَطَاهَا حَتَّى الْفَنَارِ لَهَا مِنْ الْبُعْدِ بِيَّانٌ

كما قال عنها الشاعر نفسه في قصيدة " نارٍ لِلْهُوَى " ² :

نَتَّأَوَّلُوا كَاسَ الْخُمُورِ مِنْ صَفْوَا أَطْيَبِ الشَّرَابِ
بَيْنَ الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ عُدُّ يَصِيحُ مَعَ الرَّيَابِ
وَالفَجْرَ رَاخَ السُّتُورِ وَالفَجْرَ بَانَ تَحْتَ الْحَجَابِ مَنْ

أما ذكر الشيخ بن خلوف للقصور فيتجلى في قوله ³ :

أَحْسَنُ مِنَ الرُّسُلِ جَابٌ أَكْمَلُ بَدْرُهُ وَطَلَعُ مِنَ الشَّرْقِ هَلَالُهُ
أَفْضَلُ مِنْ ضَمَّةِ التُّرَابِ مِفْتَاحُ قُصُورِ الْجَنَانِ أَلَّا بِيَدِهِ

انظُرْتُ الْيَوْمَ فِي الْكِتَابِ

يمدح في هذه الأبيات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه هو أحسن وأفضل وخير خلق الله ، الوحيد الذي يملك مفتاح قصور الجنان (الجنة) .

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 102 .

² - نفسه ، ص 152 .

³ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 110 .

3- القلاع :

ذكرها الشاعر بن مسايب عندما رثى مدينة تلمسان كيف كانت بقصورها
وقلاعها وعمرانها ، وما آلت إليه من زوال هذه المنشآت وضعف وانحطاط في
قصيدة " أراد كيف فعل " ¹:

جَاتَ مَا بَيْنَ عَطَّارٍ وَقُبَّةِ الْمَنَارِ مَعَ الصَّفْصِيفِ وَعَيْنِ الْحُوتِ وَأَزْرُونَ
الْخَنَادِقُ وَالْقَلْعَةُ وَحَنِيفٌ كَيْفَ دَارُ وَالجَنَحُ الْأَخْضَرُ وَالْعُبَّادُ وَالْعِيُونَ
مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانِدُ الْمَدُنُ

وقال عنها أيضا في قصيدة " ربي قضى " ² :

حَاكَمَ الْحُكَّامُ أَعْدَلَهَا بِأَشْغَالٍ مِنْ ثَقْنِ الصَّنْعَا
خَلَفَ الْخَنَادِقُ أَنْزَلَهَا مَا بَيْنَ الْبَعْلِ وَالْقَلْعَا

4- الحصون والأصوار :

وردت في شعر بن مسايب عندما أشاد بما تزخر به مدينة تلمسان من آثار
فقال ³ :

عِنْدَهَا صُورٌ مَدَوَّرٌ مُحَصَّنٌ لِلْمَنَعِ فِي الْحَجْرِ جِبَالَهَا حُرْزَهَا بِالْوَعْرِ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 98 .

² - نفسه ، ص 102 .

³ - نفسه ، ص 98 .

جَاتَ مَا بَيْنَ الصَّحْرَا وَالتَّلِّ مَجْتَمَعٌ فَارِحِينَ مَوَالِيهَا بُصِيدُ الْبِرِّ وَالْبَحْرِ

5- الأبواب :

أشرنا سابقا إلى أن مدينة تلمسان اشتهرت بأبوابها العديدة والمختلفة كباب جياذ ، باب العقبة ، وذكرت بعضها في شعر التلمسانيين الشعبي ، فقال عنها بن مسايب في قصيدة " أراد كيف فعل " ¹:

وَابْنُ النَّصْرِ أَحْمَدُ الْمَدْفُونُ يَا كَرَامٌ تَحْتَ بَابِ الْعَقْبَةِ مِنْ جَوَارِهَا قُرَيْبٌ

وَالْمَخْمَرُ ابْنُ الْحَسَنِ اسْتَقَامَ فِي طَرِيقِ الْخِدْمَةِ وَالْحُبِّ وَالْحَبِيبِ

ثم يقول ²:

كُلُّ بَابٍ عَلَيْهَا صَالِحٌ مَوْنُ الْكِبَارِ فِي الْخَفَا يَحْضِيهَا عَنْ سَائِرِ السَّنُونِ

6- الأسواق :

قال عنها ابن مسايب في قصيدة " ربي قضى " ³:

مَتَنَّفَعَةٌ أَرْبَابُ الصَّنَعَةِ مِنْ مَالِهَا مَالٌ حَلَالِي

اسْوَقَهَا اسْوَاقُ السَّلْعَةِ وَأَسْعَارَهَا رُخَيْسٌ وَغَالِي

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 99 .

² - نفسه ، ص 99 .

³ - نفسه ، ص 103 .

ثم يُظهِر في نفس القصيدة كيف أنّ تجارتها ضعفت وقلَّ الرِّيح وأصبحت
أسواقها خالية فيقول¹:

الأيَّامُ مَسَاعِدْتُهُمُ وَالوَقْتُ أَخْلَاهَا وَيَتَنَاصَرُوا عَلَى الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ
خَرَّبَ الْبَلَدَ الْمَخْزَنَ وَآكَلَاهَا الْإِسْوَاقُ خَالِيَةٌ وَالْبَاطِلُ زَنَانُ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 105 .

الرَّبِيعُ أَقْبَلَ يَا أَهْلَ الْحَمِيهِ¹

الرَّبِيعُ أَقْبَلَ بِجِيُوشُو بَرْقَ وَرِيَّاحَ

وَالرَّعْدَ اطْبُولُو رَنْتَ عَسْكَرَ وَقْوِيهِ

الْمُزُونُ اتَّبَعَ اخْلَافُو مَسَا أَوْ لَصْبَاحَ

فِي جَوِّ اسْمَاهَا بِمَطَارِهَا قْوِيهِ

حَيَاتُ أَنْبَاتِ الْأَرْضِ كَذَا أَوْ لِبَطَّاحَ

بَعْدَ كُنْتُ جَادِبَةً رَجَعْتُ فِي سَنِيهِ

الرَّبِيعُ أَقْبَلَ يَا أَهْلَ الْحَمِيهِ

هَذَا فَصَلَ الرَّبِيعُ يَجْلِي كُلَّ أَحْزِينٍ

اغْنَمْ يَا مَنْ قَلْبُهُ فَالْعَشْقُ فَانِي

انْكَسَاتُ الْأَرْضِ بِحَلَلٍ مُخْتَلِفِينَ

زَهْرَةَ الْأَشْجَارِ لِيْمُونُ أَوْ رُمَانِي

الطَّرْحَنُجَ وَاللَّوْزَ بَيْنَهُمْ فَاتَّحَ زَيْنُ

¹ - تنتمي القصيدة إلى ما يدعى " فن الربيعيات " التي تكثر من ذكر فصل الربيع ووصف جماله من أنوار وأزهار وأطيوار ، والربيعيات تسمية جزائرية خالصة تعرف في المغرب الأقصى بـ " الصبوحى " أو " العرسة " ، أنظر عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 40 .

صَفُوفُ التِّينِ وَالنَّخْلِ وَعَرَائِشُ وَسْوَائِي

وَعُشُوبُ الْأَرْضِ كُلِّهَا لِأَفْحَةِ أَوَانِي

الرَّبِيعُ أَقْبَلُ بِفُصَالِهِ لِلْعُشَيْقِ سَلْوَانُ

خَاطِرُهُ يَتَسَلَّى مِنْ كُلِّ بَأْسٍ يَهْنِي

الزَّهْرُ وَالنَّسْرِيُّ وَالْفُلُّ أَمَعَ السَّيْسَانُ

مَرْدُقُوشُ وَالْخَيْلِيُّ فِي طُرَافٍ يَأْسَمِينَا

السُّنْبُلُ وَالنَّرْجِسُ وَالْبَاغُ وَالْقَيْقَلَانُ

قَرْنُفُلٌ أَوْشَاشُوكِي بَيْنَهُمْ لِحَبَقٍ عَنَا

الْبَابُونَجُ وَقَصْنَدَشُ وَالزَّرِيرِقُ بَطِيبٌ فَاحٌ

وَرْدٌ الْمِسْكِيُّ يَعْبَقُ بِنَسَائِمِهِ ذَكِيَّةٌ

خَشَاشٌ أَوْ مِسْكُ الرُّومِيِّ زِينُهُ اشْبَاحٌ

دِيدِحَانٌ وَعَطْرَشَةُ لِلنَّظَرَةِ زَهِيَّةٌ

الرَّبِيعُ أَقْبَلُ يَا أَهْلَ الْحَمِيهِ

هَذَا فَصْلُ النُّوَارِ فِي زِينِهِ مَكْمُولُهُ

بِالْحَسَنِ وَالْبَهَا وَكَأَعْلَائِمٍ

الْبَهْرُ وَاللُّويزُ وَالْيَاسُ بِالزَّيْنِ أَيْصُولُ

الورد من كل نوع شبير والقرنفل عمائم

الدمران والريحان والزريرق مخبول

زرنب او جالر في فرعه متبسم

الحال او بن النعمان هايم

الارض انخرقت بكل طيب نسمه

باللقاح كل اعشوب والنبات مسبول

اخضارت ابساطات ارياضها تنعم

والاشجار مشتبكة بفروعها تصول

وجداول تجري بمياه سيل هايم

اعلى خطوط الزرابة اعلى العرض او طول

او لطيار في بستان تصيح اصياح

اعلى منابر الاغصان يسبحو زهيه

الهزار يهلل فوق اغصان لدواح

والبشيق يجاوب بصواته اهنيه

الربيع اقبل يا اهل الحميه

اسغ حس لطيور ناطقة بصوت مرفوع

بهبوبِ النسائمِ الصابه بتمجيد تصادي

أم الحسن بصوتها تهيج من هو مولوع

والبابل من انغايمة لشواق تزدادي

منيار يحنن وايزيد للقلب اخشوع

والحريل ابمايته ينشد اعلى شطوط الوادي

وتمام فرجت لطيار الخصيم الحدادي

المقائن تفخر بصواتها اتباعه

اعلى السواقي ومياه تدفق كم وادي

الدمغان يفكر وايزيد فالولاعة

اعلى فروع لشجار ابصوته اينادي

القمري يغرد في بروج الرفاعه

اليمام والفاخت تتشد فالوهادي

قم تنغم فرجة يوجودا قدوم لفراح

امع بنات الهيفات اغنايم السعيه

في مقام امعلي وصوات بيت وصياح

والشمع فالحسكة دموعه اسنيه

الرَّبِيعِ اقْبَلِ يَا أَهْلَ الحَمِيهِ

يَا سَاقِي المَدَامْ غَدْرَ لِي كَاسِ ائِدُوقْ

هَذَا وَقْتُ السَّرُورِ اسْقِي يَا السَّاقِي

بَيْنِ اسهَارجُ قَصُورِ تَطْفِي نَارِ الشُّوقِ

دُرُ نَدِيمِ الرَّاحِ لِأَهْلِ الأَدْوَاقِي

سَنْتِيرِ يَسْكُنُ روعَتِ كُلِّ اقْلُوقِ

طَبَعَ القَانُونِ زَادَ بِالحُسَيْنِ اتْفَاقِي

العَاشِقِ وَالمَعشُوقِ تَحْتَ ظِلِّ الأورَاقِي

العَشِيقِ مَسْلِي تَحْتَ ظُلُومِ لَوْرَاقِ

بِالهِنَا مَتَبَاشِرِ بِكِيُوسِ انْ سَقِي

وَالرِّيَامِ فِي سَطْوِهِ تَمَلَا كِيُوسِ الرَّحَاقِ

بَيْنِ قُوسِ او رِيشَةَ وَصَوَاتِ مَتْرَافِعَةِ

الرَّبَابِ يَفْكَرُ وَيُهَيِّجُ لَخَلَاقِ

كَمَانِجِهِ او طَارِ فِي تَبَاعِهِ بَرَقَهُ

بِالصَّنَايِعِ وَدَرَاكِ اَبْرَاولِ وَأُقْبَاحِ

التَّوَاشِحِ وَزَجُولِ وَمَطَارِ بِالحَمِيَّةِ

ارتاح القلبُ المِضْنِي بِحُضُورِ وَجْهِهِ لِمَلَّاحٍ

بِالزَّهْوِ وَالْفُرْجَةِ فُرُونَقُ لِعَشِيهِ

الرَّبِيعِ اقْبَلِ يَا أَهْلَ الْحَمِيهِ

انظُرْ شَمْسَ لَغْرُوبٍ فِي حُلِّهِ تَبَهَّرَجْ

اعْلَى ذَاكَ الرِّيَاضِ طَبَعُ لُؤْ جَايِبِ

يَا السَّاقِي طَابَ السَّرُورِ آمَلَالِي وَامزِجْ

هَذَا وَقْتُ الرِّوَاخِ زَهَاتِ لِحَبَايِبِ

اغْنِي لَشَعَارَ نَاطِقَةَ وَكِيَاتِرِ تَحْرَجْ

أَوْ الْفَحْلَ يُولُولِ بَيْنَ دُوكِ الشَّبَايِبِ

وَانغَايِمِ لُوتَارِ مَخَاوِي شُبَابِ أَوْ شَايِبِ

زَادَ طَبَعُ الْعُودِ بِالصُّوْتِ ايعْرَبْ

لِلْمَلَّاحِ الْجَلْسَةَ غَنِمَتْ مَا احْتَاوُ

الْجَنَاحِ يَرْخَمُ بِالْدَيْلِ يَجَاوِبْ

فِي مَنَازِحِ الرِّفَاعَةِ دُوكِ لِبَكَارِ هَاوُ

سَقَامَتْ الْحَضْرَةَ بِالزَّهْوِ وَالْمَلَاعِبِ

وَالْقَمَرَ فِي دَارِهِ يَضْوِي غَسِيقُ دَاوُ

رَنَّتِ الْمُوسِيقَى بِمَآيَةِ الصَّبَاحِ

جَلَاوِ الصَّهَبَا فِي كَيْوَسِ بُنْدُوقِيَّةِ

هَذَا إِذَاكَ يَتَمَآيِلُ مَخْمَرِينَ بِالرَّاحِ

وَالفَجْرُ بِشِعَاعِهِ عَلِمَ بَلَا خَفِيهِ

الرَّبِيعِ اقْبَلِ يَا أَهْلَ الحَمِيهِ

الفَجْرُ اعْلَمْ بِشِعَاعِهِ لُونُ اعْقِيْقِ

خَفَاتِ انْجُومِ الدَّاجِ لِلْخَفِيَّةِ سَاقُو

لَمَّا نَارُ الصُّبْحِ خَوَاتِ الشَّمْسِ اشْرِيقِ

هَبِّ النَّسِيمِ اعْلَى لِدَوَاحِ رَقِصَتِ اوراقِهِ

لَطِيَّارِ اعْلَى لَشَجَارِ يَنْبَهُوا كَلَّ اعشِيقِ

لِلْمَوَادِعَةِ يَنْسِقَى وَاِفْنَاجَلِ ارْحَاقُو

أَحْفَاضِي خُودِ اقْصِدِ بِمَحَاسِنِ زَوَاقِهِ

خُودِ يَا حَفَاضِي حُلِهِ بَطْرَزِ لَشَوَاقِ

بِالْمَآيَةِ مِيزَانَ تَسْلِي كُلِّ عَاشِقِ

اسْمِي يَفْهَمُوهُ أَهْلُ الْعُقُولِ لِحَدَاقِ

سَادِسَ عَشَرَ وَالنَّسَبَ مِنَ النِّسْلِ الصَّادِقِ

شِينِ سِينِ مُصَحَّحِ تَارِيخِ اشْهَرِ بِتَفَاقِ

وَإِوِ اَوِ نُونِ مَرْسُومِ يَقْرَاهُ كُلُّ فَايِقِ

فِي مَحْرَمِ حَيًّا هَذَا لِبَيَّاتِ لَشْرَاحِ

بَعْدَ هِجْرَةِ مَكَّةَ بُو فَاطِمَةَ الزَكِيَّةِ

سَلَامِ رَبِّنَا نَهْدِيهِ لَحَبَّارِ الْفَنِّ الرَّجَّاحِ

الْمُنْدَاسِي نَرْجِي رَحْمَةَ الْكُرَيْمِ لِيَا

يَا كَرِيمِ يَا رَحْمَانَ اغْفِرْ اَوْ جُودَ بِالسَّمَّاحِ

لِلْوَالِيْنَ وَالْإِسْلَامِ بُوْرَقِيَّةِ

سَلَامِ لَشِيَاخِ مَتَعَطَّرِ بِالْمِسْكِ فَاحِ

الْجَاحِدِ وَالْحَاسِدِ فَالِدُنِّيَا شَقِيَّةِ

الرَّبِيعِ اقْبَلِ يَا أَهْلَ الْحَمِيَّةِ

الربيع أقبل يا إنسان¹

الرَّبِيعُ أَقْبَلَ يَا إِنْسَانَ
يَا نَدِيمَ أَيَّا لِلْبُسْتَانِ
قَوْمٌ تَرَى دَرَاهِمَ اللُّوزِ
وَالنَّسِيمَ هَبَّبَ فِي الْحَوْزِ
دَابَ تَلْقَحَ وَرَقَةَ الْجَوْزِ
الرِّيَاضُ يَعْجِبُنِي أَلْوَانَ
يَا نَدِيمَ أَيَّا لِلْبُسْتَانِ
قَوْمٌ تَرَى الْوَرَقَ يَجَدُّ
وَالطُّيُورَ الْكُلَّ تَنْشُدُ
أَمَلَالِي كَاسِي وَجَدُّ
المَلِيحُ يَعْجِبُنِي سَكَرَانَ
يَا نَدِيمَ أَيَّا لِلْبُسْتَانِ
أَجِي تَرَى يَا مَنْ هُوَ يَعْشَقُ
قَوْمٌ يَا صَاحِبَ البِضَاعَا
نَغْنَمُوا فِي الدُّنْيَا سَاعَا
تَدْفَقُ عَنْ كُلِّ جِبَاهَا
جَا بِشِيرِ الخَيْرِ لِيهَا
وَالطُّيُورُ تَنْشُدُ عَلَيْهَا
مَا ابْدَعُوا فَصْلُ الخِلَاعَا
نَغْنَمُوا فِي الدُّنْيَا سَاعَا
وَالأَزَاهِيرُ فِي حُلِيهَا
تَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللهُ عَلَيْهَا
هَذَا هُوَ فَصْلُ التُّزْيَاهَا
حِينَ يَقُولُ سَمْعًا وَطَاعَا
نَغْنَمُوا فِي الدُّنْيَا سَاعَا
نَشْرِبُوا كَاسَ الحُمِيَا

¹ - مجهولة المؤلف ، أنظر عبد الحميد حاجيات ، الجواهر الحسان في نظم أولياء

تلمسان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982م ، ص 198 .

رِيحْتُو رِيحًا ذَكِيًّا

عَشَقْتِي هَيَّجَ عَلَيَّا

مِنْ مُدَامَةِ الْوَلَاعَا

نَغَمُو فِي الدُّنْيَا سَاعَا

وَالرَّهْرُ وَالْوَرْدُ يَعْبَقُ

وَالطُّيُورُ فَوْقَ الْغُصْنِ تَنْطَقُ

الْمَلِيحُ يَمَلَا لِي قُطْعَانَ

يَا نَدِيمُ أَيَّا لِلْبُسْتَانَ

هَبَّ النَّسِيمِ صَبْحَ الصَّبَاحِ¹

هَبَّ النَّسِيمُ صَبْحَ الصَّبَاحِ
وَالرَّوْضُ هَزَّتْهُ الرِّيَّاحُ
وَأَجْلَسَنَ مَا بَيْنَ الْمَلَّاحِ
بِالْوَصْلِ قَدْ اجْنَيْتَهُ
اعْيَيْتَ نَنْظُرَ فِي الْمَلَّاحِ
وَجَرَ الْمَا عَلَى الْغُرُوسِ
وَالْبَسَ حَلَالُو كَالْعُرُوسِ
فِي حَضْرَةِ تَحْيِي النَّفُوسِ
أَهْ يَا مُقَابِلَ تَعَجُّبُو
مِثْلَ الرَّشَا لَا يَكْذِبُو

نَبَّهُ جُفُونَكَ رَقَدُوا
وَالْخَمْرَ رَقْرَقَ فِي يَدُو
وَأَبْقَيْتَ حَايِرَ فِي وَعْدُو
عِنْدَ الشَّرَابِ قُلْتُ لَهُ
بِاللَّهِ يَا غُصْنَ اللَّقَّاحِ
وَأَنْظُرْ لِضَوْءِ الْفَجْرِ لَاحُ
وَالشَّمْعُ يَقْدِي فِي الصَّبَّاحِ
مَا بَيْنَ الرَّهْرِ أَمَعَ اللَّقَّاحِ
أَمَلَالِي كَاسِي نَشْرِبُو
مَحْبُوبِكَ لَاشِ اتْعَذِبُو

¹ - مجهولة المؤلف ، عبد الحميد حاجيات ، مرجع سابق ، ص 140 .

يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ¹

يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ
مَا نَقَطَعُشِي الْيَاسُ رَأَيْتَ طَامِعَ بُوَصَالَهَا
فِي الْبُسْتَانِ الْبَاهِي الْعَجِيبُ يَا قَامَةَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ
وَالْقَلْبُ فِي تَهَوَّاسٍ وَحَشَاكَ يَشِيبُ مَنْ لَا يَشِيبُ
وَضَرْفَةَ فِي تَكْيَاسِ يَا صِفَةَ الْبَدْرِ إِلَّا يَغِيبُ
فِي لَيْلَةِ عَشْرَةَ بِالْكَمَالِ يُضْوِي خَدَّكَ مِثْلَ الْهَلَالِ
يَتَخَبَّلُ فِي الْأَخْرَاسِ كَيْتَمَإِيحَ تَحْتَ الدَّلَالِ
تَسْبِي الْعَاشِقُ بِكِيَّاسِ بِالزَّيْنِ الْفَإِيْقِ وَالْجَمَالِ
نَحْكِي بُسْتَانَةَ قَدْهَا تَسْبِي مَنْ يَرَى خَدَّهَا
الشَّفَرُ مُذَبَّلُ نَعَّاسِ وَحَوَاجِبُ فَوْقَ عِيُونِهَا
تُزَعْبَلُ يَا ذَا النَّاسِ بِالْقَدِّ الْكَامِلِ وَالْبُهَا
وَالكَاسِ مِنَ الْبَلَّارِ الشَّرِيقِ نَسْقِيهَا مِنَ الْخَمْرِ الْعَتِيقِ
طُيُورِي مِنْ كُلِّ اجْنَاسِ وَتَصِيحُ بِالصُّوْتِ اللَّيِّ يُلِيقُ
وَالْمَنِيَّارَ الدَّوَّاسِ الْقُمْرِي وَالْفَآخِتُ وَالْبَشِيقُ

¹ - ابن مساييب ، ديوانه ، ص 66 .

جَائِبِ الأُبَيَّاتِ مَنْظُمِينَ

تَشْفَى لَهُ كُلَّ إِحْسَاسٍ

بِحُرْمَةِ سَيِّدِ النَّاسِ

ابْنَ مَسَائِبٍ يَا سَامِعِينَ

طَالِبٍ مِنْ رُثَّةِ الحَنِينِ

يَغْفِرُ لَهُ وللِوَالِدِينَ

أَرَادَ كَيْفَ فَعَلَ¹

أَرَادَ كَيْفَ فَعَلَ بِهَا مَالَهَا اخْتِيَارَ
ضَعْفَتْ وَاخْلَاهَا الْهُولَ مَدِينَةَ الْجِدَارِ
هَكَذَا قَدَّرَ قُضِيَ رَبَّنَا الْحَكِيمِ
مَالِكُ الْمَلِكِ الْحَيِّ الدَّائِمِ الْقَدِيمِ
مَا عَلَيْهَا مَرْتَاخٌ غَنِيٌّ وَلَا عَدِيمِ
مَا بَنَاتُ النَّاسِ وَعَلَاتُ فِي الْهَدِيمِ
غَافِلَةٌ مَا نَبَهَتْ لِلْفُلْكَ كَيْفَ دَارَ
وَالْمَرِينِيِّينَ وَيُنُو زِيَانَ الْجِدَارِ
سَبَقَ لَهَا فِي الْأَزَلِّ هَكَذَا تَكُونُ
مَا بَاقِي فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ
كَيْفَ أَرَادَ فَعَلَ بِأَحْكَامِهِ وَقِدْرَتُهُ
مَنْ نَشَأَ الدُّنْيَا وَابْسَطَهَا بِنِعْمَتِهِ
وَكُلُّ مَنْ هُوَ فِيهَا مَعْلُومٌ تَعَبْتُهُ
وَأَشْ فِيهَا بَيَانَ الصَّحِّ تَرَكْتُهُ
وَإَيْنُ بَنِي الْوَطَاسِ وَقَاقُ الْفُنُونِ
عَانَدَتْ بِهِمْ مَنْ جَا طَالِبُ الْفُتُونِ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

وَإَيْنُ هِيَ حَسْرَاهُ وَإَيْنُ نَاسُهَا
كَانَتْ عُرُوسَةٌ وَالتَّاجُ فُوقَ رَاسِهَا
صَنَاعَهَا حَسَنٌ بِهِجٍ مَطْبُوعٌ لِبَسِهَا
نَصْرَتْ الْمُؤْمِنِينَ شَدِيدٌ بِأَسْهَا
دُونِ اللَّيِّ فِي الْعُرْبَانَ خَارِجَ الْحِصُونِ
زِينَةُ الْهَمَّةِ مَا مَثِيلُهَا بِلَادُ
قَاعِدَةٌ فِي مَجَالِسِ مَا رَأَاهَا فَسَادُ
لُونَهَا لُونٌ غَرِيبٌ وَنَاسُهَا جُودُ
حَارِبَتْ وَقَالَتْ أَنَا طَالِبُ الْجَهَادِ
كَسَبَتْ مِائَةَ أَلْفِ مَلْجُومٍ فِي الْحَضَرِ

¹ - ابن مساييب ، ديوانه ، ص 97 .

عَمِلَتْ الْعَزَّ لِمَنْ كَانَ فِي الْجَوَارِ جَمِيعَ مَنْ قُرْبَهَا صَانَهُ الْمَلِكُ صُونُ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمُدُنُ

كَانَتْ بَعْرُ عَظِيمٍ وَشَانَ مَرْتَقِعُ مَنْ يَرَاهَا يَتَمَنَّاها فِي الشَّرِّ
بَاهِيَّةٌ صَفْتَهَا مَكْمُولَةُ الطَّبَعِ صَبَاحَهَا وَمَسَاهَا يَغْنِي عَنِ الْفَقْرِ
عِنْدَهَا صُورٌ مَدَوَّرٌ مَحْصَنٌ لِلْمَنْعِ فِي الْحَجَرِ جِبَالَهَا حُرْزَهَا بِالْوَعْرِ
جَاتَ مَا بَيْنَ الصَّحْرَا وَالتُّلِّ مَجْتَمِعُ فَارِحِينَ مَوَالِيهَا بُصِيدُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
جَاتَ مَا بَيْنَ عَطَّارٍ وَقُبَّةِ الْمَنَارِ مَعَ الصَّفْصِيفِ وَعَيْنِ الْحُوتِ وَأَزْرُونَ
الْخَنَادِقُ وَالْقَلْعَةُ وَحَنِيفٌ كَيْفَ دَارُ وَالْجَنْحُ الْأَخْضَرُ وَالْعُبَادُ وَالْعِيُونَ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمُدُنُ

كَانَتْ الْبَهْجَةُ مِنْ قَبْلِ الْآ يَكُونُ فَاسُ فِي الزَّمَانِ الْفَايِتِ مَشْنُوعَةَ اخْبَارِهَا
صَافِيَةٌ فَضَّتْهَا مِنْ جَرَّةِ الدَّنَاسِ مِنْ مَعَادِنِ الثَّبَرِ الْكُلِّ أَرْضِهَا
أَرْضِهَا أَرْضُ الطَّيِّبِ كَثِيرَةَ الْأَنْفَاسِ وَالْمَكْسَّرُ يَجْبَرُ بِسَبَبِ جِيرِهَا
مَنْ سَكَنَهَا حَتَّى قُبَّةٌ يَصْفَى خُلَاصُ شَاهِدَتَهَا الْأُمَمُ تَفْخَرُ بِخَيْرِهَا
صَاحِبُ التَّوْحِيدِ سَكَنَهَا وَاشْتَهَارُ لِأَهْلِ الْعُلُومِ وَقَرَأُوا عَلَيْهِ الْفُنُونُ
مِنْ أَصْنَافِ الْخَيْرَاتِ الدَّرَرِ وَالْحَجَارِ فَوْقَ الْعُلُومِ قَرَأُوا عَلَيْهِ الْفُنُونُ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمُدُنُ

كَانَتْ بُلْدَ الْحَقِّ وَالِدَيْنِ وَالْيَقِينِ
عِنْدَهَا بَنُو مَرْزُوقِ نُسْبَةِ الْحُسَيْنِ
وَالْمَغِيلِيِّ وَابْنِ مَعْرُوفِ الْمُكِينِ
كَانَ ابْنُ يَسْحَاقَ وَابْنُ سَعِيدٍ يَنْذَكِرُ
فِي الْعَقْلِ وَالْمَنْقُولِ سَمِعْتَ لَهُمْ أَخْبَارَ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

كَانَ فِي الْبَهْجَةِ يُسَمَّى ابْنُ الْيَمَامِ
وَابْنُ النَّصْرِ أَحْمَدَ الْمَدْفُونِ يَا كَرَامَ
وَالْمُخَمَّرِ ابْنَ الْحَسَنِ اسْتَقَامَ
كُلُّ بَابٍ عَلَيْهَا صَالِحٌ مِنَ الْكِبَارِ
وَالْمَغِيثِ شُعَيْبِ أَبُو مَدِينِ اسْتَتَارَ
وَالْفَقِيهِ ابْنَ عَيْسَى وَالصَّعْدُو الْخَطِيبِ
تَحْتَ بَابِ الْعَقْبَةِ مِنْ جَوَارِهَا قَرِيبَ
فِي طَرِيقِ الْخِدْمَةِ وَالْحُبِّ وَالْحَبِيبِ
فِي الْخَفَا يَحْضِيهَا عَنْ سَائِرِ السُّنُونِ
بِهِ زَالَتْ أَوْهَامِ الشُّكِّ وَالظُّنُونِ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

عِنْدَهَا وَطَنٌ عَجِيبٌ وَعِنْدَهَا غُرُوسُ
جَاتَ بَيْنَ تَرَارٍ وَجِبَالِ بَنِي سُنُوسِ
مِنْ هَوَاهَا وَمِنْ مَاهَا تَرْتَاخُ النَّفُوسِ
بِالْفَوَاكِي وَالْخَيْرِ وَكُلِّ مَاشِيَةٍ
عِنْدَهَا نَحْوُ الْعِشْرِينَ أَلْفَ سَاقِيَةٍ
لَا وَجَدْتُهُمْ أَرْضَ بِأَمْوَالٍ غَالِيَةٍ

حَاطَ بِهَا الكَسْبَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ
مِنَ التَّبَرِّ وَالْفَضَّةِ وَنَحَاسِ وَالدُّونِ
وَالْمَعَاظِنُ هَذَا بَارِدٌ وَذَا سَخُونُ

خَيْرَهَا يَاسِرٌ وَمَا فِيهِ مِنْ فُلُوسٍ
وَالْمَعَادِنُ فِيهَا شَلًّا كَثُمُوا أَسْرَارُ
أَشْجَارُهَا بِخُضُورَةٍ عَلَاتِ وَالثَّمَارُ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

تَفْتَخِرُ بِالْعِدَّةِ وَالخَيْلِ وَالرِّمَامَا
مِنْ حَقَائِقِ الْمُلْكِ وَتَسْفِيكَ الدِّمَا
الْحَلِيِّ وَالْحَلَّةِ وَالتَّاجِ بَعْدَمَا
بَعْدَ دَارِبَهَا الْحُكْمِ وَوَلَاةِ لَعْمَا
مَا نَفَعِ فِيهَا غَيْرَ مَعْدِي وَالزَّقُونُ
مَكْتَرَةٌ عَلَيْهَا الْأَحْزَانُ وَالغُبُونُ

كَانَتْ يَا حَسْرَتَهَا فِي أَيَّامِ الْمَالِ وَالرِّجَالِ
جَالَتْ وَصَالَتْ وَاسْتُولَاتِ كُلِّ حَالِ
مَعَ مَلُوكِ السَّعْدِيَّةِ وَرَثَتْ الدَّلَالِ
مَا أَنَهَدُوا لَسَطُوتِهَا حَدَّ كُلِّ مَالِ
حَدَمَا طَاقَ يُعُودُ لِقَرَارِهَا قَرَارُ
مَسَهَا الضَّرُّ مُضَاتِ وَعِيشَهَا مَرَارُ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمَدُنُ

فِي الْمَقَامِ الْعَالِيِ وَالْمَنْزِلِ الرَّفِيعِ
وَالْمَغَانِيِ وَالْحُسْنِ وَالْفَائِقِ الْبَدِيعِ
كَاسٌ يُوهِجُ زَادَ مَثِيلُهُ مِنَ الْقَطِيعِ
فِي كُلِّ بُسْتَانٍ دَارَتْ الْعِزُّ وَالْجَمِيعِ
وَالْجَوَامِعِ وَخُصَّصَ بِمِيَاهِ الْعِيُونِ

كَانَتْ الْبَهْجَةُ عِنْدَ سَلَاطِينِ الْعَرَبِ
عَاشَقَتْهَا مَلُوكُ الزُّهُوِ وَالْأَنْطُرَابِ
وَأَشْ يَعْرِفُ مَنْ لَأَمَنَ يَدِيهَا شُرَابِ
نِزَاهَةُ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْمَالِ وَالْكَسْبِ
عِنْدَهَا وَطَنٌ مَلِيحٌ وَعِنْدَهَا الدِّيَارُ

ثَقَلَتْ غُرُوسَهَا بِشَمَائِمِ النُّوَارِ الزَّهْرُ وَالنَّسْرِيُّ وَالْوَرْدُ فِي غُصُونِ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمُدُنُ

يَا دُرَى فِي الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا تَعُودُ كَيْفَ كَانَتْ فِي الدَّهْرِ الْفَايِتِ الْقَدِيمِ

لَيْتَهَا تَعْمَرُ وَتَتَوَلَّى فِيهَا شُهُودُ بَعْدَ تَرْكَتِهَا الْأَيَّامُ بِقَدْرَةِ الْحَكِيمِ

هَذَا هِيَ الْعُشْرَةُ لِيهَا مِنَ الْجُدُودِ نَاطِرِينَ لِمَوْلَى السَّاعَةِ يَأْتِي زُعِيمِ

تُحَدُّ ثَوَابُهُ النَّاسَ وَجَابَتُهُ أَخْبَارُ شَيْ رَفَعُ شَيْ خَفَضُ مِنْ خُوفٍ مَا يَكُونُ

ابْنُ مَسَايِبٍ مَا زَالَ لُخَاظِرُهُ غِيَارُ صَابِرُ الْحُكْمِ إِلَّا لَهُ رَاضٍ بِمَا يَكُونُ

مَا بَقِيَ فِيهَا بِأَشْ تَعَانَدُ الْمُدُنُ

يوم الخميس¹

سُبْحَانَ خَالِقِي سُلْطَانِي مَنْ لَا يَنَامُ رَبِّي عَالِمَ الْأَسْرَارِ
قَدْرٌ وَأَرَادَ لِي وَبِلَانِي زَلَيْتُ بِالْقَدَمِ نَظَرْتُ الْأَبْصَارُ
حَتَّى لَقِيتُ مَنْ سَلَبْتَنِي بِالْحَسَنِ وَالْبَهَاءِ وَالزَيْنِ الْمَسْرَارِ
يَوْمَ الْخَمِيسِ وَاشْ أَدَانِي حَتَّى لَقِيتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوغَةَ الْأَشْفَارِ

اللي غرامها مضاني

يَوْمَ الْخَمِيسِ سَارَتْ بِيَا رَجَلِي لَعْنَدَ رَأْسِ الشَّارِعِ
لَقِيتُ فَاطِمَةَ الْهَمِيَّةِ شَبِيهَةَ الْهَالِ الْطَالِعِ
مَا لَهَا مَثِيلٌ فِي الدُّنْيَا تَاجَ الْأَرْيَامِ يَا مَنْ تَسْمَعُ
كُوَاتِنِي بِنَارِ قَوِيَّةِ وَمَشَيْتُ بِالْغَرَامِ مُوَلِّعِ

مَشَيْتُ مِنْ هَوَاهَا فَانِي قَلْبِي وَخَاطِرِي شَعَلَتْ فِيهِ النَّارُ
مَا لِي صَدِيقٌ مَن يَنْعَرْنِي يَمْشِي لَهَا مَصْبُوغَةَ الْأَشْفَارِ
يَجِيبُ لِي أَخْبَارَهَا وَيَجِينِي يَعْمَلُ جَمِيلٌ فِيَا يَهْدِيهِ الْقَهَارُ
يَوْمَ الْخَمِيسِ وَاشْ أَدَانِي حَتَّى لَقِيتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوغَةَ الْأَشْفَارِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 37 .

اللي غرامها مضاني

يُومُ الخَمِيسِ وَأَشْ أَدَانِي
مَا فُقْتُ بِهِ حِينَ نَبَانِي
جِيتْ نَتَّبَعَهُ جَاوِينِي
ذُوكُ الحَسُودِ يَكْرَهُونِي
النَّاسُ رَاهِمُ شَافُونِي
بَلَا عَقْلَ هَايِمِ خَلَانِي
لُقَيْتُ حَا الغَزَالَ يَحَوَسُ
أَحْمَرُ الخُدُودِ كَحِيلِ النَّاعِسُ
يَهْدِيكَ غَيْرِ ايسُ
وَيَشِيْعُ خَبْرَنَا مَا يَنْدَسُ
كُنْ لُبَيْبُ فَاهِمُ كَيْسُ
مَشْطُونُ مَمْحُونُ وَغَايسُ

بِالزَيْنِ وَالبِهَاءِ عَذَبْنِي
وَالعُيُونُ شَفَرَهُمْ سُودَانِي
مَوْلَاهُ حَارِزُهُ سَيْسَانِي
يُومُ الخَمِيسِ وَأَشْ أَدَانِي
عِنْدَهُ جَبِينُ صَافِي مَثَلِ الغَرَارِ
وَخُدُودُ وَرْدٍ فَاتِحُ فَاتِ الجَنَارِ
عَلَيْهِ دُورُ البِيْبَانِ وَالأَسْوَارِ
حَتَّى لُقَيْتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوغَةَ الأَشْفَارِ

اللي غرامها مضاني

هَذَا الغَزَالَ بَاهِي الصُّورَةِ
الشَّفَرُ مَا أَحْسَنُهُ بِالنَّظَرَةِ
لِلوَرْدِ وَالزَّهْرِ مَثَلْتُهُ
وَالعَيْنُ بِالكُحُولِ وَآتَاتُهُ

هَآوِي عَلَى الصُّدْرِ طَلْقَاتُهُ
وَكُفُوفَ عَكْرِي فِي أَنْعَاتِهِ
فِي جِيَانَا وَجِيْلَ اللَّي فَآتُوا

يَا مِنْ تَسَالَنِي نَعْطِيكَ أَخْبَارُ
رَقَبَةً مَقْوَمَةً مِنْ عَاجٍ وَبِلَارُ
الْقَدِّ مِثْلَ النَّخْلَةِ مَالَتْ بِثَمَارُ
يَوْمَ الطَّرَادِ قَبْضَةَ فَارِسٍ غَزَارُ
حَتَّى لَقِيْتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوغَةَ الْأَشْفَارُ

اللِّي غَرَامَهَا مَضَانِي

زَادُوا مَحَنَّتِي وَعَذَابِي
وَالسَّاقُ بَرْدْفِيهِ يَسْبِي
سُبْحَانَ اللَّهِ مَنْ يَصَوِّرُ رَبِّي

مَكْمُولَةَ الْبَهَاءِ صَافِيَةَ الْأَثْغَارُ
تَسْوَى مِيَاتِ ثُوبٍ وَأَبْكَارُ

الثَّيْتُ كِظْلِيمِ الصَّحْرَاءِ
الْفُومِ مَدُورِ خَاتَمِ فَجْرَةِ
مَا كَانَ زَيْنَهَا يَا حَضْرَةَ

خُذْ الْكَلَامَ وَاسْمَعْ مِنِّي
نُورِيكَ مَا نَظَرْتُ بَعِينِي
بِخَوَامِسِ الذَّهَبِ سَلَبْتَنِي
الزُّنْدِ سَيْفٍ يَا سَايَلِنِي
يَوْمَ الْخَمِيْسِ وَاشْ أَدَانِي

الْأَصْبَاعُ يُوْهَجُوا بِخَوَاتِمِ
الْبَدَنِ تَلْجُ فِي جَبَلِ رَاسِمِ
مَا كَانَ مِثْلَهَا فِي الْعَوَارِمِ

أُبْهَى مِنْ الْغَزَالِ الصِّينِي
اللِّي غَرَامَهَا مَضَانِي

مِيَاتُ جَارِيَةِ سُودَانِي مِيَاتُ بِنْتِ مَنْ أَهْلُ الْكُفَّارِ
تَسْوَى خَزَائِنِ الْعُثْمَانِي تَسْوَى مَالِ فَاسٍ وَدِيَارِ التُّجَّارِ
يَوْمُ الْخَمِيسِ وَاشْ أَدَانِي حَتَّى لَقِيتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوعَةَ الْأَشْفَارِ

اللِّي غَرَامَهَا مُضَانِي

عَبِيتْ يَا أَحْبَابِي نُوصَفُ فِي ذَا الْغَزَالِ كَحَلِّ النَّجَلَةِ
رَانِي مِثْلُ الطَّيْرِ الْخَائِفِ خُوفِي مِنْ الْغَدْرِ وَالْخَتَلَةِ
سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَهَا وَأَنْصَفُ مَا كَانَ زِينَهَا فِي طُفْلَةٍ
يَا مَنْ دَرَى عَلَيَا تَعَطَّفُ تَاجَ الرِّيَامِ بَاهِيَةَ الْخَجَلَةِ
نُورِي اسْمِي لِلْعَارِفِ اسْمِي وَكُنِيَّتِي بِنِ سَهْلَةِ

لَوْ كَانَ وَلَفِي تَسَعَفَنِي إِذَا يَرِيدُ سَامِعَ الْأَخْبَارِ
نَمْشِي وَعَنْدَهَا يَخْلِينِي نَبْقِي مَعَهَا حَتَّى تَفْنَى الْأَعْمَارِ
اللِّي يَلْزُمُهُ يَلْزَمَنِي إِذَا تَرِيدُ نَخْسِرَ أَلْفَ دِينَارِ
يَوْمُ الْخَمِيسِ وَاشْ أَدَانِي حَتَّى لَقِيتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوعَةَ الْأَشْفَارِ

اللِّي غَرَامَهَا مُضَانِي

تمهيد :

الأدب الشعبي بشكله العام من أمثال وأشعار وخطب وحكايات وقصص وأساطير هو حصيلة حياة مجتمع له خصائصه المميزة له وطابعاً خاصاً به .

لذا اعتنى الباحثون بالتعبير عن هذه الخصائص وتقديم حقائق واقعية عنها وعن أهم ما يميزها ولطالما وجدنا لهذا الأدب خصائص انفردت به وطابعاً خاصاً به لغة وتعبيراً ووزناً وخصائص فنية وشكلية ، وكذا الحال لو تحدثنا عن الشعر الشعبي ، فما هو سوى شعور تفيض به النفس فينسجم بنغم يوقعه الشاعر ويحمله على أجنحة مخيلته فيولد ما يسمونه بالقصيدة .

ولا يخفى عنا جميعاً أن الشعر كما عرفه العديد من العلماء ذلك الكلام المقيد بوزن وقافية المعبر عن خلجات النفس وانفعالاتها ، فهو إبداع يحمل في طياته ملامح جمالية وصوراً فنية رائعة .

وإذا نظرنا إلى الشعر الشعبي نجده هو الآخر ينبع من إحساس وشعور ، ودائماً نجد الشعوب تعتر وتفتخر بتراثها محاولة الحفاظ عليه ، والشعر الشعبي يُعدّ من تراث الشعب يسجل أمجاده ومفاخره ، لهذا قد اكتسى مكانة مرموقة بين الأفراد والباحثين والمهتمين به ، وانفرد بمجموعة من الخصائص التي سنحاول إن شاء الله التعرض إليها في هذا الجزء من البحث من خلال مجموعة القصائد والأبيات التي أشرنا إليها في ذكر الموضوعات .

1- اللغة :

اللغة هي من أهم وسائل التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة ، وبدونها يتعدّر نشاط الإنسان المعرفي ، بها يتمكن الفرد من التعبير عن أفكاره ، هي ذلك الوعاء الذي يحفظ التراث الإنساني والأداة التي يستند عليها في نشره - التراث الإنساني - ونقله عبر الأجيال والربط بين الماضي والمستقبل .

عرّفها ابن جني بقوله : « هي أصوات يعبرّ بها كلّ قوم عن أغراضهم »¹ .

لكن لو تحدّثنا عن لغة الشعر لكان المفهوم أعمق وأدقّ ، فلا بدّ من الإشارة هنا إلى العلاقة بين اللغة والإبداع ، ولا بدّ أيضا من النظر في كونها معيارية أو شعرية بسيطة مستوحاة من الوسط الاجتماعي أو لغة دلالية ذات مستوى عالي من الإبداع .

وهنا يمكن القول كما ذهب العديد من اللغويين أنّ لغة الشعر اكتسبت خصوصياتها النابعة من تجربة الشاعر خلال الصّور التي يقدمها والإيقاع الذي يميزها عن أي لغة أخرى .

¹ - ابن جني أبو الفتح ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، ج1 ، دار عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1983 ، ص 33 .

وعلى حدّ تعبير نازك الملائكة : « إنّ شاعراً واحداً قد يصنع للغة ما لا يصنعه ألف نحوي ولغوي مجتمعين »¹ ، فالشاعر يبقى أكثر دقة في التصوير من اللغوي ، باللغة يمكن معرفة الدلالات والأبعاد التي ترمي إليها القصيدة ويُبدي الشاعر من خلالها آراءه وأفكاره وما يخالج نفسه من أحاسيس .

ومن هنا فاللغة الشعرية هي : « أداة الشاعر في التعبير والإبانة وهي الوسيلة الأولى للتوصيل ، توصيل الآراء والأفكار ونقل الأحاسيس إلى الغير ، وهي بهذا المنظور حلقة وصل بين الملقى والمتلقّي ، فلا يتم بدونها خطاب ولا تواصل »² .

ولغة الشعر الشعبي تعتمد على اللهجة التي تكون كأداة لتوصيل وتبليغ الغرض المقصود ، وتصوير كوامن النفس والانفعالات والمشاعر ، لأنها هي لغة العامة في التعامل انطلاقاً من البيئة التي وُجد فيها .

¹ - نازك الملائكة ، شظايا ورماد ، دار العودة ، بيروت ، 1971م ، ص 07 .

² - عبد الحق زريوح ، الشعر الملحون الصوفي في شمال الغرب الجزائري 871هـ / 1954م ، أطروحة دكتوراه ، إشراف د.شايف عكاشة ، قسم الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، 2000 - 2001م .

وبهذا المعنى جاء قول نبيلة إبراهيم : « وكما أنّ اللغة تنتج وتثمر فإنها تكون كذلك قادرة على الخلق فاللغة تخلق الشكل أو الصورة وذلك حينما توجه توجيهها أدبياً »¹ .

وأشار الباحثون والعلماء إلى وجود فرق بين لغة الشعر القديم ولغة الشعر في العصر الحديث ذلك أنّ الواقع الجديد هو الذي فرض على الشاعر حتمية إبداع لغة جديدة تتماشى وعصرنا هذا ، ثم راحوا إلى أبعد من هذا وهو العمل على إعطاء الكلمة بُعداً وجودياً من خلال إفراغها من معناها القاموسي وشحنها بانفعالاتهم وزيادة على ذلك تحريرها من الضوابط الإعرابية ، وهذا الرأي قد نوه به ابن خلدون : « الإعراب لا مدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود »² .

وبما أنّ الشعر دائماً يعبر عن خلجات النفس وعن العواطف ، فيجب أن تكون لغته مستمدة من بيئة الشاعر المحيطة به التي يعيش فيها ويتفاعل معها وهي لغة العامة من الناس ، وهذا ما رآه د.شوقي ضيف عندما قال : « جوهر الشعر ليس في شكله الخارجي من وزن وقافية ، وألفاظ خاصة أو موضوعات خاصة ، وإنما هو في التجربة الروحية التي تمرّ بها نفس الشاعر ولا بأس أن

¹ - نبيلة إبراهيم ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار النهضة للنشر ، القاهرة ، مصر ، ص 06 .

² - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر ، ص 586 .

تُكتب هذه التجربة في لغتها الحقيقية أو قل في لغة بسيطة كذلك التي يتفاهم بها أفراد الشعب للتعبير عن حياته ، وأهوائه وعواطفه المتباينة والتعبير عن حياة مجتمعه ومشاكله السياسية ، وكل هذا معناه ان للشعر حصونه عن القوم ، وأنّ الشاعر ينبغي أن يجاهد حتى يصعد إلى هذه الحصون وحتى يعرف كيف يرمي منها سهام شعره ونيازكه ... «¹ .

ولهذا كان الاختلاف واضحاً بين لغة الشعر الفصيح ولغة الشعر الشعبي ، هذا الاختلاف الذي أثار جدلاً بين الدارسين والنقاد .

وذهب العديد من الدارسين إلى أنّ الشعر الشعبي يختلف عن الشعر الفصيح في لغته الشعبية حضرية أو قروية أو بدوية² ، وهذا يعني أنّ لغة الشعر الشعبي ثلاث مستويات حضرية ، قروية ، وبدوية ، لكن بعض الدارسين قد اعتمدوا تصنيفاً يختلف عن هذا التصنيف ، فصيح ، دارج ، ودخيل ، وهذا يعني أنّ الشعراء الشعبيين قد وظفوا لغة المعاجم واللغة الفصيحة ولم يعتمدوا اللغة العامة فقط .

وقد أُضيف إلى المستويات الثلاث لهذا التصنيف مستوى آخر وهو المتفاح الذي يميل بشكل كبير إلى اللغة العربية الفصحى مع إهمال الحركات

¹ - شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي ، مكتبة المعارف ، ط1 ، ص 198 .

² - العربي دحو ، بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 142 .

الإعرابية فيقول في هذا الشأن العربي دحُو : « إننا الآن نودُّ أن نقول بمثل ما وجدنا من هذه النصوص ما يتّصل بالمتفاح الذي لا يأخذ بكل القواعد اللغوية ، نجد كذلك تعابير كثيرة تحافظ على روح الفصحى وترعاه في وجوهه المختلفة ، ومن تلك النماذج التي نجدها واردة في نصوص مختلفة كقولهم : لا إله إلا الله رب العرش العظيم »¹؛ إذن فلغة الشعر الشعبي ليست عامية كلها وليست فصحية كلها ، وإنما هي تجمع بين الإثنين فتؤلف لغة خاصة .

وهذا ما حاول العربي دحُو نقله لنا وتوضيحه من خلال الهرم الذي أوجد في أعلاه الأدب الرّسمي وفي قاعدته الأدب العامي ، والأدب الشعبي يمكن له أن ينتقل من القمة هابطاً ليملاً السّفح كلّه ، أو يرتقي من القاعدة صعوداً منتشراً على السّفح بأكمله².

وهذا الرأي قد وضّحه لنا محمود ذهني الذي أكد لنا أن للأدب الشعبي لغة خاصة به ليست بالفصحى أو العامة ، وإنما لغة تحمل من السمات ما يجعلها تضم الفصحى والعامية ؛ فتصبح قادرة على الإبلاغ والتوصيل³.

¹ - العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى في منطقة الأوراس من 1954 - 1962م ، رسالة ماجستير ، تحت إشراف إبراهيم شعلان ، 1983م ، ص 215 .

² - نفسه ، ص 29 .

³ - محمود ذهني ، مرجع سابق ، ص 54 .

وعند استقراءنا لشعر بعض من الشعراء الشعبيين التلمسانيين وجدناهم قد اختاروا اللغة الوسط بين العامية والفصحى ، فوجدناهم أحيانا قد أبدعوا بلغة فصيحة وأحيانا قد وظّفوا لغتهم العامية ، وكان الغرض من ذلك نشر نصوصهم والتأثير في جموع شعوبهم .

وجدنا لغة هؤلاء ليست فصيحة مطلقا وليست بعيدة عن الفصحى نهائيا بل يمكن القول أنها لغة قريبة من الفصحى ، مع وجود ألفاظ عامية وأخرى دخيلة أو نقول عنها أجنبية .

وفيما يلي سنحاول ذكر بعض الأمثلة حسب أنماط اللغة المعروفة المذكورة سابقا لدى شعراء تلمسان الشعبيين :

أ- اللغة القريبة من الفصحى (المتفصح) :

وجدناها الغالبة في معظم ما قرأناه وهذا يعود في غالب الأحيان إلى الطابع الديني ، فلم يخلُ شعر هؤلاء من قصائد المديح النبوي والقصائد الدينية ، أمثال الأخضر بن خلوف وابن تريكي ممن خصّصوا الجزء الأكبر من شعرهم في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاعتمدوا بذلك مفردات قريبة من الفصحى راعت السهولة ، تبعد عن ألفاظ العامية من ذلك نذكر ما قاله ابن خلوف¹ :

مَنْ لَا يُتُوبُ بَعْدَ الْغِيَةِ فِي الْعُمْرِ مَا عَصَى شَيْطَانَهُ

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 140 .

مَتْنٌ لَا يَتَوَجَّهَ لِلتُّوبَةِ وَايْحُهُ مَا يَحِقُّ سُلْطَانُو
يَدُّهُ مِنَ النُّعِيمِ مَسْلُوبِهِ وَالْخَيْرِ مَا تَرَاهُ أَعْيَانُو

فيمكن أن نقول عن هذه الألفاظ : يتوب - الغيبة - عصي - التوبة - يتوجه - وأيحه - النعيم ... أنها قريبة من الفصحى ولم نقل عنها فصيحة فقط لأن الشاعر لم يلتزم فيها بقواعد الإعراب .

ويقول المنداسي في قصيدته " أرذاذ المزن من عيني نزل " ¹:

صَلِّ يَا رَبِّ عَلَيَّ مِنْ بِاسْمِهِ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْعَبْدِ الْعَمَلُ
أُرْدَاذُ الْمَزْنِ مِنْ عَيْنِي نَزَلُ أَمْ دُمُوعُ الشُّوقِ إِذْ رَقَّ الْغَزْلُ
أُبْعِينِي دِيمَةً وَكَافَاةً أَمْ شَعِيبُ اللَّوَى مِنْهَا انْبَزَلُ

إنَّ ما جاء به شاعرنا في هذه الأبيات ألفاظ قريبة جدا من الفصحى : صلِّ يا ربِّ ، يقبلُ الله ، أرذاذُ المزن ، رَقَّ ، دِيمَةً ...

¹ - سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي ، ديوانه ، تحقيق وتقديم رابح بونار ، موفم

للنشر ، الجزائر ، 2011 ، ص 31 .

وفي قصيدة أخرى له توحى لقارئها بأن الشاعر متأثر بالشعر العربي الجاهلي الذي كان دائما يطرق موضوع الوقوف بالأطلال ، ومن دون شك حادث جلّ ألفاظها قريبة من الفصحى أن لم نقل فصيحة ، يقول ¹:

قِفْ بَدَارَ الْحَبِيبِ نَبْكِي الطُّلُولاَ قَدْ رَكَضْنَا بِالْأَمْسِ فِيهَا خِيولاَ
هَذِهِ الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنْيْسٍ جَرَّتِ الرَّمْسَاتُ فِيهَا ذِيولاَ
أَيْنَ تَلِكِ القَبَابُ مِنْهَا اللِّوَاتِي عَهَدَتِ لِلنُّفُوسِ فِيهَا ظِلًّا ظَلِيلًا
أَيْنَ أُرْيَابُهَا لَدَى الزَّمَنِ الغَضِ وَمَنْ كَانَ بِالشُّوونِ كَفِيلاَ
صَبَّحَتْهَا الصُّرُوفُ تُكَلِّي كَأَنَّ لَمْ تُغْنِ بِالْأَمْسِ وَالْعَزِيزُ ذَلِيلًا

وعندما يقول أيضا ² :

تَظَلُّ تَعَبَّرُ قَفْرٌ بَظَلْفِ المَهَى مُحَبَّرٌ
وَلَا حَصَلَتْ عَلَى طَائِلٍ بَعْدَ رَكْضِ خِيالكِ
يَا خُسَارَةَ رَكْضِ شَبَابِي شَقَاءَ وَحِرْمَانَ
فِي مَحَلِّ أَنْ لَا تَعْرِفَنِي كَوَاعِبِ أَهْلُو

¹ - نفسه ، ص 45 .

² - عبد الحق زريوح ، الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي ، أطروحة ماجستير ، إشراف د.عبد الحميد حاجيات ، تلمسان ، 1990 - 1991م ، ص 200 .

نَظْلُ نَاقِفٍ حَنْظَلٍ دَمَعِي سَجِيمٍ هَيْمَانٍ

وَالْعُقُولُ عَلَيَّ مَن كُلِّ حَدِّ نَهْلُوا

صَمَصَامُ الْحَرْبِ كَيْدُ الْأَعْدَا بُو فَارَسٍ

وبالرغم من أن الألفاظ جاءت بالفصحى ، وجدنا ألفاظاً غريبة تصعب للقارئ الذي لم يعايش بيئة الشاعر فهمها وإدراكها .

فعلى القارئ أن يطلع على بعض الشروح التي وضعها الباحثون للشعر الشعبي ، وهذا ما نوّه به الدكتور عبد الحق زريوح¹.

ومما وجدنا من هذه اللغة أيضا في شعر ابن مسايب قوله²:

سَعْدُ جَمِيعٍ مَن زَارُ	قَبْرُهُ نُورُ الْأَنْوَارِ
وَدَخَلَ يَا الْحَضَّارُ	أَوَّلُ الرِّكْبِ مَعَ شَهْوِ الْعَلَامِ
هَادِي الْقَلْبِ مُخْتَارُ	وَالْكَمَالِ عَلَى اللَّهِ مُحِي الْعِظَامِ

وما قاله أيضا في قصيدة " يا أهل الله " ³:

¹ - عبد الحق زريوح ، الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي ، مرجع سابق ، ص 199 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 156 .

³ - نفسه ، ص 183 .

يَا أَهْلَ اللَّهِ غُثُوا الْمَهُوفَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَشَعَلَ نَارُ الْجَوْفِ
كَيْفَ يَهْنَى مَنْ اسْكَنُوا خَوْفَ وَأَنْزَحَمَ طُلَّابُوا لِحُقْوِهِ

و ما لاحظناه أثناء استقرائنا للغة شعر هؤلاء أنّ العديد من المفردات التي وظفوها فصيحة في الأصل ولكن ما تغير فيها هو النطق الذي يضيف إليها صفة الشعبية ، ومعنى ذلك أنهم تصرفوا في تلك الألفاظ من أجل استقامة الوزن ليس إلا ، لذا أطلق عليها البعض القريبة من الفصحى .

وهذا ما أكدّه د.الركيبي عندما قال : « إن لغة قصائد كثيرة تقترب من الفصحى إلى حدّ كبير ، وأن نطقها هو الذي يجعلها عامية ¹ .

ب- اللغة العامية :

استخدم شعراء الشعر الشعبي ألفاظاً عامية وأغلبها ما هو شائع في منطقة تلمسان والقارئ غير مطلع على هذه اللهجة يجد صعوبة في فهمها ، كما وجدت أيضاً ألفاظاً عامية غير متداولة حالياً ، ومنها نذكر ما قاله بومدين بن سهلة ² :

كَامِلُ الطَّبَعِ زَيْنُ الهَمَّةِ شَبِيهَةُ البَدْرِ العَالِي

فلفظ الهمة شائع في تلمسان ويقصد به الشأن العالي المرموق .

¹ - عبد الله الركيبي ، الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1 ، 1981م ، ص 495 .

² - بومدين بن سهلة ، ديوانه ، ص 33 .

وكما يقول أيضا¹:

حَتَّى لَقِيتُ مَنْ سَلَبْتِي بِالْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ وَالزَّيْنِ الْمَسْرَارِ

فالمسرار يقصد بها الجمال والبهاء والحسن ، ولا يمكن أن ننعت شيء آخر سوى الإنسان بهذه الصفة ، تُقال فقط للإنسان الجميل الحسن المظهر وهي كذلك من اللهجة التلمسانية الكثيرة التداول .

ويقول الأخضر بن خلوف²:

الرَّشِيدُ مَصْبَاحِي هُوَ سِيرَاجُ الدَّهْرِ فَضْلُهُ ذُو الْجَلَالِي

أَتَوَاتِيهِ أَمْدَاحِي كَيْفَ وَاتَى اللَّيْلُ طَلْعَةَ الْبَدْرِ الْعَالِي

لفظة " اتواتيه " هي كذلك عامية شائعة بالمنطقي ومعناها تناسبه ، تنطبق

عليه .

ويقول بن تريكي في قصيدة " أَنَا الْمَوْلُوعُ " ³:

يَا عَلَى مِنْ يُجِيبُ خَبْرَكَ

يَا بَدْرُ الْفَايِقُ الْمَشْعَشَعُ

¹ - بومدين بن سهلة ، ديوانه ، ص 37 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 90 .

³ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 78 .

" يجيب " معناها يحظر ، يُؤتي ...

ثم يقول¹:

أَكْسَاكَ السَّالْفُ الْمُدْرِي وَأَنْتِ مَزْيَانَهُ

فمزْيَانَةُ يقصد بها جميلة .

كما يقول في قصيدة " العيد الكبير " ²:

الْعِيدُ الْكَبِيرُ وَالْبَنَاتُ إِيسُوجُوا فِي بَابِ الْجِيَادِ

هَدِي لِيكَ تَتَبَخَّرُ بِالْهَمِّهِ

شِي قَابُضَهُ الْوَرْدُ فَيَدَهَا لِلْعَقَادِ

شِي جَايَهُ تَدْلُوحُ كَالْعَادِهِ

يقصد بلفظة " ايسوجوا " يتجولوا ، ولفظة " تدلّوح " معناها تتمايل وتتبختر

في مشيتها .

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 79 .

² - نفسه ، ص 84 .

وفي قوله أيضا ¹ :

بَالِكَ لَا غَنَى عُمْرِكَ فَالدُّنْيَا تَطُولُ

أَجِي لِمَرْسَمِي وَتَشْهَدُ الْأَفْعَالُ

إِذَا وَجَدْتَنِي فَالْحَدُّ تَصِيبُ الْأَوْلَادُ

سَقْصِي أَعْلَى تَرَايْتِي نُسَلِي تَمَّ

ويقول أيضا ² :

رَشَقَتْ عَيْونَهَا فِي مَا بَقِيَ تَحْيَالُ

امزرقطين دقوني دق أشحال

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 94 .

² - نفسه ، ص 88 .

ج- الألفاظ الدخيلة (الأجنبية) :

وهي قليلة الاستعمال مقارنة بالنوعين السابقين ومما وجدناه في الشعر الشعبي من مفردات دخيلة ليست بالأصل العربي أو المحلي ما قاله ابن تريكي في قصيدته " أنا المولوع " ¹:

آش يَنْسِي لُو الكُرْبَه

طَرْشُونُ ² الفايقُ المَزْعَبَلُ

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون ، مرجع سابق ، ص 79 .

² - الطرشون : أصل الكلمة إسباني torzuelo ومعناه باز صغير فأولاد الباز عندما يصيرون قادرين على مفارقة العش يطير الأولان ثم يطير الثالث والذي هو الطرشون .

2- الرمز :

الرمز هو ذلك التركيب الأدبي المشحون بدلالات إضافية تتجاوز المعنى المعجمي للألفاظ ويكتسب أبعاد إيحائية جمالية . فهو يقول ما لا تستطيع الكلمات العادية أن تقوله ، إنه يكتف ملامح من التجربة لتصبح مقصورة على بنية قصيرة لكنها واسعة الدلالة في ذهن الشاعر والقارئ معاً ، « الرمز يسهم في تشكيل تجربة الشاعر على نحو مؤلف مع مكونات النص الفني »¹.

هذا الرمز الأدبي قد يأتي على شكل ألفاظ مستمدة من التاريخ بشخصياته أو أحداثه فيضيء جانبا معيناً من التجربة ، أو على شكل عبارات توحى بالدلالة التي يريد الشاعر توصيلها إلى المتلقي².

وبالتالي يبقى الرمز وسيلة من وسائل الفن القادرة على القيام بالتعبير عن تجارب الشاعر الشخصية بشكل مميز

ولا يمكننا الحديث عن الرمز في القصيدة الشعبية دون الوقوف عند رمز المرأة ، فقد ورد في الشعر الشعبي بشكل ملفت وأصبح توظيفها في رمزية المرأة لازم لا يستطيع الشعراء الشعبيون الاستغناء أو الامتناع عنها .

¹ - فايز الداية ، جماليات الأسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط2 ، 1996م ، ص 175 .

² - أحمد قنشوية ، البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية ، منطقة شمال الصحراء أنموذجاً ، 1850 - 1950 م ، دار سنجاق الدين للكتاب ، ص 330 .

فقام الشعراء الشعبيون بوصف المرأة وصفاً جسياً يتناول كل عضو من أعضائها ، وما يلفت الانتباه في هذا الشأن الربط بين المرأة والطبيعة وتكرار هذه الصور مع اختلاف في الترتيب اللغوي ، ومن ذلك ما قاله بن سهلة في قصيدة " يوم الخميس " ¹:

بَالزِينَ وَالْبَهَاءَ عَذَبِنِي	عَنْدَهُ جَبِينٌ صَافِيٌ مَثَلُ الْغَرَارِ
وَالْعَيُونَ شَفْرَهُمْ سُودَانِي	وَوَخْدُودٌ وَرْدٌ فَاتِحٌ فَاتُ الْجِنَانِ
مَوْلَاهُ حَارِزُهُ سَيْسَانِي	عَلَيْهِ دُورُ الْبَيْبَانِ وَالْأَسْوَارِ
يَوْمُ الْخَمِيسِ وَأَشْ أَدَانِي	حَتَّى لَقِيتُ فَاطِمَةَ مَصْبُوغَةَ الْأَشْفَارِ

اللي غرامها مضاني

هَذَا الْغَزَالُ بَاهِي الصُّورَةِ	لِلوَرْدِ وَالزَّهْرِ مَثَلُوتُو
الشَّفْرُ مَا أَحْسَنُهُ بِالنَّظَرَةِ	وَالْعَيْنُ بِالْكَحُولِ وَاتَّاتُو
الثَّيْتُ كِظْلِيمُ الصَّحْرَاءِ	هَآوِي عَلَى الصُّدْرِ طَلَقَاتُو

فرمز هنا الشاعر إلى خدود المرأة بالورد الفاتح ومثلها بأكملها بالغزال الجميل الحسن المظهر ، ويعود ليمثلها بالزهر والورد .

¹ - بومدين بن سهلة ، ديوانه ، ص 38 .

وما قاله ابن مسايب في قصيدة " يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ " ¹:

يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ	يَا قَامَةَ غُصْنِ الْيَاسِ
رَانِي طَامِعٌ بُوَصَالَهَا	رَانِي طَامِعٌ بُوَصَالَهَا
يَا قَامَةَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ	يَا قَامَةَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ
وَحَشَاكَ يَشِيبُ مَنْ لَا يَشِيبُ	وَحَشَاكَ يَشِيبُ مَنْ لَا يَشِيبُ
يَا صِفَةَ الْبَدْرِ أَلَّا يُغِيبُ	يَا صِفَةَ الْبَدْرِ أَلَّا يُغِيبُ
يَضُوي خَدَّكَ مِثْلَ الْهَلَالِ	يَضُوي خَدَّكَ مِثْلَ الْهَلَالِ

مثل الشاعر المرأة على أنها نموذج من نماذج الجمال وصف قامتها بغصن الياس ثم بالغصن الرطيب الذي يظهر في البستان الجميل ويصفها أيضا بالبدر متمنياً عدم غيابه ثم الخد مثل الهلال الكامل ...

ثم يقول بن تريكي دائما في رمز المرأة وتصويرها بعناصر الطبيعة في قصيدته بالوشام ²:

لِلْعَدْرَا قُصْرٌ يَأْقُوتِي	دِرُ الثَّائِيُوتِ اثْوَاتِي
زَايِدِنِي اهُوَاهَا نَعْمَه	فِي طُؤَا اَحْيَاتِي

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 66 .

² - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 96 .

يَا الْوَشَّامَ

دِرِ الثَّائِيُوتِ افْخَبَلِه
اجْنَا حِ اظْلِيمِ وَقْتِ الْجَفَلِه
واغْرَابِ حِينِ اتَعَلَّى
بنزُولِه اَعْلَى الارضِ اوما

يَا الْوَشَّامَ

دِرِ الْجِيمِ اجْنَا حِ الطَّاوِسِ
بِه اتَّقُوتِ كُلِّ اعْرَائِسِ
شَغَفْتِي الزَّيْنِ الْخَالِصِ
سُبْحَانَ اَوْسَيْعِ الرَّحْمَه

يَا الْوَشَّامَ

الْحَا حَالِ مَنْوِ يَعَشَقُ
فالنَّسْرِي وَالسَّمِيلِ الْاَزْرَقِ
والخَيْلِي اَنْوَارِهْ امزُوقِ
مَمْلُحَه فَاصْبَعِ اوهْمُو

يَا الْوَشَّامَ

من خلال هذه النماذج يلاحظ أن الشعراء قد تفننوا في وصفهم للمرأة على رسم صفات الطبيعة بأشكالها الحية والصامته ، فوجدنا تركيزاً على صفات الشمس والقمر في ضيائهما ونورهما .

كما اعتمد هؤلاء على صفات الغزال واعتبروه رمزاً للجمال ، وكذا الطيبي ، واعتمدوا أيضا ذكر الورد المتفتح والزهر والياسمين في وصف الخدود وأغصان

الخيزران والياس بالرشاقة وجمال القامة ؛ فغدت هذه الصفات كلها تتكرر في تجارب الشعراء كلما تعلق الأمر بوصف المرأة .

- رمز الخمر :

تعرض الشعراء منذ القدم إلى ذكر الخمر فوصفوها وأجادوا في وصفها ، فكانت عندهم لها منزلة كبيرة لذا أكثروا في وصفها وأطالوا كوصف العاشق لمعشوقته فكانوا يوظفونها ويتوسلون بها للمدح بل في جميع الأغراض يولجونها بكثرة ، ونذكر منهم الأعشى الأكبر ، طرفة بن العبد ، عنتر بن شداد ...

وفي العصر العباسي واصل الشعراء وصفهم وذكرهم للخمر ونذكر على رأسهم أبو نواس شاعر الخمرات الذي أضاف صوراً وكلمات جديدة في ذكره للخمر ، وقد استعملها في معاني مختلفة بحسب الظروف فلخمرياته مراتب ودرجات أولها الخمرة التقليدية ، فانتهج هنا اتجاه الشاعر الجاهلي والأموي ولم يأت بشيء جديد سوى وصفها كما يقول¹ :

لَمَّا تَبَيَّنَ أَتَى غَيْرُ ذِي بَخْلٍ وَلَيْسَ لِي شُغْلٌ عَنْهَا وَإِبْطَاءُ
أَتَى بِهَا قَهْوَةً كَالْمِسْكِ صَافِيَةً كَدَمَعَةٍ مَنَحْتَهَا الْخَدَّ مَرَّهَاءُ

¹ - أبو نواس ، ديوانه ، جمع وتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ،

بيروت ، دط ، دت ، ص 700 .

وفي وصف له آخر للخمر فائق الروعة والجمال الذي دلّ على نبوغه الشعري يقول¹:

وَالْخَمْرُ شَيْءٌ لَوْ أَنَّهَا جُعِلَتْ مِفْتَاحُ قُفْلِ الْبَخِيلِ لَانْفَتَحَا

لينتقل إلى الخمرة الفنية التي تجاوز فيها التقليدية ويتخذ منها وسيلة للتجديد في الشعر بحسب ما أضفر المجتمع آنذاك من تطوّر ، فأعدّل عن طريقة القدماء تناسب ضروب العيش في تلك الفترة وإنما يجب أن يتغير الشعر وينتقل إلى القصور والرياض ويتغنى بالخمرة والقيان ، حيث يقول د. طه حسين : « ... فليس يليق بساكن بغداد ، المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى بالإبل والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ويتغنى بالخمرة والقيان . فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف »².

ثم راح أبو نواس يصوّر من خلال الخمرة أجواء عصره ويجسّد من خلالها مظاهر الحضارة في مجتمعه وما أودعته في ذلك المجتمع من ترف وبذخ وقيان وغلمان ، وجوار ، وكشف من خلال أسلوبه وبوسائله التعبيرية الخاصة بسوءات مجتمعه .

¹ - أبو نواس ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 97 .

² - طه حسين ، حديث الأربعاء ، ج 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 12 ، 1976م ،

ص 90 .

وفيما يلي أبيات يرمز من خلالها إلى ما أصاب جماعته من ضيم وأذى ،
ويكسف عن صفات الخليفة في مجالسه الخاصة كيف كان يقبل على الخمرة
ويشجع من يشربها ، وذلك حين يقول ¹:

يَا دَارَ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَّامُ	ضَامَتِكَ وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تَضَامُ
عَرَمَ الزَّمَانَ عَلَى الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ	بِكَ قَاطِنِينَ ، وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ
أَيَّامٌ لَا أَغْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا	إِلَّا مُرَاقِبَةً عَلَيَّ ظَالِمًا
وَتَجَشَّمْتُ بِي هَوْلَ كُلِّ تَتَوَفَّةٍ	هُوجَاءُ فِيهَا جُرْأَةُ أَقْدَامُ
مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهَةٍ	لَمْ يَعُدَّكَ التَّبَجِيلُ وَالْإِعْظَامُ

وها هو في مكان آخر يجعل من الخمرة شفاء للهموم ²:

إِذَا خَطَرْتَ فِيكَ الهمومُ فداوها	بِكَاسِكَ حَتَّى لَا تَكُونَ هُمومُ
أدريها وخنها قهوة بابلية	لها بين بصرى والعراق كروم

وحديثنا عن خمريات أبي نواس سوف لا ينتهي عند هذا الحد وإنما الغرض
من هذه الإشارة هو التنويه بما سبقوا في عصور ماضية إلى هذا النوع من
الشعر ، هذا وقد وظّف الخمر دائماً لغرض آخر أسمى وأنبأ فحملت خمرة بعداً

¹ - أبو نواس ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 709 .

² - نفسه ، ص 131 .

أخلاقياً يجسّد الآداب والمعاملات فأصبحت منبعاً للصفاء والنقاء ، واتجه في هذا المقام اتجاها صوفيا عندما يرمز بالخمرة إلى المحبة الإلهية ، يقول ¹:

هِيَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنْ لِلشَّمْسِ وَقْدَةً وَقَهَوْتَنَا فِي كُلِّ حُسْنٍ تَفُوقُهَا
فَنَحْنُ وَإِنْ لَمْ نَسْكُنِ الخُدَّ عَاجِلًا فَمَا خُلِدْنَا فِي التَّمْرِ إِلَّا رَحِيقُهَا
فَيَا أَيُّهَا اللَّاحِي اسْقِنِي ثُمَّ غَنِّي فَإِنِّي إِلَى وَقْتِ المَمَاتِ شَقِيقُهَا
إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنبِ كَرْمَةٍ تَرْوِي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا

وأثناء اطلاعنا على رمز الخمر في الشعر الشعبي وجدناه قد سلك نفس المنهج الذي سلكه قبلهم المتصوفون والزهاد نذكر منهم أبا مدين شعيب التلمساني وابن القارض ومحي الدين بن عربي فرمزت إلى الحب الإلهي ².

ولقد وجدنا في الشعر الشعبي ما ذكر سابقا عند بن مسايب عندما يروي لنا ليالي السعادة والابتهاج بوصفه مكان تواجهه وسط البساتين النظرة المزينة بأنواع الأزهار رفقة الحبيب ويسقى من أجود الخمر لينطق العود والرياب ، فيقول ³:

بَتْنَا أَنَا وَالكَاس أَنَا وَمَنْ نَحَبُّو

¹ - أبو نواس ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 104 .

² - عبد الحق زريوح ، الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي ، مرجع سابق ، ص 186 .

³ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 77 .

بَعْدُ أَنْ قُطِعَتْ لِيَّاسُ عَنِّي أَرْطَابُ قَلْبُو
يَذْهَبُ كُلُّ وَسْوَاسُ صَابُ الْعَلِيلِ طَبُّو
دَرْتُ الْخَمْرُ فِي الْكَاسُ بِيَدِي الرَّاحِ شَرِبُو
فُوقُ الْبَسَاطِ بَاتُ شَمْعَنَا يُطَافِحُ وَالْكِيسَانَ تَقُولُ خَمْرَكَ قَلِيلَةَ
أَرَى وَخُذْ وَأَمْلَأْنَا بِالنَّاصِحِ نَاسُ الْحَالِ مَا يُعْطَلُوا بِتَعْطِيلِهِ

ويقودنا هذا التعبير في ذكر الخمر ووصفه إلى ما قاله شعراء الأندلس ما

يبين الأثر الذي تركه الشعر الأندلسي لدى تلمسان ، يقول ابن زمرك¹:

قُمْ فَاعْتَمِ بِهَجَةِ الْفُوسِ مَا بَيْنَ نُورٍ وَبَيْنَ نُورِ
وَشَفَعِ الصُّبْحِ بِالشُّمُوسِ تُدِيرُهَا بَيْنَنَا الْبُدُورِ
وَنَبِّهِ الشَّرْبِ لِلْكَؤُوسِ تَمْزِجُ مِنْ رِيْقَةِ الثُّغُورِ
مَا أَجْمَلَ الرَّاحَ فُوقَ رَاحِ صَفْرَاءَ كَالشَّمْسِ فِي الْأَصِيلِ

¹ - ابن زمرك ، ديوانه ، ص 74 .

ويقول بن سهلة في ذكر الخمر¹:

إِذَا سَكَتُ يَا ذَا النَّاسِ سَكَنَ فِي الْعَقْلِ وَسَوَاسِ
تَارَةً لَغَى الْوَتْرَ فِي الرَّاسِ لَا مَنْ يُوَاجِبُ يَغْنِي
الْعُودُ وَالْخَمْرُ فِي الْكَاسِ مَا صُبْتُ مَنْ يَزْهِيَنِي

أما الشاعر سعيد المنداسي في ذكره الخمر فهو يوصي بعدم لومه على شرب الخمر ، لأنه يذهب بصحته وينسيه آلامه وأن يكتم الأمر ، ثم يظهر لنا سبب شربه الخمر أن الإنسان حياته قصيرة فعليه أن يغتتمها في إشباع ذاته بما يخلو قبل الموت ، فيقول²:

لَا تُلْمِنَا إِنْ شَرِبْنَا إِنْ فِي السَّكْرِ وَاللُّقَا أُسْرَارَا
وَإَكْتَمَ الْأَمْرَ وَانْتَظَرْنَا بِخَيْرٍ إِنْ نَارَ الْغَرَامِ لَا تَتَوَارَى
إِنَّ لِلْحَبِّ فِي الدُّجَى قَوْمٌ فَتَكُ هَجَرُوا النَّوْمَ وَاسْتَبَاحُوا الْعَقَارَا
فَمِنْ الرُّشْدِ لِلْفَتَى إِنْ تَرَأَى لَمَعَانَ الْكُؤُوسِ بِيَدِي وَقَارَى

¹ - بومدين بن سهلة ، ديوانه ، ص 59 .

² - سعيد المنداسي ، ديوانه ، ص ، ص 56 ، 57 .

دِرْ كُؤُوسَ الْمَدَامِ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأَحْذَرِ الْقَوْمَ إِنَّ لِلْعَدَلِ جَارًا
فَنُفُوسُ الْكِرَامِ تَدْنُو لِشُرْبِ وَنُفُوسُ اللَّئَامِ تَبْدُو نِفَارًا

وبنفس المعنى جاء في قصيدة أخرى ذكره للخمر ويصفها بالسلسبيل في الجنة ، ويوصي فيها انتهاز فرصة شرب الخمر فالحياة قصيرة لأن بعد الممات لا تنعم بالذات التي تريدها ، ثم يشرب الخمر قبل حلول الصباح حتى ينعم بغيوبة السكر ليستريح من متاعب الحياة ويبين علاقته بمعاقرة الخمر كالعلاقة المتينة بين الرضيع وأمه ، فيقوم باحتسائها كما يحتسي الرضيع حليب أمه .

فيقول¹:

قُمْ وَلِيدُ الْكِرَامِ كَاسِيكَ نَجْمٌ لَيْلَةَ السَّعْدِ فَاسِقِنَا السُّلْسَبِيلَا
دِرْ كُؤُوسَ الْمَدَامِ مَا دُمْتَ حَيًّا إِنَّ بَعْدَ الْمَمَاتِ نَوْمًا طَوِيلَا
هَاتِ إِنَّ الصَّبَاحَ بَاحَ بِسِرِّ صَلْ بَلِيلٍ مِنَ النَّهَارِ مُقِيلَا
صَانَكَ اللَّهُ فَانْتَهِزْ فُرْصَةَ الْعُمْرِ مِنْ الدَّهْرِ وَاصْطَبِحْ مَشْمُولَا
عَلَّ الْجِسْمَ لَا انْفِطَامَ لِصَبِّ عُدُودِ اللَّيْلِ قَلْبُهُ التَّعَالِيَا

¹ - سعيد المنداسي ، ديوانه ، ص 46 .

وقد رُمز بالخمير في العديد من الأشعار الشعبية بالحب الإلهي الذي اعتمده الشعراء الصوفيون ونحى نحوهم الشعراء الشعبيون ، نذكر على سبيل المثال ما قاله بن خلوف في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم¹:

عَارْفُونِي لَمَّا رَجَعْتُ جَايِزُ	فِي دِينِي كَامِلُ الْفَهَامَةِ
وَاعْطَانِي اللَّهُ عِلْمَ فَارِزُ	مَنْ كَنْزُهُ عَالَمُ الْعُلَمَاءِ
نَبَّهْنِي لِلْمَدِيحِ سَيِّدِي	وَسَقَانِي مَاءَ كَأْسِ طَيِّبِ
مَا أَحْلَاهُ بِالْمَدِيحِ هَادِي	أَحْلَا مِنْ السُّكُورِ وَعِنْبِ

¹ - الأخصر بن خلوف ، ديوانه ، ص 136 .

3- التناص الأدبي الشعري :

عادة ما تكون النصوص الأدبية على علاقات ارتباط وتداخل بأعمال أخرى سابقة لها أو متزامنة معها ، قد يعتمدها الأديب أو الشاعر عن قصدٍ منه أو دون قصد ، وهذا ما أسموه بـ " التناص " . فالشعر يُستمدّ من بنيته وتقنياته من التاريخ أو الدين أو القصة أو المسرحية أو من أشعار أخرى فنجد تبادلاً فنياً شكلياً .

ويخرج عن هذا المعنى إلى النص الذي لا يستطيع يقيم تشابهاً مع نصوص أخرى ليأخذ منها حتى يضع دلالات جديدة فلا ينطبق عليه الوصف ، « فالأدباء يعيشون وسط فضاء ثقافي تتلاقى فيه خطابات عديدة والأديب يتلقف بشخصيته المثقفة وحساسيته الخاصة ، كل هذه الخطابات وتشكل لديه معيناً يسعفه في تجاربه الشعرية ويستدعيه عند الحاجة »¹.

وهذا يتطلب من الأديب والشاعر أن يكون على اطلاع واسع من الأعمال السابقة : « فدراسة أعظم الأدباء لا يمكن أن تدور في فلكهم وحدهم لأنّ مثل هذه الدراسة لا تكفي وحدها في تحقيق المعرفة الكاملة ، ذلك أنّ معرفة الخلف ينبغي أن ترتبط بمعرفة السلف ، وأكثر المبدعين أصالة هو من كان في تكوينه رواسب من الأجيال السابقة »².

¹ - أحمد قنشوية ، مرجع سابق ، ص 370 .

² - محمد عزام ، النص الغائب ، تجليات التناص في الشعر العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001م ، ص 27 .

ومن هذا المنطلق ذهب الناقد " رولان بارت " إلى إعطاء مفهوم للنص :
 « هو نسيج من الاقتباسات والإحالات والأصداء من اللغات الثقافية السائدة
 أو المعاصرة التي تخترقه بكامله »¹.

فلا يمكن حسب رأي الباحثين والنقاد أن تُجزَّ أعمال أدبية من فراغ إذ لا
 تستطيع أن تقوم بوظيفتها دون أن تكون لها ارتباطات بأعمال سابقة ، ومنهم
 الناقد والباحث " جوناثان كألر " الذي يقول : « فقد أصبحت هذه الأعمال ممكنة
 من خلال تلك السابقة عليها ، حيث تناولها وكررتها وتحدثتها وغيّرتها فالعمل
 الأدبي الفني يوجد بين الأعمال الأخرى ، وفي عداها عبر علاقته بها ، وأن تقرأ
 شيئاً ما بوصفه أدبا هو أن تعدّه حادثة لغوية لها معنى بعلاقتها مع الخطابات
 الأخرى ، مثلا كقصيدة تلعب على الاحتمالات الأخرى التي خلقتها القصائد
 السابقة »².

وعموماً حديثنا عن الدراسات الأدبية والنقدية التي تخصّ النصوص من
 حيث التناص سوف لا ينتهي ، وذلك لاختلاف آراء النقاد في هذا الشأن وما
 يهمننا نحن هو دراسة التناص عند شعراء تلمسان والوقوف عند أهم التقاليد الفنية
 الشعرية التي اعتمدها في بناء قصائدهم ، ومن أشكال التناص التي وجدناها في
 شعرهم نذكر :

¹ - أحمد قنشوية ، مرجع سابق ، ص 372 .

² - نفسه ، ص 378 .

أ- التناص الديني :

كان له حضوراً قوياً في أشعارنا الشعبية فما من شاعر إلا وتضمنت أعماله معاني دينية إسلامية ، وذلك لرغبتهم الشديدة في تركيز أسس الروابط الإسلامية وسط مجتمعهم والحفاظ على منابع الهوية الجزائرية والتي يكون ديننا الإسلامي أحد مكوناتها الأساسية والذي لا بد أن يكون حاضراً في أي مكان وهذا ما أكده د. عبد الله الركيبي : « وفي كل هذه القصائد المختلفة الموضوعات نجد أثر الدين واضحاً قوياً ، وهي بسمة بارزة في هذا الشعر ، فقد يبدأ الشاعر بالدين وقد ينتهي به أو يصلّي على الرسول صلى الله عليه وسلّم ، أو يستجد برجال الطرق الصوفية ، بل نجد أثر الدين حتى في الغزل الذي استنفذ جانباً كبيراً من الشعر الجزائري الملحون البدوي والحضري على السواء ، بحيث يتّجه الشاعر إلى الله ليستجد به ليهدي محبوبته فتتعطف عليه »¹.

وكان النص الأول الذي اقتبس منه الشعراء الشعبيون دلالاتهم الدينية هو القرآن الكريم ، ومن أهم ما عثرنا عليه من أشكال التناص الديني نقف عند قول ابن مسايب²:

مَا اَمْلَحَ ذِيكَ الشُّوشَةَ ظَلَامَ بَعْدَ الْعِشَاءِ
كَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالْقَدِّ الْمُنْتَشَى

¹ - عبد الله الركيبي ، مرجع سابق ، ص ، ص 377 ، 378 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، 65 .

طُرَادَةٌ فِي هُوشَةٍ بِيَدٍ مِّنْ لَا خَشَا
وَجَبِيْنٌ هَلَالٌ مَّشَا مَعَ شَمْسِ الْعَشَى

فهناك اقتباس من القرآن الكريم في قول الله جلّ جلاله : [والليل إذا
يَغْشَى ، والنهار إذا تَجَلَّى ...]¹ ، ثم يقول بن خلوف²:

بَمَا فِي سُورَةِ نُونٍ عَظْمُهُ عَالِي الْقَدْرَةِ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ
وَأَقْسَمَ بِهِ الْجَلِيلُ فِي كَمِّ سُورَةٍ يَسِنُ وَقَافٌ زَادَ ثُمَّ حَمِيمٍ
مُحَمَّدَ رَاحَةَ الْعِبَادِ الْمَشْهُورَةِ مَدْحُهُ لَا زَالَ يَحُلَى فِي قَلْبِي وَيَلَالِي

فيشيد هنا الشاعر بعظمة خير الأنام مستشهداً بقول الله عز وجل في الآية
الرابعة من سورة القلم : [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ]³.

ويقول أيضا⁴:

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَدْرٌ حُرُوفِ الْمِيمِ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَى مَدَّثَرِ مَزْمَلٍ
مَطَهَّرَ مَجْتَبِي مَشَفَعِ مَعْظَمِ مُؤَيِّدٌ مَتَّقِي مَقْدَمِ مَفْصَلِ

¹ - القرآن الكريم ، سورة الليل ، الآية الأولى .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 59 .

³ - القرآن الكريم ، سورة القلم ، الآية 4 .

⁴ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 61 .

مُجَدُّ مَرْتَضِيٍّ مَذَكَّرٍ مَعْلَمٍ مَحَذَّرٌ مَقْتَبِيٍّ مَحْرَمٌ مَحَلَّلٌ
 مَغْفُورٌ الذَّنْبُ مَا بَقَاتُ عَنْهُ وَزَرَةٌ مَرْفُوعُ الذِّكْرِ فِي السَّمَاءِ اسْمُهُ عَالِيٌّ
 أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ نَعَمْ الصُّورَةَ مَحْمُودُ الْإِسْمِ خَصُّهُ ذُو الْجَلَالِي

في هذه الأبيات يمدح الشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيعدد صفاته ومحاسنه ، فنجد اقتباسا من القرآن عندما قال محمد مصطفى مدثر من قوله عز وجل في سورة المدثر : [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ] .¹

ثم يظهر عظمة سورة الشرح في قوله ألم نشرح لك صدرك نعم الصورة ، يقول الله عز وجل : [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ] .²

ووقفنا أيضا عند وجه آخر من أوجه التناص الديني والمتمثل في تأثير الشعراء بقصص الأنبياء والرسل الواردة في القرآن الكريم واستنادهم على ذلك يرمي إلى خدمة أغراض الشاعر من حيث النصيح والإرشاد وأخذ العبرة ، ثم من حيث التميز والتفرد بهذه الخصائص ، ونقف على سبيل المثال عند قول الشاعر بن مسايب³:

غَرَقُوا فِيهِ اللَّعِينُ وَوَزِيرُهُ هَامَانُ وَعَسَاكِرُ ضَلُّوا الْفُتُونُ

¹ - القرآن الكريم ، سورة المدثر ، الآية 1 ، 2 .

² - القرآن الكريم ، سورة الشرح ، الآية 1 ، 2 .

³ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 125 .

كَذَلِكَ قَوْمٌ نُوحِ زَمَانَ الطُّوفَانَ أَهْلُ الْقَرِيَّاتِ وَالْمَدُونِ
 وَالنَّمْرُودُ الْغَسِيقُ وَشَدَادُ أُوْكَانٍ وَدَقِيُوسٌ مَحَصَّنُ الْحُصُونِ
 لِأَضْوِ بِيَانٍ لَا ضِيًّا يَتَنَفَّعُ بِهِ جَانَا ذَا الْوَقْتِ فِي الظَّلَامِ
 الْوَقْفَةَ مَايَلَةَ لَهْنَايَا وَالْهَيْهَ وَالْفُلُكُ يَدُورُ بِالْأَنَامِ

فيذكر الشاعر هنا بقصة سيدنا نوح عليه السلام ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ونكران نمرود الطاغي لدعوته وسخريته له فسلب الله عذاباً أليماً فأرسل الطوفان الذي غرق فيه الظالمون ، وليس غرض الشاعر هنا تذكيرنا بالقصة بقدر ما يحاول أن يوصل للقارئ أن هناك عذاباً للكافر المكذب بالله في جميع مراحل الحياة .

ولم يقف التناص الديني عند هذا الحد بل وجدنا الشاعر الشعبي يروي لنا قصص الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمثلاً بن مسايب قد قص لنا ما حدث مع محمد صلى الله عليه وسلم أثناء وداعه وصلاته الأخيرة ، ومجيء ملك الموت ثم موته وحزن فاطمة الزهراء الشديد عليه ، ثم وفاتها بعده ، كل ذلك جاء في قصيدة مطوّلة بعنوان " هَكَذَا أَرَادَ وَقَدَّرَ " ¹ جاء فيها :

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَيْقِضَ بُو فَاطِمَةَ وَقَالَ يَا بِلَالُ الْوَقْتُ عَزَمَ مَا بَقِيَ جُلُوسِ
 نَحْوُ سَدَسِ سَعَةِ قُرْبِ الزَّوَالِ قَدَمُوا بِوَبْكَرٍ فِي سَايِرِ الْخُمُوسِ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 113 .

تَم بَلَالٌ رَجَعُ يَنْوُحُ مَا بَقِيَ سَوَالٌ قَالُ لِلشَّيْخِ تَقَدَّمَ بِأَشْرَ الكَيُوسُ

ثم يقول¹:

وَأَهْلُ الأَرْضِ يَزِدَاحُمُوا زَحَامُ بَيْنَ انصَارِ الأُمَّةِ وَالمُهَاجِرِينَ
كَتَوَقَّى طَهَ عَبَدتَ فَاطِمَةَ النَحِيبُ صَارتَ تَتُوحُ طُولَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
رَاهَا مَنْ فَقَدَ الأبَّ قَلْبَهَا عَطِيبُ حَزْنَهَا عَظِيمٌ وَعِيشَهَا مَرَارُ

وفي تأثر شعرائنا بالصحابة رضوان الله عليهم والإشادة بمناقبهم وجدنا بن
خلوف يقول²:

لَا بُدَّ مِنَ الرِّضَى عَن أَصْحَابِهِ الكَرَامِ وَعَن المُهَاجِرِينَ الأَبْطَالِ السَّادَاتِ
وَلَا نَنسَى الانصَارَ مَن نَعْرُوا الإِسْلَامَ وَالعُلَمَاءَ الصَّالِحِينَ ذَوِي الرِّكَعَاتِ
اللَّهُمَّ أَرْضَ عَن المَكَّنَى حَيْضَرَةَ إِسْمُهُ عَبْدُ الإِلَآهِ ثُمَّ الأَمِيرِ عَلِيٍّ
ثُمَّ بُوْبَكْرَ وَعُثْمَانَ وَعَمَرَ وَاجْعَلْنَا كُنَا فِي مَنزِلِ عَالِيٍّ

ونعود إلى قول عبد الله الركيبي عندما بين أثر الدين حتى في الغزل ، وقفنا
عند قول بن مسايب³:

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 117 .

² - الأخرى بن خلوف ، ديوانه ، ص 60 .

³ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 75 .

مُولَى الرَّقَبَةِ الْبَاهِي	بِهَا قَلْبِي زَاهِي
عَلَيْهَا نَصْرُ اللَّهِ	بُأَيَّاتِ الرَّحْمَانِ
أَعُوذُ بِاللَّهِ	مَنْ عَيْنِ الْمَعْيَانِ
نَسْقِي كَحْلَ اللَّامِحِ	كَاسَ الْخَمْرِ الصَّالِحِ

فيترجى الله بآياته أن يحمي حبيبته من العين الحسود وفي مقام آخر يتضرع إلى الله عز وجل بذكره الأنبياء وحواء وآدم بأن يحفظ مدينة تلمسان ويرعى ناسها ، ويتوالى بذكر سور من القرآن : الملك ، طه ، الفرقان ... ، فيقول ¹:

رَبِّي بِحَوَا وَآدَمَ	سَأَلْتَكِ بَجَهَ الْأَنْبِيَا
أَلْطُفَ بِهَا وَاعْزَمِ	بِجَمِيعِ نَاسِهَا الْكُلِّيَا
بَجَهَ كُلِّ مَنْ هُوَ مُسْلِمٌ	وَالصَّالِحِينَ الْأَوْلِيَا
وَاعْفُ عَلَيَّ مَسَايِبَ وَإِرْحَمِ	رُوحَهُ إِذَا فَنَاتَ أُوحِيَا
لِلْوَالِدِينَ وَالْأُمَّةِ الْكُلِّ سِوَاهَا	تَغْفِرْ وَتَرْحَمْ يَا رَحْمَانُ
بَجَهَ سُورَةِ الْمَلِكِ وَسُورَةِ طه	وَأُمِّ الْكِتَابِ وَالسَّجْدَةِ وَالْفُرْقَانِ

¹ - ابن مساييب ، ديوانه ، ص 105 .

ب- التناص التاريخي :

تضمنت تجربة الشاعر الشعبي أسماء شخصيات التاريخ العربي والأدبي ، فكان دائما يعود إلى التاريخ بحثاً عن البطولة أو المثل الأعلى ، فيصوغ شخصيات أبطال معروفين في التاريخ العربي والإسلامي ، كعنترة بن شداد ، علي بن أبي طالب ، « فالأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة ، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي ، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى ، فدلالة البطولة في قائد معين ، أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل - بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة - باقية وصالحة لأنها تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة ، وهي في الوقت نفسه قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة »¹.

ومثل ذلك ما نجده عند بن مسايب حين يترجم تجربة ما عاشته تلمسان سابقاً في ذكر ملوكها وأمرائها وما قاموا به من إنجازات لصالح البلاد وعندما أيضاً كان يمدح علماءها وأولياءها وشيوخها ، فيقول²:

¹ - علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1417هـ / 1997م ، ص 120 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 99 .

كَانَتْ بَدَأَ الْحَقِّ وَالذِّينَ وَالْيَقِينُ مَا تُحِبُّ الْبِدْعَةَ وَلَا تَتَّكِرُ مِنْ فَضْلٍ
عَنْدَهَا بَنُو مَرْزُوقٍ نَسَبُهُ الْحُسَيْنُ وَالْحَبِيبُ الْمُقَرَّبِيُّ الْفَاضِلُ ذُو الْكَمْلِ
وَالْمَغِيلِيُّ وَابْنُ مَعْرُوفِ الْمَكِينُ وَالْإِمَامُ ابْنُ زَكْرِيَّ الْفَقِيهِ الْأَجَلُّ

أما المنداسي فقد عاد بنا إلى القصة التاريخية الأسطورية " قصة قيس وليلى " عندما يتغنى بجمال مكة ويظهر لهفته وشوقه إليها فينعت نفسه بـ قيس المتيم بحب ليلي فيقول¹:

أَكْتُبُ كِتَابَ خَطِّ عَرَبِيٍّ لَا زَلَّتْ أَنْقَاسِي

مَا قَسَى قَيْسٌ فِي هَوَى لَيْلِهِ لِيهِ أَنْقَاسِي

هذا وقد وجدت أشكال أخرى للتناص عندما تتقاطع نصوص الشاعر الشعبي مع نصوص أخرى سابقة أو معاصرة له ، بمعنى أن العديد من المظاهر والدلالات قد تكررت بين مجموعة من الشعراء أو تواترت من شاعر إلى آخر حتى أصبحت نوعاً من التقاليد الفنية الشعرية التي تخص القصيدة الشعبية .

فإذا نظرنا إلى صور الغزل وجدنا الشعراء قد وصفوها بـ صور تكررت كثيراً ، فالخد دائماً يمثل الورد أو الزهر والقامة دائماً تمثل بالغصن أو النخلة ، وتكرار حروف النون وصفا لحاجبها ، وبهاؤها ونورها بضياء البدر ليلاً والشمس نهاراً ، وتصويرها أيضاً بالغزال .

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 30 .

نذكر على سبيل المثال قول بن سهلة¹:

تَحْتِ الْجَبِينِ شَافَتْ عَيْنِي رُؤْيَةَ الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَبُدُورِ أُخْرِينِ
عُيُونُ يَا عَذَابِي تَاهُوا بِيَا حَوَاجِبُ طَوِيلَةَ نَحْيِ نُونِينِ
مَبْسَمَ ظَرِيفٍ وَالشَّفَّةِ عَكْرِيَةَ وَالوَرْدِ بَانَ فَاتِحُ فُوقِ الْخَدَّيْنِ

وبنفس الصور وصفها بن مسايب²:

بَدْرُ الْبُدُورِ مَنْ بِهِ تَزْهَى كُلُّ خِيْمَةٍ

ويقول أيضا³:

الْخَدُ وَاشْ فِيهِ مَكَلَّلُ نَغْنِيَهُ وُرْدٌ فِي مَشْمُومِ

ومن أوجه التناص الشعري ذكر لفظة الوشام وتكرارها بين الشعراء فذكره بن

مسايب ويُقال أنه قد سار فيها على منوال ابن علي عندما يقول في مطلعها⁴:

أَوْشَمٌ وَلَفِي بَاشِ نَامْرَكِ يَا حَجَّامِ

¹ - بومدين بن سهلة ، ديوانه ، ص 54 .

² - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 77 .

³ - نفسه ، ص 68 .

⁴ - نفسه ، ص 49 .

وعندما ذكره أيضا " غانم " جاء في مطلعها¹ :

أَشْ جَابَكَ يَا حَجَّامَ لَغَزَالِي وَأَنَا مَعَهُ

وذكره أيضا بن تريكى في قصيدة يَا الْوَشَّامَ²:

يَا الْوَشَّامَ رَطَّبْ يَدَّكَ وَارْشْ مَا لَّا إِلَّا افْطِيمَةَ

يَا الْوَشَّامَ

دِرِّ الْأَلَيْفِ أَلْفَ عَدْرًا فِي خَجَلَةٍ بَنَاتِ الْكُبْرَى

الصَّيِّىِ وَادْهَبْ الْعُبْرَةَ بِالنَّاسِ فِي طَبَعٍ أَوْ هَمِّهِ

وهناك ميزات تعبيرية وتركيبية معينة يوظفها الشاعر وهناك تقاليد شعرية واحدة ، يتبعها أغلب الشعراء كمدحهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، يُراعون فيه دائما بصلاتهم عليه بعدد النجوم أو الكواكب أو النباتات وما شابه من مظاهر الكون ، ونذكر مقطعاً من إحدى قصائد بن خلوف " أحسن ما يُقال عندي " ³:

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ طُولَ الدَّهْرِ عَلَى نَبِينَا

قَدَّرَ نَجُومَ اللَّيْلِ الْأَظْلَمِ وَالْأَمْطَارَ النَّازِلِينَ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 49 .

² - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 95 .

³ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 41 .

وَاسْتَخْلَفَ الْحُوتَ الْأَبْكَمَّ فِي الْبُحُورِ الْغَامِقِينَ

وأخيراً خلصنا إلى أن ظاهرة التناص حضرت كثيراً في شعر الشعراء الشعبي ، التي رسّخت جوانب من التواصل بين الشاعر والمتلقي ، وتؤكد لنا اهتمام الشاعر الشعبي بالجانب الديني والتاريخي ما يظهر وعيه الكامل بحقائق دينه وتاريخ عروبه وتجسيدها في شعره ، بـغية التذكير أو إفادة القارئ بها وكذا إضافة دلالات جديدة للقصيدة الشعبية .

4- الصورة الشعرية البلاغية :

إنّ أهم ما يشدّ جمهور القراء والمتلقين للأدب والشعر هو ذلك الجانب الفني الذي يركز على عنصر الجمال ، وتلك التراكيب اللغوية التي تختلف عن غيرها من التراكيب ، ما يشكل صوراً فنيةً بواسطتها يعبر الشعر عن خلجات الفكر ، تلك الصور التي تعتمد بالأساس على عنصر الخيال في إيصال العلاقات ، فالصورة هي التي تنتج الفن الشعري وبدون تصوير ليس هناك فن شعري .

وقصد تبيان المعنى الحقيقي لكلمة صورة وقفنا عند التعريف اللغوي لابن منظور : « الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته ، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته ، وتصورت الشيء : توهمت صورته ، فتصوّر لي ، والتصاویر : التماثل »¹.

أما من حيث المعنى الاصطلاحي لها فهي عند الجرجاني مميزات الشيء المفرقة بينه وبين غيره ، وهذه المميزات تتكون في الشكل أو في المضمون ، فيقول : « الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا فلما رأينا البيونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقا ، عبرنا عن ذلك

¹ - ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، دط ، دت ، مادة

الفرق وتلك البيئونة بأن قلنا للمعنى في هذه الصورة غير صورته في ذلك»¹ ، فالجرجاني قد جعل للصورة بُعدين ما هو خيالي مجرد وما هو مادي محسوس .

وبشكل عام يمكن القول أنّ الصورة الشعرية هي تركيب لغوية تختلف عن غيرها من التراكيب اللغوية العادية ، وهنا تظهر براعة الشاعر وقدرته على إيجاد علاقات متميزة بين الألفاظ .

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ الوظيفة الشعرية لا تحدثها الصورة لوحدها بل بوجود ودعم الإيقاع الذي يعطي للقصيدة شخصيتها المميزة ، فهو الذي يستهوي السامع ، فالجانب الموسيقي ضروري للصورة الشعرية ، وهذا ما أوضحه شوقي ضيف : « النمط النغمي الذي يجمع بين الألفاظ والصورة ، بين وقع الكلام والحالة النفسية للشاعر إنها مزاجية تامة بين المعنى والشكل ، بين الشاعر والمتلقي »².

وقد عرّف لنا الصورة الفنية الدكتور عبد القادر القط في كتابه : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر بقوله : « هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبّر عن جانب

¹ - عبد القادر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، 1978م ، ص 389 .

² - شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط5 ، 1977م ، ص 102 .

من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة أو المجاز والترادف ، والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني «¹ .

وحديثنا في هذا المقام ليس عن معنى الصورة وكيف ينظر إليها كل ناقد وباحث بقدر ما هو الرغبة في إظهار ما جسده شعراء الشعر الشعبي لها وكيف استخدموها واختلافها من شاعر لآخر ، ولدى شعراء مدرسة تلمسان وجدناها - الصورة الشعرية - تستمد معالمها من بيئة شعرائها ، وهي نابعة من العالم المحسوس لديهم ، فهي التي أظهرت إبداعهم الذهني بتقديم الدعم الجمالي للقصيدة .

والواضح جلياً أن مظاهر الطبيعة التي ميزت تلمسان وعاش في أحضانها شعراء الشعر الشعبي كانت مصدراً هاماً لمكونات الصورة بالدرجة الأولى ، إضافة إلى تجاربهم الحسية دون أن ننسى الوازع الديني الذي يستلهمون منه صورهم . فالصورة لدى هؤلاء وسيلة فنية يستعينون بها لتوصيل المعنى للقارئ .

¹ - محمد الولي ، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 1990م ، ص 19 .

أ- الوسائل البيانية :

هناك من رأى من الباحثين أن الوسائل البيانية من استعارة وتشبيه هما الأساسيان في تشكيل الصورة بل هناك من جعلهما الصورة بحدّ ذاتها ومنهم محمد الولي¹.

والشعراء الشعبيون يعتمدون في عملية التصوير على الصورة البيانية باعتبارها وسائل لإيصال المعنى وتبليغ الفكرة ، ويعود إبداعهم في توظيفها إلى عنصر الخيال الذي يعمل على إنتاج الصور ؛ فكان خيالهم نابعا من فيض الإحساس ومنوعا حسب طبيعة مواضيعهم الشعرية .

ووجدنا أثناء استقرائنا لمجموعة الأشعار الشعبية لدى مدرسة تلمسان أن الاستعارة أكثرها حضورا عن باقي الصور البيانية ، فكانت قريبة من اللغة الشعرية الإيجابية ، وهي الأقرب إلى طبيعة الشاعر الملمحة غير المصرحة ، المنحازة أكثر إلى الغموض .

وعندما كانت الاستعارة هي استبدال طرف بآخر أو تغييب طرف لصالح آخر ، كما نجد في هذا البيت لابن مسايب² :

¹ - محمد الولي ، مرجع سابق ، ص 19 .

² - ابن مسايب ، الديوان ، إعداد وتقديم الحفناوي السحنوني وأسماء سيفاوي ، مصدر سابق ، ص 116 .

رَأَيْ هَمِيمَ هَائِمٍ فِي نَكَدٍ أَحْزَانِي

تَهَوُّلٌ خَاطِرِي وَآ فِي يَدِّي بَاشٌ نَنَاطِحُ

فإن الوصف المذكور : تهوُّل هو وصف لحالة البحر عندما يتهوُّل ويثور وتتعالى أمواجه لكنَّ الشاعر غيَّب البحر وأحلَّ محله " خَاطِرُهُ " فأكسب حالته النفسية المتوتِّرة هذه الصفة وفق رؤيته الفنية .

وفي قول بن سهلة¹:

الْحُبُّ يَا أَهْلَ الْغَرَامِ بُلِيَّةٌ مِنْ لَا ذَاقَ مَا جَابَ خَبْرَ مَسْكِينِ

في هذا البيت تشبيه للحُبِّ وهو شيء محسوس معنوي بالطعام وهو شيء مادي ملموس ، حذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته وهي التدوق " ذاق " فتمكَّن الشاعر من خلال توظيف هذه الاستعارة على بث نوع من الحركة في المشبَّه ، ونذكر استعارة أخرى في قول المنداسي²:

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 55 .

² - المنداسي ، ديوانه ، ص 31

أَبْعَيْنِي دِيمَةً¹ وَكَافَةً² أُمَّ شَعِيبٍ لِلنَّوَى³ مِنْهَا أَنْبَزَلُ⁴

شبه هنا دموع الشوق التي لا تتوقف المعبرة عن لوعة الفراق والحنين بالمطر الدائم السيلان ، حذف هنا الشاعر المشبه وأبقى على صفة من صفات المشبه به وهي الديمة ، فجاءت هنا الاستعارة تصريحية .

فتوظيف الشعراء لهذا النوع من الصور جعلهم يترجمون إحساسهم الخاص بالأشياء التي لا يمكن أن تمثلها التعبيرات العادية ، فحققت قوة انطباعهم .

ووقفنا عند أعظم تصوير في هذا البيت للمنداسي⁵ :

الرَّبِيعُ أَقْبَلَ بِجِيُوشِ بَرْقٍ وَرِيَّاحٍ وَالرَّعْدُ أَطْبُولُو رَنْتَ عَسْكَرٍ وَقُوِيَّةٍ

يقوم الشاعر بتصوّر مجموعة الظواهر الكونية من برقٍ ورياحٍ بالجيش التي تهجم بحلول فصل الربيع على أنه قائد هذه الجيوش القوية ، لأنهم يتحركون بتحركه أي بإقباله ، ولفظة " عَسْكَرٍ وَقُوِيَّةٍ " تعني شدة انفعالها ، وقد لجأ الشاعر إلى هذا التصوير إلى دلالة شعرية وهي دلالة القوة والعظمة من أثر البرق والريح والرعد ؛

¹ - ديمة : المطر الهادئ .

² - وكافة : متتابعة السيلان .

³ - النوى : البعد .

⁴ - أنبزل : انشق .

⁵ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 40 .

لِيُبَيِّنَ بِهَا عِظْمَةَ هَذَا الْفَصْلِ وَمَا تَلِي هَذِهِ الظواهر بعدها من مناظر خلابة يشهدها هذا الفصل ، فقد جعل هنا من الربيع الكائن الحي الذي يتميز بالقوة .

أما الكناية : يراها الخطيب القزويني أنها تلميح يُذكر من خلالها الكلام ويدلّ على معنى آخر بعيد : « لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى حينئذ ، كقولك فلان طویل النّجاد أي طویل القامة »¹.

فهي تركيب يحتمل معنى ظاهريا وآخر باطنيا هو المقصود ، وقد وظفها الشعراء هي الأخرى بكثافة للتعبير عن خيال الشاعر ، وتعتمد الإيحاء الذي يُقنع ويؤثر في القارئ أو السامع .

ومن نماذج توظيف الكناية نذكر ما قاله بن سهلة²:

مِيَاتُ جَارِيَةِ سُودَانِي مِيَاتُ بِنْتٍ مِنْ أَهْلِ الْكُفَارِ
تَسْوَى خُزَايِنِ الْعُثْمَانِي تَسْوَى مَالِ فَاسٍ وَدِيَارِ التَّجَارِ

فالمعنى الباطني المقصود هنا المكانة الكبيرة التي تحتلها المعشوقة في قلب الشاعر على أنها عالية المقام ، وأخرى وظفها في قصيدة " إِرْفَقُ يَا مَالِكِي " ³ :

¹ - الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1996م ، ص 355 .

² - بن سهلة ، ديوانه ، ص 39 .

³ - نفسه ، ص 129 .

جَرَعْتُ الْمَرَّ بِالْأَحْفَانِي نَدَمْتُ مَا فَادَنِي نَدَامٌ

كناية عن الحزن والأسى الذي يعيشه الشاعر من لوعة الفراق ، فعبر عنها
بمعنى ظاهري بقوله : " جرعت المرار بالأحفاني " .

وفيما قاله الأخضر بن خلوف ¹ :

صَوَّرَ لِي كَيْفَ رَادَ جَسَدِي وَجَعَلَ النُّورَ فِيهِ يَجْلِبُ

فالمعنى الظاهري أنه قد جعل في جسد الإنسان نوراً لكن المعنى الخفي
أو الباطني أنه قد خلق الجسد وكمّله بالعقل والإيمان والروح الطاهرة الصافية من
المعاصي والمآثم .

وكناية أخرى وظفها بن خلوف أيضا ² :

لَنْ يَرْمُقُوهُ بِنَاتٌ دِمْرَتِيلُ بَرُّ الْكُفْرَا كُلِّهِ مَخْلُوجُ
يَضْحَى قُوْتٌ مَعَاشَهُمْ زَقُومُ شَرِبُوا الْحَنْطَلُ بَعْدَ طِيبِ الْمَا

البيتان من قصيدة " قصة مزعران " فيها خلد الشاعر المعركة الضارية التي
هاجم من خلالها الإسبان مدينة مستغانم ، وقد روى فيها الأحداث بالتفصيل وكيف
تمّ انتصار الجزائريين على الإسبان ، وفي البيتين يظهر لنا الشاعر جزاء هؤلاء الذي

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 134 .

² - نفسه ، ص 184 .

يستحقونه فبعد حياة الرخاء والترف قد أصبح قوتهم من زقوم وشربهم حنظل كناية عن الاحتقار والإذلال .

ويمكن القول من خلال النماذج المذكورة للكنايات أنه قد حققت مطالب أصحابها (الشعراء) ببدائل أخرجت المعنى من الطابع التقريري إن صح القول إلى بعد تصويري محسوس جعل المعنى وظيفي قوي مع الاختصار في التعبير .

والتشبيه بأنواعه هو الآخر لقي حظاً وافراً من التوظيف في الشعر الشعبي إذ يعدُّ أقرب الوسائل المجازية لترجمة الصورة الشعرية التي يريد الشاعر من خلالها دلالات معينة قصد إيصالها للمتلقّي . فقد أولى الشعراء العناية بالجوانب التمثيلية والاستناد في ذلك على الصور الطبيعية الحية التي تظهر الإبداع الحقيقي للصورة التشبيهية . وقد وقفنا في شعر هؤلاء على تشبيهات متكررة سواء لدى الشاعر الواحد أو لدى مجموعة من الشعراء فصورة المرأة على سبيل المثال قد وصفت بصورة الغزال وبغصن الياس أو غصن اللقاح ، وتكرر هذا الوصف بين الشعراء كقول بن سهلة¹ :

إِذَا أَنَامَتْ غَيْرَ شَوْقِكَ بِيَا يَا غُصْنَ اللَّقَاحِ

أَنْظِرِي لِي وَشُوفِي لِحَالِي يَغْنِيكَ عَلَى السُّؤَالِ

¹ - بن سهلة ، ديوانه ، ص 34 .

ونفس الصورة جاءت على لسان بن مسايب¹ :

مَنْ نَهَاها غُصْنُ اللَّقَاحِ حَتَّى لِمَكَانِي جَأتُ

ونجدها أيضا عند المنداسي إذ يقول² :

بِحَوَاشِي حَرِيرٍ أوتَاهُ القَدُّ كَالغُصْنِ المَايِحِ

مَنْ يَرَاهُ يَتَمَنَّاهُ

وتكرّر أيضا تشبيهه خدود المرأة بالورد الفاتح ووصف جمالها وبهائها بالبدر أو القمر أو الشمس ، كلها وجدناها مذكورة لدى هؤلاء الشعراء لكن كل حسب طريقته التعبيرية الوصفية ، كتشبيه بن تريكلي لخد المرأة بنوع من الأزهار وهو الجنار أو النعمان ، يقول³ :

الحَرْقُوسُ⁴ والحَوَاجِبُ والشَّفَايِفِ مُعَكِّرِينَ والْخَدُ فِيهِ جُنَّارٌ أَوْ نَعْمَانٌ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 61 .

² - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 53 .

³ - نفسه ، ص 86 .

⁴ - الحرقوس : مادة سوداء تتزين بها المرأة بوضعها وسط الجبين ، ينظر معلمة لغة الملحون ، ص 58 .

وعند ابن مسايب نفس التشبيه¹ :

نَفْنَى إِذَا تُجِي تَزَعْبَلُ تَمَثِيلُ بَدْرٍ بَيْنَ نَجُومٍ
الْخَدَّ وَاشْ فِيهِ مَكَلَّلٌ نَغْنِيَهُ وَرَدَّ فِي مَشْمُومٍ

إنَّ ما يلاحظ على الأساليب التشبيهية للشعراء هو ربط المشبه بالمشبه به ، فيصبح الأول جزءاً من الثاني وليس مجرد تشبيه ، وكذلك قد ألغوا استعمال أداة التشبيه في جلّها وفي مواضع قليلة وظفوا " مثل أو تشبيه " ، وهذا ما قرب المسافة بين المشبه والمشبه به ، كما أضفى عليها نوعاً من القوة الدلالية .

وقد عمل الشعراء الشعبيون على مراعاة العلاقة بين المشبه والمشبه به فكانت دائماً هناك أسباب ومبررات للربط بينهما ، فتكون علاقة ظاهرة واضحة غير مبهمة الفهم ، فالعلاقة بين المرأة بالغزال هو الجمال والجبين بالبرق هو الضياء والقامة بالغصن أو النخلة هو الرشاقة والخد بالورد والزهر هو الرائحة العطرة أو بينها وبين البدر أو القمر أو الشمس هو النور والضياء .

اتضح لنا ممّا سبق أنّ شعراءنا الشعبيين قد بلغوا نسبة عالية في التوظيف الفني لمجمل الصور البلاغية ، والتي لا يمكننا حوضها كلّها في هذا البحث وإنما مُرادنا إظهار ما برع فيه الشعراء وما برز منهم من مهارات في الإلقاء الشعري الجميل الذي أدى فعلاً وظيفته التبليغية التواصلية .

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، ص 68 .

5- الإيقاع الشعري :

إنّ السمة البارزة والخاصة في الشعر هو الإيقاع ، وبدونه يفقد الشعر فنّيّاته وتقنيّاته الجمالية ، « فهو عنصر أساسي وضروري في الشعر لعاملين اثنين . أولهما الخصوصية الصوتية وثانيهما عامل الطبيعة من أجل الاعتماد على الإنشاد المرادف للحن الذي هو أساس تقويم أوزان النصوص »¹.

فالإيقاع خاصية ناتجة في الحقيقة عن طبيعة التجربة الشعرية ذاتها تلك التجربة الرمزية التي تحتاج إلى وسائل حسية لتجسيدها وتوصيلها ، ومن هذه الوسائل الإيقاع والمجاز² ، ولهذا عدّ الإيقاع من أهم خواص الشعر لأنه ينظّم أصوات النص وألفاظه لينشئ الإحساس بالوزن ، فيكسب بذلك القارئ لذّة وانفعالا .

¹ - العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس ، مرجع سابق ، ص 249 .

² - سيد البحراوي ، العروض وإيقاع الشعر العربي ، محاولة لإنتاج معرفة علمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993م ، ص 109 .

لأن الإمتاع الموسيقي مرتبط أساسا بالإشباع النفسي والنصي للسامع ،
 « وما تأكيد القدامى على عنصر الوزن والقافية كشرطين أساسيين لبلوغ أقصى
 درجات المتعة والارتواء إلا دلالة على البعد الجمالي لهاجس القول الشعري »¹.

والشعر الشعبي وجدناه هو الآخر يقوم بالأساس على عنصري الوزن
 والقافية إضافة إلى الإيقاع الموسيقي ، فالكل يشكل قوة صوتية تزيد الشعر جمالا
 ونعما يُطربُ الأسماع ، « فالذي يُراعى في القصيدة هو المساواة بين أبياتها في
 الإيقاع والوزن »².

وفي محاولة دراسة أشكال القصيدة في الشعر الشعبي قد رصد د. عبد الله
 الركبي ثلاثة أشكال لها الشكل المقلد للقصيدة العربية التقليدية وشكل الموشحات
 وأخيرا شكل الأزجال³ ، وفي دراسة قام بها الدكتور عبد الحق زريوح حاول فيها
 تتبع هذه الأشكال اعتمادا على شعر ابن كريب⁴ ، والتي وصل من خلالها إلى أن
 الشكل الغالب من الأشكال المذكورة لدى ابن كريب هو المقلد للقصيدة العربية ،

¹ - عبد القادر فيدوح ، دلالية النص الأدبي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، المطبعة
 الجهوية بوهران ، ط1 ، 1993م ، ص 90 .

² - محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار النهضة للطبع والنشر ، القاهرة ،
 مصر ، 1983م ، ص 463 .

³ - عبد الله الركبي ، الشعر الجزائري الحديث ، مرجع سابق ، ص 496 .

⁴ - ينظر عبد الحق زريوح ، دراسات في الشعر الشعبي الجزائري ، ص 72 .

وأرجع ذلك إلى أن شعره بدوي يرتبط بالشعر المعرب ، وهذا ما نجده عند آخرين أمثال مصطفى بن إبراهيم ، سعيد المنداسي ، الطاهر بن حوى ، وغيرهم ...¹ ونحن سوف نقتصر على تقديم بعض النماذج لكل ما له دخل في إحداث الإيقاع الشعري للقصيدة الشعبية من خلال شعر مدرسة تلمسان الشعبي ، فالمعروف عند الشعر العربي الأصيل اقتصاره على قافية واحدة .

لكن بدأ التنوع فيها من خلال تغيير نمط البيت الكلاسيكي إلى ما يسمّى بالبيت الدوري الذي يتمثل في الخمسّ والمسمطّ والرابعي والثلاثي وغيرها ، وظهر هذا التغيير بشكل جليّ مع ظهور أنواع شعرية جديدة ، « فبدأ العرب يتخلصون من عبء القافية الموحّدة ذات الرنين العالي منذ عصور بعيدة ، فنشأ الموشح والبند وفنون الشعر العبي ، ودرجت الأغاني التي تستعمل أكثر من قافية واحدة »².

وهذا ما وجدناه في الشعر الشعبي ، فذهب الشعراء إلى نظم هذا النوع من الشعر الذي لا يتقيد بالقافية التقليدية ، ووجدنا أيضا اختلافا في هذا التنوع بحدّ ذاته ، وتعددت أشكاله بين الرابعي والخماسي والثلاثي ، وهذا ما قد أثبت قدرتهم

¹ - عبد الحق زريوح ، دراسات في الشعر الشعبي الجزائري ، ص 94 .

² - نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، ط8 ، بيروت ،

1989م ، ص 188 .

على التفنن والتنويع في الشعر ، فأظهروا مستوى شاعريتهم ، ونذكر على سبيل المثال طابع ازدواجية القافية .

وفي الشعر الشعبي وجدنا ازدواجية في القافية بمعنى قافية صدر البيت خاصة به تختلف عن قافية عجزه الخاصة به وهذا ما وجدناه غالبا على هذا التنويع ، نذكر من ذلك قول الأخضر بن خلوف¹:

إِذَا تُحَيَّرْتُ مِنْ ذُنُوبِي	نَسْتَغْفِرُ وَالْإِلَهَ نَذَكُرُ
السَّتَارُ يَسْتَرِلِي عِيُوبِي	نَحْمَدُهُ وَلَا بُدَّ نَشْكُرُ
يَا مَلِكِ الْمُلُوكِ رَبِّي	سُبْحَانَ الدَائِمِ الْمُدَبِّرِ

فقافية الأسطر الأولى هي الياء والأسطر الثانية هي الراء لكن بانتهاء

الأبيات الثلاثة الأولى تتغير إلى قوافي أخرى وجاء النموذج على الشكل التالي :

ر.....	ي.....
ر.....	ي.....
ر.....	ي.....
ه.....	ي.....
ه.....	ي.....

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 179 .

° ه.....	ي.....
° ه.....	ي.....
° ر.....	ي.....
° ر.....	ي.....
° ه.....	ي.....
° ه.....	ي.....
° أ.....	ي.....
° ر.....	ي.....
° ر.....	ي.....

ونفس النموذج وجدناه في بعض قصائد بن تريكي نذكر قصيدة
" العيد الكبير " ¹ والتي جاء شكلها كالتالي :

° ه.....	د.....
° ه.....	د.....
° ه.....	د.....

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 84 .

هـ.....	د.....
ب.....	م.....
ب.....	م.....
ب.....	م.....
هـ.....	د.....
هـ.....	د.....
ن.....	ن.....
هـ.....	د.....
ي.....	د.....

كان لاعتماد الشعراء الاعتناء بنهاية الأسطر الأولى وتوظيف نفس الجرس الصوتي الأثر القوي في إحداث الإيقاع الصوتي الجميل .

ونفس النموذج وجدناه في عدة قصائد لابن مسايب ، نذكر على سبيل

المثال قصيدة " زينك فايت الزين " ¹ ومطلعها :

زَيْنَكَ فَآيْتُ الزَّيْنَ بِهِ وَقَفْتُ عَلَى الرِّيَامِ الْمَلَّاحِ

زَيْنَكَ فَآيْتُ الزَّيْنَ مَكَّةَ يَارِيسَةَ الْمَلَّاحِ

زَيْنَكَ فَآيْتُ الزَّيْنَ رَأَيْتُهُ الْبَاتِرِحَ مُنِينِ

القصيدة حائية تتكون من 62 بيتاً توحدت فيه قافيته ما عدى بعض الأبيات

منها، أما قافية الأسطر الأولى فتوحدت بين أبيات كل مقطع ونذكر نموذج منها :

ح..... ن.....

ح..... ن.....

ح..... ن.....

ع..... ع.....

ح..... ع.....

ح..... ع.....

ح..... ن.....

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، إعداد وتقديم الحفناوي السحنوني وأسماء سيفاوي ، مصدر

سابق ، ص 43 .

ن.....	ن.....
ح.....	ن.....
ح.....	ن.....
ح.....	ن.....
ك.....	ك.....
ح.....	ك.....
ح.....	ك.....

فمن خلال هذه النماذج يتبين لنا اهتمام الشعراء الشعبيين بالجانب الصوتي الذي يتمثل بالأساس في الموسيقى الداخلية والخارجية أو بالوزن والقافية ، وإن ما زاد من إيقاع القصيدة ذلك التكرار الذي اختاره الشاعر لبيت :

زِينَاكَ فَآيْتُ الزَّيْنُ مَكَّةَ يَارِيسِيَّةَ الْمَلَّاحُ

فتواتر هذا البيت بين المقاطع دلالة البعد النفسي للشاعر المتمثل في الإعجاب الكبير بمكة الذي يطغى عليه ويتملكه وتسيطر عليه عاطفة الشوق والرغبة الشديدة في زيارتها ، فبنية التكرار هذه وجدناها في أغلب شعر هؤلاء ، وقد أدت وظيفتها في تدعيم الوزن وإضفاء نوع من الموسيقى على القصيدة ،

إضافة إلى أنها قد فسرت حالة الشعراء النفسية وعبرت عن خلجاتهم الداخلية من خلال ما يكررونه .

وعندما قال العرب القدامى أنّ الشعر هو الكلام الموزون المقفى فهذا يعني أن الوزن من أهم العناصر التي يقوم عليها الشعر ، فالشاعر يقوم بنظم ألفاظ وسياسة تراكيب في شكل منتظم يعتمد على وحدات إيقاعية تتكرر بانتظام ، هذا ما يسمى بالوزن .

لذا عني الشعر منذ القدم بعنصر الوزن بدرجة كبيرة فأهمية وقيمة البيت الشعري وقمة الانفعال والتأثر لدى السامع تكون بقوة وزنه ، بل وقد بلغت أهمية الشعر لدى العرب القدامى لدرجة إنشاء علم خاص بهذا الجانب وهو علم العروض الذي يقوم بدراسة الأوزان الشعرية التي استندت على أبحر الليل وتفعيلاته .

لكن المعروف لدى الدارسين والباحثين أنّ هذه الأوزان لا ينطبق عليها الشعر الشعبي ، « فيصعب إخضاعه للأبحر وتفعيلاتها لأن نظام اللحن فيه لا يسمح بذلك ، ويبقى عنصر السماع هو المقياس لمعرفة موسيقاه »¹.

هذا رغم الدراسات التي قام بها بعض الدارسين في محاولة خلق أوزان للشعر الشعبي أمثال أحمد الطاهر الذي قام بوضع سبعة أبحر للشعر الشعبي ،

¹ - عبد الله ركيبي ، الشعر الجزائري الحديث ، مرجع سابق ، ص 437 .

إلا أن تطبيق تفعيلات الأوزان كان مفارقاً للأبيات المختارة للدراسة من قبل العربي دحو و د. عبد الحق زريوح بمحاولة تطبيق ذلك على عقيدة المنداسي¹.

فيتضح لنا مما سبق أن الوزن في القصيدة الشعبية يظهر في الموسيقى الشعرية وتوافق وانسجام المقاطع .

وخلصنا في الأخير إلى أن شعراء مدرسة تلمسان قد أعطوا الأهمية الكبرى للإيقاع والوزن والقافية في شعرهم ، فأظهروا قدرتهم الإبداعية والفنية وشاعريتهم القوية في النظم .

6- تأريخ وتوقيع القصائد :

إن من أهم الخصائص الشكلية التي يقوم عليها الشعر الشعبي " تأريخ وتوقيع القصائد " ، هو نظام اعتمده الشعراء في نهاية قصائدهم الشعرية ، فاعتنوا بخاتمة شعرهم واعتبروها الأساس في الشعر لأنها تتضمن تلخيصاً لحياة الشاعر أو لرأيه أو لموضوع قصيدته ؛ فيجب أن تكون ألفاظها قوية لتبقى راسخة في الأذهان ، إذ يقول في هذا الشأن الدكتور أحمد قنشوبة : « وهكذا فإن هذا الجزء من هيكل القصيدة - الخاتمة - استمد أهمية وخطره في القصيدة العربية غالباً من الموقف التداولي الذي يتموقع فيه الشاعر بالنسبة إلى المستمعين لشعره ، فضلاً عن المكانة التي تبوأتها القصيدة بوصفها مترجمة لمشاعر الشاعر

¹ - عبد الحق زريوح ، دراسات في الشعر الشعبي الجزائري ، مرجع سابق ، ص ، ص 63 ، 64 .

وأحاسيسه ووسيلة تفلسف ، وتعبيراً عن نظرة الشاعر للحياة والمجتمع من حوله ... »¹

فاعتمد الشعراء على تأريخ قصائدهم في نهاية نظمهم ، ومرجع هذه الظاهرة كما ذكر د. عبد النور جبور : « أن ينظم الشاعر في آخر أبياته كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل اجتمعت منها سنوات التاريخ المقصود من ولادة أو زواج ، أو وفاة أو سفر أو بناء مسجد أو تعيين في وظيفة ، أو عزل ، أو انتصار ... »²

فحرصاً من هؤلاء الشعراء على توثيق ما يسجلونه من تواريخ الأحداث قد اهتموا بهذه الخاصية ، بل قد استند عليها الباحثون واعتبروها مرجعاً لتأريخ الأحداث حتى أن تاريخ وفاة بعض الشعراء أو ميلادهم لم يعرف إلا من خلال قصائدهم ، فنذكر تاريخ وفاة الشاعر الأخضر بن خلوف الذي حُدِّد في بداية القرن العاشر هجري من خلال قصائده ، فقد أظهر عمره في قصيدته الأخيرة " ابقاوا بالسلامة " عندما قال³:

¹ - أحمد قنشوية ، البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص ، ص 175 ، 176 .

² - عبد الحق زريوح ، دراسات في الشعر الشعبي الجزائري ، مرجع سابق ، ص 97 .

³ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، ص 193 .

المُوفِ يَا أَوْلَادِي لِلْخُلُوفِي قَاصِدَهُ سَفُودَ نَارٍ انْطَفَأَ فِي وَسْطِ صُوفٍ
جَوَزَتْ مِيًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً مَعْدُودَةَ وَخَمْسَةَ تَامَّةً فِي أَجَلِي مَوْصُوفٍ

وعن تاريخ مولد ابن مسايب كذلك لم يحدد بدقة بل عرف أنه كان في نهاية القرن الحادي عشر الهجري والدليل على ذلك تأريخه لقصيدة " عمدا لي ما وجدت صبيرا " التي يقول فيها ¹:

هَذِهِ مُنِّي بَغِيرِ فَخْرِهِ سَلَامِي لِلْأَشْيَاخِ مَا نَاحَتْ الْأَطْيَارُ
فِي التَّاسِعِ عَامٍ بَعْدَ عَشْرِهِ مِيةَ وَأَلْفٍ حَكَيْتَ لَكُمْ شَيْئًا صَارَ
وَأَسْبَابِي فِي الْمَحَايِنِ عِذْرَاءَ خَطَفَتْ عَقْلِي كَوْتِي كِيَّةَ بَلَا نَارَ
زُورَةَ يَا عَاشِقِينَ زُورَةَ إِلَى مَكَّةَ بَلَّغُوا سَلَامِي يَا زِيَارَ

ويؤرخ لنا الشاعر ابن مسايب لتاريخ نظم قصيدة " إليك نشكي بأمرِي يَا الوحداني " فيقول ²:

ذَا الْقَصِيدَةَ يَا حَضَارَ نَهَيْتَهَا فِي لَيْلَةِ الْاِثْنَيْنِ
فِي شَهْرٍ مَوْلِدِ الْمُخْتَارِ الْمَفْضَلِ نُورِ الْعَيْنِ
مَنْ بَعْدَ أَلْفٍ وَمِيةَ صَارَ عَامَ وَاحِدٍ وَالْأَرْبَعِينَ

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، إعداد وتقديم الحفناوي أمقران سحنوني ، ص 54 .

² - نفسه ، ص 23 .

فقدّم تاريخ مباشر لإنشائه هذه القصيدة كاملاً ، وكان يوم الإثنين ربيع الأول عام 1141 هـ .

كما ذكر تاريخ نظمه لقصيدة " عمد إلى ما وجدت صبوا " والذي كان سنة 1119 هـ قال¹:

فِي التَّاسِعِ عَامٍ بَعْدَ عَشْرِهِ مِئَةَ وَأَلْفٍ حَكَيْتُ لَكُمْ شَيْئًا صَارَ
وَأَسْبَابِي فِي الْمَحَايِنِ عِزَاءً خَطَفَتْ عَقْلِي كَوْتِي كِيَّةً بَلَا نَارَ

وأرخ أيضا لقصيدة " في كلِّ يوم نواحي في الصبح والعشية " يقول²:

ابن أمسايب بعد الألف يقول ومية

في أول تسعة وأربعين تمت ذا القصيد

ويمكن أن نقول عن هذا النوع من التأريخ " تأريخ مباشر " ، لأنه ذكر مباشرة تاريخ نظم القصيدة دون حساب أو تلميح .

¹ - ابن مساييب ، ديوانه ، إعداد وتقديم الحفناوي أمقران السحنوني ، ص 54 .

² - نفسه ، ص 61 .

أما الطريقة غير المباشرة فهي عبارة عن عملية حسابية لعدد الأحرف حيث سمّي أيضا بالتاريخ الحرفي¹، وتكون طريقة الحساب بحساب الأحرف الأبجدية للكلمات التي تأتي بعد لفظة تاريخ أو مشتقاتها وما يوحي بالعدد . و على هذا الأساس يشترط ذكر هذه اللفظة لأنها تتم العملية الحسابية².

وقد أشار د.شعيب مقنونيف إلى القيم العددية للحروف ، وفصل في الطريقة وذكر الجدولين المشرقي والمغربي ...

ونذكر مثالا لهذه الطريقة عندما أرّخ بن سهلة لقصيدة " فات شعاع القمر " ³:

والمرو اللّي سمّاكُ يرْحَمُو سَمَّاكُ بالاسْمِ الفُضِيلُ
شِينُ وَعْشُورُ الزَّا عَيْنُ بَعْدُ العَشْرَةَ فِي أَوَّلِ الكَلَامِ

فإسنادا على الجدول ومطابقة للأحرف مع ما يقابلها من أرقام نصل إلى أن تاريخ نظم هذه القصيدة هو 1100 هـ .

¹ - مقنونيف شعيب ، مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقارنة منهجية) ، منشورات مخبر عادات وأشكال التعبير بالجزائر ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، 2003م ، ص 117 .

² - نفسه ، ص 117 .

³ - بن سهلة ، الديوان ، مصدر سابق ، ص 123 .

كما أرخ بن تريكي لقصيدته له حيث قال ¹:

تاريخُ ذَا القَصِيدَةِ حُرُوفُ رَانِي انجِيبُ

فِي عَدَدِ شَيْنِ وَالْفَا وَالْجِيمِ أَحْسَابُ

وبجمع الأعداد التي تقابل الأحرف المذكورة في الشطر الثاني من البيت

نجد :

$$\text{ش} = 1000 \text{ و ف} = 80 \text{ و ج} = 3$$

$$1000 + 80 + 3 = 1083 \text{ هـ}$$

وهكذا قد اهتم الشعراء الشعبيون بتاريخ قصائدهم أو تأريخ أحداث هامة قد عايشوها ، ومن جانب آخر قد أبدوا اهتماما كبيرا بتوقيع قصائدهم الذي اعتمدوه في أغلبها ، فيصرحون في نهايتها بالاسم أو بذكر الكنية ، فأصبح التوقيع تقليدا شعريا يعتمده الشاعر ، « فالاسم ثقافة شخصية ، شيفرة مؤثرة وهو كثيرا ما يلفت النظر »².

وعلى الأرجح يعود سبب ظهور هذه الظاهرة وانتشارها بين الشعراء ، إدراك الشاعر سلفاً أن قصيدته ستتداول بين أفواه الرواة وقد تضيع نسبتها إليه ، لهذا

¹ - شعيب مقنونيف ، مباحث في الشعر الملحون الجزائري ، مرجع سابق ، ص 127 .

² - إبراهيم محمود ، صدع النص وارتحالات المعنى [حقيقة النص بين التواصل والتمايز] ،

مركز الإنماء الحضاري ، ط1 ، دمشق ، 2000م ، ص 05 .

الغرض يحرص على إثبات هويته في نهاية القصيدة ، وفعلا كان الأمر كذلك فالعديد من القصائد التي تثبت على أصحابها من خلال توقيعهم لها ، نجد ذلك مثلا في قصيدة الشاعر الشعبي التلمساني بومدين بن سهلة بطريقة أجمل¹ :

نَبَلَّغُ قَصْدِي وَمَرَادَ غِيَوَانِي نَشْهَرُ قَوْلِي لِلْعَارِفِ الْأَشْعَارِ
إِسْمِي بِنِ سَهْلَةَ عَاشِقُ وَفَانِي فَانِي بِالْحُبِّ مُرِيضُ مَانُوزَارِ

ونجد عن الشاعر نفسه توقيعاً لكن بشكل مخالف إذ ذكر أحرف اسمه متفرقة وجمعها نجد اسمه ، فيقول² :

يَا حَافِظَ الْقَصِيدَةِ خُذْ هَدِيَّةَ هَجِّ الْحُرُوفِ تَعْرِفْ اسْمِي مَبِينِ
الْبَاءِ وَالْمِيمِ وَالذَّالَّ وَحَرَفَ الْيَاءِ وَالنُّونَ نَرْتَجِي رَبَّ الْعَالَمِينَ

وعلى نفس الطريقة وقّع لقصيدته " قلبي زاد هبال " ³ :

نَشَفَى بِالنَّظْرَةِ مِنْ زِينِكَ الْمَكْمَالَ نَطْلُبُ مِنْ رَبِّنَا الْحَنِينِ مَا يَنْسَانِي
بَاءَ وَسِيمٍ وَيَاءَ وَنُونٍ بَعْدَ الدَّالِّ يَا كَرِيمُ يَا رَافِعُ السَّمَاءِ سُلْطَانِي

¹ - بن سهلة ، الديوان ، مصدر سابق ، ص 66 .

² - نفسه ، ص 55 .

³ - نفسه ، ص 102 .

كما وقع الشاعر ابن مسايب لقصائد عديدة نذكر مثلا قصيدة " يا قامة
غُصْنُ الْيَاسِ " التي جاء في آخرها ¹:

أَبْنُ مَسَايِبِ يَا سَامِعِينَ	جَائِبِ الْأَبْيَاتِ مَنْظَمِينَ
طَالَبٌ مَنْ رُبُّهُ الْحَنِينُ	تَشْفَى لَهُ كُلَّ احْسَاسٍ
يَغْفِرُ لَهُ وَلِلْوَالِدِينَ	بُحْرَمَةَ سَيِّدِ النَّاسِ

ومثاله أيضا ما جاء في خاتمة قصيدته الرائعة " بدر الدجا " التي مدح فيها خير
الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الشبيهة بالموشح ، فيقول ²:

مَنْ تَبَعَ يَنَالُ	مَنْهُ الدَّلِيلُ
قَالَ مَسَايِبُ قَالَ	خَلِّي الْجَمِيلُ
مَنْ يَفْدِي ذَا النَّاسِ	يَوْمَ الْفُضَّاحِ
يَحْلَى الْعُودُ وَالْكَاسُ	بَيْنَ الْمَلَّاحِ

ووقع أيضا بن تريكي لقصيدة " العيد الكبير " ³:

¹ - ابن مسايب ، ديوانه ، جمع وتحقيق محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، مصدر سابق ،
ص 67 .

² - نفسه ، ص 134 .

³ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مرجع سابق ، ص 94 .

إِذَا اخْفَاكَ اسْمِي سَأَلَ اعْلِي الْفُحُولُ

يَعْطُوكَ كُنْيَتِي مِنْ سَرَبَةِ الْأَبْطَالِ

أَنَا ابْنُ تَرْيَكِي لَا زَلْتُ أَوْ لَا نَزُولُ

رَحِّمِ اعْلَى أَحْمَدَ يَا سَامِعَ الْأَقْوَالِ

بَالِكَ لَا غَنَى عُمْرَكَ فَالِدُنْيَا تَطْوَلُ

أَجِي لِمَرْسَمِي وَتَشْهَدُ الْأَفْعَالِ

ويذكر كنيته في نهاية قصيدة " يَا الْوَشَّامُ " ¹:

وَأَوْ وَوَلَامَ أَلْفَ وَالْيَا دِرْ اسْمِي اعْلَى إِسْمَ بُوِيَا

بِنَ زَنْقَلِي فَالْكَنْيَةِ بَابَانَا أَحْمَدَ أَبِيَا

أما الشاعر الشعبي الأخضر بن خلوف فقد تعدى ذلك إلى ذكر والدته ووالده

وجده في نهاية قصيدته الطويلة " إِلَّا وَجْهَ الْحَبِيبِ غَاب " ²:

أَرْحَمْنِي وَأَرْحَمِ الْعَجُوزَ أُمِّي خَوْلَةَ وَأَرْحَمَ مَنْ هُمْ الْأَنْ خَلْفِي وَأَمَامِي

أَرْحَمِ الشَّيْخَ وَالَّذِي بَنَ عَبْدَ اللَّهِ وَأَرْحَمَ جَدِّي الْخُلُوفَ وَأَعْمَامِي

¹ - عبد الحق زريوح ، مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، ص 100 .

² - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 114 .

أَرْحَمُ الْإِخْوَانَ خَاوَتِي وَالْأَخْلَا وَأُمَّةَ مُحَمَّدٍ الشَّفِيعِ التَّهَامِي

ومثل ذلك قوله¹:

تَكْتَبُ مَدْحَ النَّبِيِّ عَلَيَّ لَنْ تَضْحَى شَاعِرُهُ بِحَالِي

وَإِذَا سَأَلُوكَ يَا وَلِيدِي عَنْ مَدْحِ الْهَاشِمِيِّ الْمَرْتَبِّ

كَانَ اعْتَرَضُوا قُلَّ عِنْدِي الْأَخْضَرَ بْنَ خُلُوفٍ وَاجِبُ

وهكذا وجدنا الشاعر الشعبي حريصا على تأطير قصيدته بسياق خاص وألفاظ وصيغ وخصائص شكلية لها أهمية كبيرة خصوصا لدى الباحث والمحقق والجامع لهذه الأشعار في معرفة أصحابها وتاريخ نظمهم لها ويظهر لنا هذا وعي الشاعر الشعبي بما يقوم به وبراعته الشعرية الكبيرة .

¹ - الأخضر بن خلوف ، ديوانه ، مصدر سابق ، ص 137 .

الخاتمة :

تلمسان منطقة تزخر بتراث شفوي هام ، لها خصوصياتها الثقافية والاجتماعية ، وعاداتها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية ، تعاقبت عليها حضارات مختلفة ومتعددة ما جعل منها معلماً أثريا وثقافيا هاما . ودراستنا لهذه المدينة الثرية انصبّت على جانب من جوانب التراث الشعبي والذي هو الشعر الشعبي . عدّ بحق هذا الأخير جزءاً أو فرعاً بالغ الأهمية من هذا التراث الذي ظلّ يمثّل لسان أهاليها يعبر عن حالها ، آمالها و آلامها ، سجّل تاريخها المجيد ورافقها في جميع المراحل التي مرّت بها ، و اختصّ بحثنا بدراسة موضوعات شعر الطبيعة التي ميّزت شعراء المنطقة ، ومن خلال هذا البحث توصلنا إلى مجموعة من النتائج يمكن رصدها كالآتي :

✓ شعر الطبيعة شعر قديم ظهر بظهور الشعر بحدّ ذاته ، يعمل على تصوير الطبيعة بنوعيتها الصائت والصامت ، تطوّر هذا النوع من الشعر عبر العصور ، فاهتم في العصر الجاهلي بتصوير الصحراء ، الطلل ، الليل ، المطر ، البرد ، وأنواع الحيوانات من الفرس والناقة ، والبقرة الوحشية ، والعقاب ، وما ميّز شعر الطبيعة في العصر الأموي إبقائه على نفس المواضيع السابقة رغم الحضارة الراقية التي شهدتها هذا العصر والتي تختلف عن حضارة البيئة الجاهلية . أما في العصر العباسي تأثر هذا الشعر بالحضارة الجديدة ، فظهرت موضوعات أخرى كوصف الرياض ، القصور ، الربيع ... إلخ

أخذ شعر الطبيعة منحى آخر بظهور العصر الحديث وجعل من العناصر الطبيعية ذات شعور وإدراك ، وأحيائها بحديثه عما يتجلى في خياله الواسع .

أما الإبداع الحقيقي وبراعة الوصف ودقة التصوير قد لمسناه عند شعر الأندلسيين نظراً لجمال البلاد الباهر بحدائقها ، جداولها ، قصورها ، أشجارها وأطيّارها ، فلها انطباعات في حسهم جعلتهم يذكرونها دائماً .

✓ كان لهذا النوع من الشعر بالخصوص شعر الموشحات والأزجال أثر كبير على شعر الشعراء الشعبيين التلمسانيين ، فنحوا نحوه وانتهجوا نهجه وراحوا يتفنّون ويبدعون .

✓ مدينة تلمسان مدينة غنية بآثارها وعمرانها ورياضها ويسانينها ، طيورها ، وأزهارها ، وزاد جمالها تلك المباني والمنشآت العمرانية ، أقضت قريحة الشاعر الشعبي التلمساني وجعلته يلوذ في محاسنها ويعطي أجمل صورة لها .

✓ تأثر الشاعر التلمساني بالشعر الأندلسي المولود في أحضان الطبيعة ، فكان هو الآخر مولعاً بجمال بلاده لما وهبها الله عز وجلّ طبيعة فانتة .

✓ ظهرت نخبة كبيرة من الشعراء بمنطقة تلمسان ، تعددت موضوعات شعرهم الذي أبدى مدى نضج هؤلاء ، وإحساسهم المرهف وانتمائهم الحضاري والفكري .

✓ من أهم موضوعات الطبيعة التي وجدناها من خلال دراستنا لبعض الأشعار ، ما يتعلق بوصف الرياض ، الأزهار ، الأشجار ، الريحان

والياسمين ، وأيضا الأطيّار والبلابل والبدر والقمر ، حسب طبيعة المكان المعاش .

✓ كان لهذه العناصر الطبيعية ارتباط وثيق مع المرأة ، فكانت تشبه بالبدر والقمر لحُسْنِها وجمالها ، و الياسمين والريحان لروعة نفسها وعطرها ، وذكر الليل لطوله وهو بعيد عنها وذكر الشمس لإشراقها بظهورها ، فوجدنا أغلبها متعلقة بالمرأة .

✓ من خلال دراستنا الفنية لهذه النماذج الشعرية اتضح لنا أنه شعر زاخر بتلك الفنون البلاغية الرائعة ، تمكن الشعراء من تمثيل القوالب الفنية الخاصة بفنون البلاغة بأنواعها فوظفوا التشبيه بأنواعه ، والاستعارات ، والكناية ، وكذا الأساليب البديعية التي زينوا بها شعرهم ما أظهر قدرة هؤلاء البيانية البديعية القوية .

وفي الأخير لا نزعم أنّ هذا البحث قد حقّق كل ما نريد ، ولا ندعي أنّنا بلغنا كل ما يمكن أن يُحقّق ، وحسبنا أن نكون قد سلّطنا الضوء على جزء بسيط مما يخصّ ثقافتنا وأدبنا وشعرنا الشعبي ، لنفتح مجال البحث والتعمق أكثر في هذا الموضوع في فرص لاحقة إن شاء الله .

فنسأل الله العليّ القدير أن يهدينا إلى الصواب ويوفّقنا لما يُحب

ويرضى .

والحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم : رواية ورش .

أ- المصادر :

ابن خفاجة :

1- ديوانه ، تحقيق السيد مصطفى غاز ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1970م .

ابن خلدون عبد الرحمن :

2- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج6 ، ج7 ، دار الكتاب اللبناني ، 1983م .

3- المقدمة ، تحقيق مصطفى الشيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة للنشر ، 1377م

ابن خلدون يحيى :

4- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1 ، ج2 ، تحقيق ألفريد بيل الجزائر ، 1910م .

ابن خلود سيدي الأخضر :

5- ديوانه ، جمع وتقديم محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، ابن خلدون للنشر والتوزيع ، تلمسان ، الجزائر .

ابن الرومي :

6- ديوانه ، ج3 ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة دار الكتب والوثائق ، القاهرة ، ط3 ، 2003م .

ابن سهلة بومدين :

7- ديوانه ، جمع محمد الحبيب حشلاف ، تحقيق محمد بن عمرو الزرهوني ، منشورات ANEP ، تلمسان ، ط1 ، 2001م .

ابن مسايب :

8- ديوانه ، جمع وتحقيق محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، ابن خلدون للنشر والتوزيع ، تلمسان ، الجزائر ، 2001م .

9- ديوانه ، إعداد وتقديم الحفناوي أمقران سحنوني وأسماء سيفاوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م .

أبو تمام :

10- ديوانه ، شرح إيليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، 1981 .

أبو شادي أحمد زكي :

11- ديوان الشعلة " متى مت " ، ط1 ، 1933 .

أبو نواس :

12- ديوانه ، تحقيق وشرح سليم خليل قهوجي ، دار الجيل ، بيروت ،
1425هـ - 2003م .

13- ديوانه ، جمع وتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ،
بيروت ، دط ، دت .

الأعشى ميمون بن قيس :

14- ديوانه ، شرح محمد حسين ، دار النهضة ، بيروت ، 1972م .

امروء القيس :

15- ديوانه ، شرح محمد بن إبراهيم بن محمد الحضرمي ، تحقيق أنور
أبو سويلم ومحمد الهروط ، دار المعارف ، عمان ، الأردن ، ط1 ،
1412هـ - 1991م .

البحثري :

16- ديوانه ، تحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، مصر .

17- ديوانه ، تصحيح عبد الرحمن افندي البرقوقي ، ج1 ، المطبعة الهندية ،
مصر ، ط1 ، 1229هـ - 1921م .

جرير :

18- ديوانه ، شرح أسعد أحمد علي ، دار صادر ، بيروت ، ط2 ،
1425هـ - 2005م .

طرفة بن العبد :

19- ديوانه ، تحقيق عباس إحسان ، دار صادر ، بيروت .

عبيد الأبرص :

20- ديوانه ، تحقيق أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ،
1414هـ - 1994م .

المنداسي سعيد بن عبد الله التلمساني :

21- ديوانه ، تحقيق وتقديم رابح بونار ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2011م .

ناجي إبراهيم :

22- ديوان ليالي القاهرة ، قصيدة " عاصفة " ، دار العودة ، بيروت ، 1973م .

ب- المعاجم :

ابن منظور جمال الدين :

23- لسان العرب ، مادة " زجل " ، دار صادر للنشر ، بيروت ، 1414 هـ .

الحموي ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي :

24- معجم البلدان ، مج 01 ، دار صادر للنشر ، 1397هـ - 1993م .

الفاسي محمد :

24- معلمة لغة الملحون ، ج2 ، القسم 1 ، معجم لغة الملحون ، مطبوعات
أكاديمية المملكة المغربية ، د.ت.

ج- المراجع باللغة العربية :

إبراهيم نبيلة:

25- أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار النهضة للنشر ، القاهرة ،
مصر .

ابن بسام :

26- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ،
بيروت ، 1979م .

ابن خلدون يحيى :

27- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1 ، ج2 ، تحقيق ألفريد
بيل ، الجزائر ، 1910م .

ابن سعيد علي :

28- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ،
ط2 ، 1964م .

ابن سناء الملك :

29- دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق جودت الركابي ، دمشق ، ط2 ،
1977م .

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم :

31- الشعر والشعراء ، دار المعارف ، القاهرة ، 1955م .

أبو الفتح ابن جني :

32- الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، ج1 ، دار عالم الكتب ،
بيروت ، ط2 ، 1983 .

أبو القاسم سعد الله :

33- تاريخ الجزائر الثقافي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ج1 ،
1985م .

ألفريد بيل :

34- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي عن الفتح العربي حتى اليوم ، دار
الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1981م .

الأيوبي أبو الفداء :

35- تقويم البلدان ، تحقيق المستشرق رينود ، ماك ، دار الطباعة السلطانية ،
باريس ، 1850م .

البحراوي سيد :

36- العروض وإيقاع الشعر العربي ، محاولة لإنتاج معرفة علمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993م .

برنشفيك روبر :

37- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ، ج1 ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي للنشر ، ط1 ، 1988م .

بروفسنال ليفي :

38- الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، د.ت .

البكري أبو عبد الله :

39- المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، نشر وتحقيق البارون دي سلان ، الجزائر ، 1911م .

بنشريفة محمد :

40- تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب - بحوث ونصوص - ، ج4 ، مطبعة دار المناصل ، 2006م .

التلي بن الشيخ :

41- دراسات في الأدب الشعبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،
1989 م .

42- منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر
والتوزيع ، الجزائر ، 1990م .

توات الطاهر:

- ابن خميس شاعر تلمسان الأكبر، دار الأوطان للطباعة والنشر، الجزائر، ط1،
2001

الثعالبي أبو منصور :

43- فقه اللغة وأسرار العربية ، شرح وتقديم ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ،
بيروت ، لبنان .

الجرجاني عبد القادر :

44- دلائل الإعجاز ، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ،
بيروت ، د.ط ، 1978م

حاجيات عبد الحميد :

45- أبو حمو موسى الزياتي ، حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،
1974م .

46- الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982م .

الحاوي إيليا :

47- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 1980م .

حرز الله محمد العربي :

48- تلمسان مهد حضارة وواحة ثقافة ، ط1 ، 2011م .

حسين طه:

49- حديث الأربعاء ، ج2 ، دار المعارف ، القاهرة ، ط12 ، 1976م .

الحمودي الحسني بن إدريس :

50- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج1 ، عالم الكتب للنشر ، بيروت ، ط1 ، 1409هـ .

الحوت محمد سليم :

51- في طريق الميثولوجيا عند العرب ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ط2 ، 1979م .

الداية فايز :

52- جماليات الأسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دمشق ، ط2 ، 1996م .

دحو العربي:

53- بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

ذهني محمود :

54- الأدب الشعبي العربي ، مفهومه ومضمونه ، مطبوعات جامعة القاهرة ، الخرطوم ، 1393هـ - 1972م .

ذهينة عطا الله :

55- الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984م .

رشدي أحمد صالح :

56- الأدب الشعبي ، مكتبة النهضة المصرية ، د.ط ، القاهرة ، 1971م .

الركيبي عبد الله :

57- الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 1981م .

زريوح عبد الحق :

-
- 58- دراسات في الشعر الملحون الجزائري ، دار الغرب للنشر والتوزيع .
- 59- مختارات من الشعر الملحون بتلمسان ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، الجزائر ، ط1 ، 2014م .
- السد نور الدين :
- 60- الشعرية العربية ، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1955م .
- شكري فيصل :
- 61- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، دار العلم ، بيروت ، ط5 .
- الشكعة مصطفى :
- 62- دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 1979م .
- الشنتريني ابن بسام :
- 63- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبد الله ، منشورات الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، تونس ، ط1 ، 1975م .
- الصباغ موسى :
- 64- قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي ، دار الوفاء لندنيا للطباعة والنشر ، الإسكندرية .
- ضيف شوقي :

65- دراسات في الشعر العربي ، مكتبة المعارف ، ط1 .

66- في النقد الأدبي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط5 ، 1977م .

الطمار محمد بن عمرو :

67- تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة رعاية ،
1985م .

68- تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .

عباسة محمد :

69- الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور ، دار أم الكتاب
للنشر والتوزيع ، مستغانم ، ط1 ، 1433هـ - 2012م .

عزام محمد :

70- النص الغائب ، تجليات التناص في الشعر العربي ، اتحاد الكتاب العرب ،
دمشق ، 2001م .

عشري زايد علي:

71- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ، 1417هـ / 1997م .

عوين أحمد :

72- الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط1 ، 2001م .

غنيمي هلال محمد :

73- النقد الأدبي الحديث ، دار النهضة للطبع والنشر ، القاهرة ، مصر ، 1983م .

الغوثنى أبو علي :

74- كشف القناع عن آلات السماع ، مطبعة جوردان ، الجزائر ، 1409هـ .

فوزي عيسى :

75- الأدب الأندلسي ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، 2015م .

فيدوح عبد القادر :

76- دلالات النص الأدبي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، المطبعة الجهوية بوهران ، ط1 ، 1993م .

فيلاي عبد العزيز :

77- المظاهر الكبرى لعصر الولاة في بلاد المغرب والأندلس ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، 2008م .

78- تلمسان في العهد الزياني ، ج1 ، ط1 ، الجزائر ، 2011م .

قاضي محمد :

79- الكنز المكنون في الشعر الملحون ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1928م .

القبلي محمد :

80- قضية المدارس المرينية : ملاحظات وتأملات ضمن كتاب النهضة والتراكم ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، 1986م .

القزويني الخطيب :

81- الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1996م .

قنشوية أحمد :

82- البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية ، منطقة شمال الصحراء أنموذجا ، 1850 - 1950 م ، دار سنجاق الدين للكتاب .

القيرواني الرقيق :

83- تاريخ إفريقية والمغرب ، دار الفرجاني ، ط1 ، 1994م .

مخالفة عمر رضا :

84- دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية للنشر ، ط1 ، 1973م .

كريخال مارمول :

85- إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، دار النشر المعرفة ، الرباط ، ج 2 ،
1989م .

محمود إبراهيم :

86- صدع النص وارتحالات المعنى [حقيقة النص بين التواصل والتمايز] ،
مركز الإنماء الحضاري ، ط1 ، دمشق ، 2000م .

المراكشي عبد الواحد :

87- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، 1949م .

المرزوقي محمد :

88- الأدب الشعبي في تونس ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1967م .

مقتونيف شعيب :

89- مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقارنة منهجية) ، منشورات مخبر
عادات وأشكال التعبير بالجزائر ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، 2003م .

نازك الملائكة :

90- شظايا ورماد ، دار العودة ، بيروت ، 1971م .

91- قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، ط8 ، بيروت ، 1989م .

نصار حسين :

92- الشعر الشعبي العربي ، منشورات اقرأ ، ط2 ، 1980 .

الوزان حسن بن محمد :

93- وصف إفريقيا ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1403هـ .

الولي محمد :

94- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، المركز الثقافي العربي ،

بيروت ، ط1 ، 1990م .

ومان توفيق :

95- أحمد ابن التريكي ، سلسلة مشاهير الملحن ، الرابطة الوطنية للأدب

الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين .

وهب رومية :

96- قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،

دمشق ، 1981م .

يوسف خليف :

97- ذو الرمة : شاعر الحب والصحراء ، دار غريب للطباعة والنشر

والتوزيع ، ط1 .

ابن الأحمر :

104- تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة ،
مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 2000م .

ابن الأعرج محمد بن محمد بن عبد القادر :

105- مخطوط زبدة التاريخ وزهرة شماريخ ، تحقيق عبد الرزاق بنواحي ، كلية
الآداب ، فاس ، 1977م .

ابن الخطيب لسان الدين :

106- أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي
بروفسنال ، دار المكشوف ، ط2 ، 1956م .

107- الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج1 ، تحقيق بوزياني الدراجي ، دار الأمل
للدراسات ، الجزائر ، ط1 ، 2009م .

ابن عذاري المراكشي :

108- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة ج.س
كولان ، إلفي بروفسنال ، دار الثقافة للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1983م .

ابن مرزوق الخطيب :

109- المجموع ، الخزانة العامة ، الرباط .

110- المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق ماريما
بيغيرا ، الجزائر ، 1981م .

ابن مريم الشريف :

111- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تصحيح محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، 1326هـ - 1908م .

التنسي محمد بن عبد الله :

112- نظم الدرّ والعقيان ، القسم الرابع في محاسن الكلام ، ترجمة وتحقيق نوري سودان ، النشرات الإسلامية للنشر ، ط1 ، 1982 م .

الحميري محمد بن عبد المنعم :

113- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، نشر مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1980م .

العمرى شهاب الدين بن فضل الله :

114- مسالك الأبصار في عجائب الأمصار ، دار الكتب الوطنية ، رقم 6778 ، القسم 07 .

المازوني أبو زكرياء :

115- الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، ج1 ، دراسة وتحقيق قندوز ماحي ، طبع وزارة الأوقاف الجمهورية الجزائرية ، 1433هـ .

المجلدي أحمد سعيد :

116- التسيير في أحكام التسعير ، تحقيق موسى لقبال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970م .

المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني :

117- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ج1 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1358هـ - 1939م .

118- نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، ج3 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، 1968م .

النميري ابن الحاج :

119- فيض العباب وإفاضة الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، تحقيق محمد شقرون ، دار الغرب الإسلامي للنشر ، الرباط ، ط1 ، 1990م .

الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى :

120- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، مج 06 ، تحقيق محمد حجي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ودار المغرب الإسلامي للنشر ، الرباط ، 1401هـ - 1981م .

د- المراجع باللغة الفرنسية :

BRUNSHING :

98– Deux recits de voyage inedits en afrique du nord au 15^{ème} siècle , Abde bassit halil .

GEORGE Marçais :

99– collection les villes d’art célèbres , Tlemcen , paris , Laurens , 1950 .

100–Tlemcen ville d’art et d’histoire 2^{ème} congres de la fondation des société savants de l’afrique du nord tlemcen , publié par soin de la société historique algerien , Alger , 1936 .

Richard (i) Lawless :

101–Tlemcen capitale du maghreb central.

Sid Ahmed Bouali :

102–Les deux grands sièges de tlemcen , Alger : ENAL , 1989 .

هـ - الموسوعات :

حميش عبد الحق ، محفوظ بوكراع بن ساعد :

103- موسوعة تراجم علماء الجزائر ، علماء تلمسان وتوات ، دار زمورة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011م .

ز - المجالات :

باشا نجاة :

121- التجارة في المغرب الإسلامي من القرن 4 إلى 8هـ ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1976م .

بورويبة رشيد :

122- جولة عبر مساجد تلمسان ، مجلة الأصالة ، العدد 26 ، 1975م .

الزيات أحمد حسن :

123- اتجاه الأدب الحديث ، مجلة الرسالة ، العدد 994 ، تاريخ 21 / 07 / 1952 .

لعرج عبد العزيز :

124- مدرسة العباد : نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب ، مجلة الدراسات الإنسانية ، جامعة الجزائر ، العدد 02 ، 1423هـ - 2002م .

ح- الرسائل والمذكرات الجامعية :

دحو العربي :

- 125- الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية في منطقة الأوراس من 1954 - 1962م ، رسالة ماجستير ، تحت إشراف إبراهيم شعلان ، 1983م .

زريوح عبد الحق :

- 126- الشعر الملحون الصوفي في شمال الغرب الجزائري 871هـ / 1954م ، أطروحة دكتوراه ، إشراف د.شايف عكاشة ، قسم الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، 2000 - 2001م .

- 127- الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي ، أطروحة ماجستير ، إشراف د.عبد الحميد حاجيات ، تلمسان ، 1990 - 1991م .

شعيب إبراهيم :

- 128- الصحراء والأنواء في الشعر الشعبي من خلال شعراء الأطلس الصحراوي ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ، إشراف د.عبد الحميد حاجيات ، ت 2003/2004م .

مقتونيف شعيب :

- 129- صورة المرأة في شعر ابن سهلة جمع ودراسة ، القسم الأول ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، 1995م .

ناصر محمد :

130- جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب في العصر الوسيط ، القرن 8 هـ / 12 م ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ، كلية الآداب ، الرباط ، ق1 ، 1988 م .

ط- مواقع النت :

أحمد سهام :

131- www.almrsal.com ، 07 / 05 / 2014 .

البناء محمود خالد :

132- الطبيعة المتحركة في شعر ذي الرمة ،

www.wata.cc/forums/showthread.php?88807

عبد المنعم هبة :

133- شعر الطبيعة و موضوعاته في الشعر

الأندلسي، [vb.mediu.edu.myshowthread.php ?t=372](http://vb.mediu.edu.myshowthread.php?t=372)،

134- الموسوعة الجغرافية :

<http://www.4geoeraphy.com/vb/t2842,ht>

135- catalina-1411.blogspot.com/2013/10/blog-post_1950.htm

136- <https://ar.m.wikipedia.org>

137- www.hacen.net

138- EYE.com.mars.2013 REP.

فهرس الموضوعات

المقدمة:	أ- و.....
المدخل: شعر الطبيعة وتطوره عبر العصور	08.....
الفصل الأول : مدينة تلمسان إطارها الجغرافي وبنيتها العمرانية وتركيبها الاجتماعية	45.....
أولاً : الإطار الجغرافي للمدينة	45.....
ثانياً : البنية العمرانية للمدينة	54.....
ثالثاً : التركيبة الاجتماعية	75.....
الفصل الثاني : مضامين شعر الطبيعة الشعبي بتلمسان	99.....
أولاً : ازدهار الشعر وتطوره في المنطقة	99.....
ثانياً : الشعر الشعبي وأعلامه بتلمسان	108.....
ثالثاً : موضوعات شعر الطبيعة الشعبي لدى شعراء تلمسان	134.....

الفصل الثالث : شعر الطبيعة الشعبي في تلمسان وخصائصه الشكلية

والفنية 213

1- اللغة 214

2- الرمز 228

3- التناص الأدبي الشعري..... 240

4- الصورة الشعرية البلاغية 253

5- الإيقاع الشعري 264

6- تأريخ وتوقيع القصائد..... 273

الخاتمة: 284

الملاحق : 288

قائمة المصادر والمراجع : 311

فهرس الموضوعات..... 335

الفصل الأول

مدينة تلمسان إطارها الجغرافي

و بنيتها العمرانية و تركيبها

الاجتماعية

الفصل الثاني

مضامين شعر الطبيعة

الشعبي بتلمسان

المصنّف

المقدمة

الخطبة

قائمة المصادر

والمراجع

فهرس

الموضوعات

الفصل الثالث

الخصائص الشكلية لشعر

الطبيعة الشعبي في تلمسان

الملاحق

المخلص

يعالج هذا البحث نوعاً من الدراسات المتعلقة بالشعر الشعبي لدى نخبة من شعراء مدينة تلمسان الأثرية التي تزخر بحضارة عربية أندلسية ذات أهمية بالغة، ويبرز جانباً من التصوير الفني لعناصر الطبيعة بأنواعها بين بساتين وطيور وأزهار ومباني ومنشآت عمرانية بأسلوب شعري يُظهر براعة إبداع الشاعر الشعبي التلمساني في تغنيته بالطبيعة.

الكلمات المفتاحية:

شعر الطبيعة الشعبي، مدينة تلمسان، عناصر الطبيعة

Résumé :

Cette recherche traite certaines études liées à la poésie populaire chez l'élite des poètes de la ville antique de Tlemcen qui se caractérise par une importante civilisation arabe andalouse, qui met en évidence une partie de la photographie artistique des éléments de la nature avec tous ses types : les vergers, les oiseaux, les fleurs, les bâtiments et les constructions urbaines dans un style poétique mettant ainsi en valeur la créativité du poète populaire Tlemcenien.

Mots-clés: La poésie de la nature populaire, la ville de Tlemcen, les éléments de la nature.

Summary:

This research deals some studies related to popular poetry of the poets elite of the ancient city of Tlemcen which is characterized by an important Andalusian Arab civilization. Moreover, put in evidence a part of the artistic photography of the elements of nature with all its types: orchards, birds, flowers, buildings and urban constructions in a poetic style thus highlighting the creativity of the Tlemcenian popular poet.

Keywords: The poetry of popular nature, the town of Tlemcen, the elements of nature.